ولا غالب إلا الله

تطوان



المملكة المغربية

وزارة التربية الوطنية
والشبيبة والرياضة

«تطوان»

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

تنبيه :

لا تقبل للنشر الا المواد المطلوبة.

المقالات المعروضة لابد ان تمضى بأسماء اصحابها.

يجب على المؤلفين او الناشرين الذين يرغبون فى الاخبار عن مؤلفاتهم فى «تطوان» ان يبعثوا نسختين الى سكرتارية هذه المجلة.

المراسلة الادبية توجه الى السكرتير، وغيرها تبعث الى مدير «تطوان» : معهد مولاى الحسن. تطوان (المغرب).

ثمن النسخة :

المغرب، اسبانيا وفرنسا : سنة واحدة .... 1250 فرنك

فى باقى البلاد : سنة واحدة .... 4 دولارات

تطوان

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

منشورات الجامعة المغربية

كلية الآداب

*

معهد مولاى الحسن

للابحاث المغربية الاندلسية

تطوان

مجلة للابحاث المغربية الاندلسية

عدد ممتاز

العددان الثالث والرابع

السنة 1958 – 1959

دار كريمـاديس للطباعـة ـ شـارع محمد الطريس 17 ـ تطوان (المغـرب)

محمد الفاسي

اصل المدنيات البشرية وفلسفة التاريخ

ان فلسفة التاريخ هذا العلم الذى يحاول شرح الاحداث التى مرت على الانسانية فى تطورها الحضارى والذى يعتنى بتشخيص الخواص التى تميز المجتمع البشرى، يرجع الفضل فى اسسه الاولى لمفخرة المغرب العربى الفيلسوف ابن خلدون، وقد جاء بعده مفكرون من اهل الغرب اعتنوا بهذا العلم ووسعوا دائرة بحوثه ونتج عن ذلك ان ظهرت عدة مذاهب يهدف كل واحد منها الى تفسير شامل لكل الظواهر التاريخية .

وان من اشهر علماء فلسفة التاريخ فى عصرنا العلامة الانجليزى الاستاذ ارنولد طوينبىArnold Toynbeeوقد وضع فى ذلك مؤلفا عظيما[1] يحتوى على عدة مجلدات صدر منها ستة، وقد نالت اعجاب العلماء فى العالم بأسره وترجمت الى عدة لغات وقد اختصر الاستاذ سومر فيل هذه الاجزاء فى جزء واحد وافق عليه المؤلف وراجعه قبل نشره .

وقد كنت عكفت على دراسة هذا المجلد الذى يقع فى اكثر من ستمائة صفحة لما كنت معتقلا باغبالو ن كردوس، وعمدت الى تلخيصه سعيا وراء تسهيل الاستفادة منه لانه كتاب يتعين على كل مثقف ان يكون على بينة من البحوث التى يحتوى عليها والآراء الجديدة التى ابتكرها العلامة طوينبى والطريقة النهجية فى البحث التى انتهجها، وهذا الملخص هو ما أنشره الآن تعميما للفائدة.

عقد العلامة طوينبىArnold Toynbeeفصوله الاولى فى بيان كيف تكونت المدنيات البشرية، وقال ان المجتمعات البشرية المتمدنة وغيرها تبلغ نحو 650 وان اصل المدنيات فى واحد وعشرين منها وان من بينها ستة فقط كونت مدنيات بدون اقتباس وعنها اتخذت المجتمعات الخمسة عشرة الاخرى. والمدنيات الست الاولى هى : المصرية، والسومرية، والصينية القديمة، والمایاوية والاندية والمنووية .

ثم درس اسباب نشوء هذه المدنيات ففند الآراء التي تنسب ذلك للعنصر والآراء التي ترجعها للوسط واتى بنظرية طريفة وهي ان اصل كل هذه المدنيات رد فعل بشري لاحداث طبيعية جعلت الحياة في بعض النواحي مستحيلة بسبب الحرارة المفرطة مثلا وبين ان البشر في مقابلة هذه الاحداث اما هاجر الى الجنوب او الى الشمال او بقي في محله فانقرض او بقي وبدل اساليب حياته او اتجه الى مستنقعات النيل كالمصريين واسسوا مدنيتهم، وهكذا يرجع اصل المدنية الى مقاومة البشر للطبيعة .

وعند كلامه على اصل المدنية المنوية وهي اصل المدنية اليونانية قال ان البشر الذين عمروا جزر بحرايجيا جاؤوا من افريقيا بدليل آثار العظام القديمة التي اكتشفت بها وذلك ان من هاجر اليها اعترضته البحار ـ فاضطروا لتأسيس مدنية بتلك الجزر، وعنده ان كل مجتمع يتركب من دولة عامة Etat Universel ومن العنصر العام الداخلي والعنصر العام الخارجي (Prolétariat extérieur; Prol. intérieur) والعنصر العام الخارجي يتكون في الغالب من هجوم قبائل متوحشة (Völkerwanderung)

والمدنيات المشتقة من المدنيات الست الاصلية تكونت عند ما بدأت المدنية الاصلية تفقد حيويتها الابتكارية فتقوم اقلية بفرض حكمها وتسود بالظلم والعسف على العنصر العام الداخلي والخارجي ولكن هذه السيادة لا تدوم اذ يبدأ العنصر الضعيف يكافح للبقاء ويقوى بقدر ما يعظم القمع حتى يتغلب ويقضي على الاقلية الظالمة وتتكون هكذا المدنية المشتقة وقد يعين على ذلك ايضا مقاومة احداث طبعية كذلك كما كان الشان في تكون المدنية الاصلية

ويظهر مما تقدم ان النظرية العامية التي تقول ان المدنيات تتكون حيث تكون الظروف المعاشية سهلة باطلة بل الامر بخلاف ذلك وهذا الزعم ترتب عن الاعتقاد بأن الوسط الجغرافي الذي نراه الآن مثلا في مصر هو الذي كان عند تكون المدنية والامر بخلافه فان البشر هو الذي جعل من مستنقعات وادي النيل اراضي صالحة للزراعة والحياة .

ومما يؤكد هذا ان نواحي في المعمور (وسط امريكا ـ سرنديب شمال الجزيرة العربية) تقدمت فيها مدنيات مزدهرة بسبب كد الانسان وعمله. ولما تخلى عن ذلك لاسباب مختلفة رجعت تلك النواحي لتوحشها وعمت النباتات المباني والقصور وانمحت الحياة منها، وعليه فالسهولة مضرة بالمدنية وبقدر الصعوبات التي تلاقي الانسانية في طريقها يكون النجاح في الميادين العمرانية .

ثـم عقد فصولا فى الاحتجاج لنظرية ان الخطـوب العظيمة والنكبـات الكبيرة تعقبها عند الامم الفتية نهضات وانتصارات تجعلها تحتل مكانا عظيما بين الامم واتى على هذا بامثلة كثيرة علـى قاعدتـه ماخوذة من تواريخ امم مختلفة وفى ازمنة قديمة وحديثة ومن هذه الامثلة ان السيادة القديمة كانت فى النصف الاول من تاريخها للاقطار الجنوبية وذلك انها كانت دائما مهددة من قبل القبائل النوبية فلما توصلت للتغلب عليها وابتلاعها ثقافيا وفقـدت بسبب ذلك الناحية الجنوبية ذلك الخطر الـذى كـان يجعلهـا دائما متحفزة حذرة مستيقظة اخلدت الى الراحة وصارت الغلبة للاقطار الشمالية التى كانت من جهتها تحت تهديد القبائل الليبية من غربها والممالك الاسيوية من شرقها وهكذا فان كل تحد كما يسميه المؤلف (Défi) سواء كان طبعيا او انسانيا من الداخل او من الخارج يكون له رد فعل فى صالـح المقاومـيـن الثابتيـن ويكون حافزا لهم على التقدم والتوسع والاستيلاء .

ثم انه باستمـرار الضغـط الخارجي على أمة تستمر حيويتها وبدوام تيقظها وحذرها يدوم عزها بل وجودها وقد مثل لذلك من بين امثلته بالدولة المجرية الشمساوية وضغط الاتراك عليها وذلك مدة اربعمائة سنة على ما قال (ولعلها 500 فى الواقع) حتى ماتت الامبراطوريتان فى وقت واحد سنة 1918، بل وافق عصر ضعف النامسا عصر انحطاط الاتراك فى القرن التاسع عشر.

ومثل لهذا ايضا بفتح العرب لاسبانيا وقال ان هذا الخطر العظيم هـو الذى ثبت اقدام النصرانية باوربا الغربية وجعلها تنتشر بعد ذلك فى انحاء المعمور على يد الاسبان والبرتغال، ذينك الشعبين اللذين تحملا من مقاومة العرب ما هو مسطر فـى التاريخ، وهنا ايضا نرى انه بمجرد ما انتهى ضغط الاسلام على اسبانيا فقدت حيويتها وخبت جذوتها .

وفى الفصل الثامن ص 158 المعنون «بالوسط بين طرفين» شـرح ان ذلك الضغط سواء الناتج عن الظروف الطبعية او عن اسباب انسانية ينبغى ان لا يبلغ من الشدة درجة يكـون معهـا رد الفعـل ضعيفا، ولا ينبغى كذلك ان يكون التحدى تافها والا لما ترتـب عليه رد فعل يمكـن اذن ان يستنتج مـن كل ما تقدم هذه القاعدة وهى : «ان التحدى يجب ان يكون وسطا بين طرفين هما ضعف التحدى وقوة شدته» واخـذ يمثل على عادته لهذه القاعدة، ومن هذه الامثلة ان تسرب المدنية اليونانية على يد الاسكندر الى المجتمع السورى كان تحديا مستمرا، حاولت تلك المدنية مقاومته اربع مرات وكانت تلك الردود كلها دينية وهى الزرواشيـة واليهوديـة والسنطورية وعقيدة وحدة الطبيعة الالهية وقد فشلت كلها ولكن المقاومة الخامسة وهى الاسلام فانها كتب لهـا النجاح (ص 162) وما مات الامبراطور هرقل حتى شوهد سيدنا عمر خليفة

النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) يدخل مملكته ويقضي نهائيا على الروح اليونانية التي كانت تغزو المجتمع السوري منذ ايام الاسكندر، وهكذا فقد نجح الاسلام حيث فشل كل من سبقه واعاد من جديد للمدنية السورية وجودها بعد ان قضى الاسكندر عليها باخضاعه للفرس ومكن الاسلام لهذا المجتمع السوري ان تكون له دولة عامة وديانة عامة تكونت منهما المدنيتان العربية والايرانية .

وبعد هذا عقد فصلا هو التاسع والاول من الباب الثالث «نمو المدنيات» للكلام على المدنيات الراكدة والمدنية في اصطلاحه هي مجموعة احوال معاشية يكون عليها شعب من الشعوب فسكان القطب من الايسكيمو لهم مدنيتهم والرجال الصحراويون اصحاب الابل او الخيل لهم مدنيتهم وهكذا، وقد قسم انواع المدنيات الى ثلاثة اقسام : المدنيات الراقية (اى التي لم يتعرض نموها اى عارض، وارتفعت وترعرعت) والمدنيات الجهيضة اى التي ماتت قبل ان تستتم نموها الطبعي والمدنيات الراكدة وهي التي وقفت في الطريق وجمدت على حالة وهي التي تعرض لها بالدرس في هذا الفصل التاسع، وقد مثل لهذه المدنيات بالشعب السبارتي في التاريخ القديم وبالعثمانيين في العصر الحديث وبالاسكيمو والرجال الصحراويين وبسكان الجزر البولينيزية، وبين ما بين هذه الشعوب من شبه من نواح، فسكان البحار في الجزر كسكان الصحارى في الواحات، وقطع المسافات الشاسعة فوق سفن الرمال او سفن البحار له صفات متشابهة وفي هذا الفصل ذكر ان تربية الحيوانات التي صارت رفيقة البشر في صحاريه كالفرس والجمل والشياه ونحوها اظهرت تفوق الراحل الصحراوي على اخيه الذى اقبل على الزراعة والاستقرار، وان توصل البشر الى الحياة في الصحارى القاحلة هو في الحقيقة انتصار للكفاءة والبراعة الانسانية .

ولكن مقتضى ظروف هذه الحياة تفرض وقوفا و ركودا هو عنوان كل المدنيات الصحراوية لان تحدى الوسط الجغرافي كان من الشدة بحيث استلزم رد الفعل بذل مجهود قوى استنزف كل القوى البشرية .

وفي مثال الشعب التركي العثماني كان التحدى انسانيا لا طبعيا حيث ان المشكل بالنسبة للاتراك العثمانيين كان هو وجودهم امام شعوب اجنبية عنهم من سائر النواحي وقد دخلت تحت حكمهم فكان هذا التحدى وهو ضرورة استمرار استيلائهم عليهم يتطلب من العثمانيين ـ وقد كانوا قبل شعبا من الرحال ـ ابتداع حلول خاصة وهي تربية البشر كما ربى اخوانهم من الرحال الاخرين الحيوانات، وهنا ذكر انهم نجحوا نجاحا باهرا في هذا الباب وشرح اساليبهم في ذلك وتربيتهم للمماليك من الانكشارية وغيرهم

وذكر مستشهدا بكلام «المؤرخ المغربي الكبير» ابن خلدون ان الامبراطوريات التي يؤسسها البدو الرحل تكون قصيرة العمر لا تتعدى في الغالب ثلاثة اجيال (نحو 90 سنة عندنا ولكنه قدرها هو بنحو 120 سنة جاعلا لكل جيل 40 سنة) ومثل لهذا بعدة ممالك (الهان «اتيلا» والمغول والهيكسوس عند قدماء المصريين الخ) وذكر ان طول دولتي المغول (قرنين) والكين بالصين الشمالية (3 قرون ونصفا) شيء استثنائي، ثم قال، واما طول حياة الدولة العثمانية فهو شيء فريد وينسبه لنجاحهم الباهر في اتخاذ المماليك وتربيتهم وتنظيمهم وتعليمهم الطاعة والامتثال والانقياد واسناد كل المهام الادارية والسياسية والعسكرية اليهم وابعاد الاحرار عنهم، وهذه اغرب ظاهرة في هذا النظام العثماني، ولكن هذا النظام نفسه هو سبب انهيار الصرح العثماني نفسه حينما اراد كل واحد ان يستفيد من الامتيازات التي كان يتمتع بها المماليك من الانكشارية واخذ حتى الاحرار ينخرطون فيها فكثر عددهم وقلت كفاءاتهم وانحلت تلك الشدة التي كانت تسيرهم وزالت الصرامة التي كانوا يؤخذون بها في تربيتهم وفي تأدية واجباتهم مما ادى الى الزوال وهكذا وقفت المدنية الرحلية (Nomade) وما عليه الآن الاتراك هو مجرد تقليد لمدنية لا تمت اليهم بصلة .

وفي معرض كلامه على انهيار الدولة العثمانية في اوائل القرن التاسع عشر ذكر انه كان اذاك يظن ان تراث العثمانيين خصوصا في مصر كان سيؤول للانجليز او الفرنسيين لو لم يقيض الله لمصر رجلا عظيما استطاع بعبقريته الفذة ان يبعد عن مصر هذا الخطر .

وقد تكلم على نظام تربية السبارتيين لابنائهم تربية عسكرية وشبهها بتربية الانكشارية (وان الجيش الذي اتخذه المولى اسماعيل من العبيد البواخر له شبه كبير بكل ذلك (تعليق للملخص)

وجعل ملحقا لهذا الفصل ذكر فيه ان الصحاري والبحار كان لها دور كبير في نقل اللغات في كل عصر ومثل لذلك بالعربية والانجليزية والبلينيزية .

ثم عقد فصلا لدراسة طبيعة نمو المدنيات وترقيها وذكر ان اولى مميزات هذا الترقي ان يكون التحدي الذي تتعرض له المدنية والذي بسبب الانتصار عليه تعيش من شانه ان يتكرر حتى تنتقل تلك المدنية من انتصار الى جهاد جديد ومن حل مشكل الى مواجهة آخر اذ الانتقال من اضطراب

الى استقرار لا يكفي اذا اعتبرنا أنه يجب أن يتبع الولادة النمو. وبعد هذا المبدأ العام أخذ يبحث عن مظاهر هذا النمو فقال يجب اولا تنحية فكرة شائعة وهي ان التوسع الجغرافي من دلائل النمو، اذ كثيرا ما يكون الامر بخلاف ذلك وعند ما نرى شعبا يتسع في الارض يكون سقوطه قريبا وهنا ذكر ان من اهم اسباب سقوط الامم «النظام العسكرى» اى الاتكال على القوة والغلبة بالسلاح للاستيلاء، وان مدنيات انهارت بسبب تطاحن الشعوب التى يكونونها فى حروب بينهم تنهك قواهم، وقال بالحرف : «ان تاريخ كل الشعوب تقريبا يعطينا امثلة توسع جغرافى يقع فى نفس الوقت مع انحطاط من حيث قيمة الحضارة»، وشرح هذه النظرية ومثل لها من تاريخ اليونان والصين ثم ذكر ان الترقى فى الاساليب التقنية الفلاحية والصناعية ليس كذلك معيارا للنمو ولكنه يطلعنا على مبدأ يسود الترقى التقنى وهو «التبسيط»، وشرح ان المقصود بالتبسيط هو ازالة كل ما ليس بنافع ومفيد وتسهيل الاساليب ومثل لذلك بالسيارة بالنسبة للقطار، وباللاسلكى بالنسبة للبرقى، واللغات القديمة بالنسبة للحديثة، وهكذا بحيث يكون كل شىء اكثر جدوى وعائدة من سابقه ولذلك افضل ان نعبر عن هذا الترقى لا بالتبسيط ولكن «بالترفيع» اى جعل الاساليب ارفع من الاساليب المعقدة القديمة القليلة الجدوى بالنسبة للاساليب الحديثة، وهذا المبدأ نشاهده فى نمو كل المدنيات الراقية، فانها دائما ترفع اساليبها وتجعلها اكثر جدوى من سابقاتها، وهذا فى سائر الميادين السياسية والاقتصادية.

ثم اجمل الكلام على طبيعة نمو المدنيات بقوله ص 232 : «ان سلسلة من ردود الفعل مع انتصار على تحديات متتابعة يجب ان تعتبر كمظهر للنمو وذلك اذا رافقت هذه السلسلة محاولة انتقال الجهاد من الوسط الخارجى الطبعى او الانسانى الى الجهاد النفسانى لشخص او لمدنية فى طور الترقى وكلما استمرت المدنية فى النمو يجب ان ينقص اعتمادها على التحديات التى تنبعث عن قوة خارجية تفرض مقابلتها بحروب فى ميادين خارجية ويجب ان يزيد اعتمادها على تحديات تخلقها هى لنفسها فى ميدانها الخاص

ثم عقد الفصل الحادى عشر لتحليل نمو المدنيات وقدم لذلك بمبدأ الانسان مدنى بالطبع «L'homme est por esence un animal social»

«ثم بعد هذا صار يناقش نظريتين احداهما تزعم ان الشخص لا شىء فى وسط المجتمع وانه لا يتصور وجوده بدون هذا المجتمع، والاخرى تدعى ان الشخص هو كل شىء وان المجتمع هو مجموعة اشخاص، وكأنه يميل لهذه

النظرية التى يؤيدها ما نشاهده من بزوغ نبغاء فى المجتمع ينفخون فيه من روحهم ويسيرونه نحو غايات لم يكن ليسير فيها لولا وجود هذه الشخصيات الفذة وقد اعتمد فى تأييد هذه الوجهة على الفيلسوف برگسون واورد نصوصا عنه وهو يسمى هؤلاء «النبغاء» المبتكرين بقوة اعلى من القوة الانسانية ويجعل الصوفية فى الدرجة الاولى منهم ومن ذلك قوله : «ان روح الصوفى الكبير لا تقف عند حد الغيبوبة فى الشهود كمن يقف فى منتهى سيره، وان الوصول الى هذه الدرجة راحة لا شك، ولكنها كاستراحة بمحطة تبقى فيها الآلة تحت الضغط، والحركة ملازمة لها بدون تحرك ولكن فى انتظار قفزة الى الامام، فهو يريد بعون الله تكميل خلق النوع البشرى) .

وهذه النفوس الممتازة تحاول بث ما حصل فى نفسها فى مجتمعنا فان هى لم تنجح فالمجتمع ينبذها وهذا سر اضطهاد الانبياء والمصلحين واصحاب العقول الجبارة ثم انه حتى عند ما تنجح دعوة من الدعوات فان الجماعة التى تعتنقها وتذود عنها وتفهمها حقا تكون دائمة اقلية، واما اغلبية الشعب فانه يكون كقطيع من الغنم يتبع بدون ان يفهم بل يبقى متشبثا فى الحقيقة بما كان عليه من قبل وانما يصبغه بالصبغة الجديدة، وهذا سواء فى المبادىء الدينية او السياسية، ومثل لهذا بالديانات الكبرى المسيحية والاسلام والهندوكية وقال ان اتباع هذه الديانات لا يعتنقونها الا بكيفية شكلية واما عقليتهم فانها لم تبعد قط عن الوثنية الصرفة .

وهكذا فان نمو المدنيات ان هو الا عمل شخصيات فذة تكون كالخميرة فى العجينة العامة، ثم اخذ يبين كيف تنتقل تلك الشعلة من نفس المصلح الى كافة الشعب وهو فى كل هذا الفصل يعتمد على برگسون، والطريقة فى ذلك هى طبيعة البشر فى التقليد واتباع سنة الشخص المنوى فيه الخير (النبى والولى والزعيم والمصلح) ثم بين ان المهم عند هؤلاء النبغاء الممتازين ليس هو الوصول الى مشاهدة الحق والغيبوبة فيه وانما هو الرجوع الى العمل ومثل لذلك برجوع سيدنا موسى من بعد المكالمة ورجوع النبى صلى الله عليه وسلم من تلقى الوحى الى اذاعة رسالته، ونقل عن ابن خلدون نصا فى تحليل هذه النظرية .

ثم ان هذه الحركة من الانعزال الى الرجوع ليست خاصة بالبشر فهى ميزة الحياة مطلقا، وتشاهد حتى فى النبات الذى يدخل فى فصل الشتاء فى الارض وينكمش ثم يخرج فى فصل الربيع وينبعث وهذا هو مبدأ البعث نفسه، فان الانسان يزرع بعد موته وفى ربيع الانسانية يبعث من جديد .

ومن هنا نظرية الرجوع (المسيح واسطورة الملك ارتور عند البروطونيين والامبراطور فريديريك باربروس عند الالمان والامام الثانى عشر عند الشيعة والمهدى) بعد هذه المقدمات اخذ يعطى امثلة تاريخية لهذه النظرية ماخوذة من سير النبغاء الافذاذ (القديس بولس احد الحواريين القديس بنيديكتوس مؤسس الطريقة المنسوبة اليه (480 – 543)، القديس كريكوريوس الكبير (اواخر القرن السادس المسيحى) – بوذا، النبى سيدنا محمد عليه السلام (وقد صور الهجرة كانعزال أعقبه الرجوع الى مكة منتصرا)، ماكيا فيل (1469 – 1527) دانتى. وقد استخلص من سير كل هؤلاء العظماء ان للعزلة والهجرة دورا مهما فى انبثاق مواهبهم وتادية رسالتهم ولاحظ ان اللفظ الذى يعبر به فى اللغات الغربية على العابد الزاهد وهو Anachorète معناه فى اليونانية «من ينعزل» اى الذى ينقطع فى محل وينعزل عن الناس ولكن العظماء الموهوبين يعقب عندهم هذه العزلة عمل جليل لخير الانسانية، وقد ذكر هذه الملاحظة قبل الاتيان بالامثلة من سير العظماء التى اعقبها بامثلة من تطور المدنية الغربية ماخوذة من تاريخ اثينا ومدن ايطاليا المستقلة فى القرون 13 – 14 – 15 ومن تاريخ انجلترا مظهر: فى هذه الامثلة كيف يعقب كل فترة انعزال طور تقدم وفى ما يرجع لانجلترا وهى تمثل الطور الثالث لنمو المجتمع الغربى، قال انها نجحت فى اقتباس نظام المدينة المستقلة التى تكون دولة على حدة كما كان الشان فى ايطاليا فى الطور الثانى وجعلت هذا النظام للامة كلها وذلك لكون رقعتها صغيرة وحدودها بينة ولان لها عاصمة فريدة من نوعها حيث لا تكاد تدانيها مدينة اخرى فى المملكة كثرة سكان وعظمة شان فامكن مع هذه الخصائص وضع نظام ديموقراطى لم يكن تصوره ممكنا فى الامبراطوريات المتسعة الغربية (هابسبورج وهوهانزولرن من بعد) ولا فى مملكة البوربون الفرنسية، وفوق كل هذا فان انعزال انجلترا عن بقية اقطار القارة الاوربية وعدم مشاركتها مدة العزلة فى حروبهم جعل الاقلية الانجليزية تخرج من هذه العزلة بقوى جديدة وابتكارات مفيدة حتى انه لما تحداهم لويس الرابع عشر واضطروا للوقوف امامه تغلبوا عليه بقيادة مارلبوروك الشهير مما جعل العالم الغربى كله يتنبه لهؤلاء الجزريين معجبا بهم حتى صار كل ما ياتى من انجلترا او يتعلق بها او يجرى فى بلادها موضع استحسان واعجاب مما ادى الى الاهتمام بشؤونها السياسية والاجتماعية وهكذا اكتشفت اوربا النظام الملكى الدستورى والفكرة النيابية وكل ذلك كان اساس الثورة الفرنسية وآخر مطاف هذه المرحلة الثالثة تعلق العالم باسره بالفكرة النيابية التى صارت على حد تعبيره «كورقة الكرم التى تطمح الشعوب كلها الى ستر عورتها

السياسية بها، وهذا الشغف الذى تمتاز به الشعوب يشبه شغفها فى الطور الثانى بالثقافة الايطاليه التى كانت سائدة فى المدن الايطالية، وختم الكلام على انجلترا بالاشارة الى ان الديموقراطية النيابية والاسلوب الصناعى فى الانتاج هما من خلق الانجليز وقد خرجا للوجود فى الوقت الذى اطلق عليه احد رجال الدولة المعاصرين لفظة «الانعزال الرائع» . وختم هذا الفصل المهم فى نظرنا بمحاولة شرح ما عسى ان تسفر عنه التجربة الروسية، وهو يرى انه لا يمكن من الآن الحكم على شيء لا يزال فى اول مرحلته ولكن يظهر له ان روسيا فى طور انعزال عن بقية العالم الغربى وانه لا شك سيعقب هذا الانعزال شيء فيه حلول للمشاكل العامة الانسانية .

ثم عقد فصلا نهائيا (12) لهذا القسم الثالث من كتابه بذكر الاسباب التى تجعل المدنيات تختلف اثناء نموها وان سارت من مبدأ واحد وفى ظروف متشابهة وقال ان اجلى ما تظهر فيه هذه الاختلافات هو الفن لانه ايضا اكبر ميزة واوضحها لكل المدنيات الماضية كما ان اوضح ميزة للمدنية الغربية هو الميل للآلية فى كل الميادين الصناعية والعلمية والسياسية بمعنى انهم يضعون لكل شيء آلة تسيره سواء فى ذلك مختلف الآلات الصناعية او النظم النيابية والنقابية او التصميمات العسكرية لذلك يعتبر الغربى كرجل مادى فظيع من قبل نخبة المدنيات الاخرى .

وانتقل للقسم الرابع من الكتاب وهو المتعلق بسقوط المدنيات، وبدأ فى الفصل الثالث عشر بوضع القضية ذاكرا ان من بين المدنيات الست والعشرين التى تكلم عليها فى اول الكتاب، ست عشرة قد انقرضت والعشر الباقية هى : المدنية الغربية، المدنية الارثودوكسية بالشرق الادنى، فرعها بروسيا، المدنية الاسلامية، المدنية الهندية، المدنية الصينية، فرعها باليابان والمدنيات الثلاث الجامدة، البولينيزية، الاسكيموية، مدنية الرحال. ويلاحظ ان الاولى والاخيرة من هذه الثلاث قد دخلتا فى طور النزع الاخير وان ستا من الثمان الاخرى تحت تهديد المدنية الغربية بابتلاعها وادماجها فيها وكلها تتسم الآن بسمات السقوط والانحلال، اما الاسكيموية فانها وقفت فى طور الطفولة .

ومن ابرز علامات الانحلال هذه الظاهرة التى تتجلى فى الطور الاخير قبل الانهيار وذلك ان كل مدنية فى حالة الانصداع تمد فى حياتها بالخضوع لوحدة سياسية اضطرارية على شكل «دولة عامة»، ثم ذكر هذا الشكل لكل واحدة من المدنيات الست قائلا عن المدنية الاسلامية «لعلنا نلمس فى حركة الجامعة الاسلامية العلامة المؤذنة بهذه الدولة العامة»، ثم ذكر انه بناء على ما تقدم يمكن الجزم بأن كل مدنية صارت ضحية لانتصار مدنية اخرى

عليها فانها كانت تحمل قبل ذلك موجبات انهيارها، ثم اخذ فى الفصل الرابع عشر يناقش النظريات التى تشرح اسباب سقوط المدنيات، وبدأ بالتى تقول ان ذلك يرجع لاسباب لا علاقة لها بارادة الانسان، وفند هذه النظرية الجبرية، ثم انتقل الى نظرية شبنگلير الذى يقول ان كل مدنية تمر بالاطوار التى يمر بها الانسان ولكن المؤلف يرى ان المجتمعات ليست فى شىء من الاشياء اجساما حية.

ثم رفض قول من يرى ان السقوط يقع عند ما تقارب المدنية ختام مدتها الحيوية لان المدنيات لا تخضع لقوانين الحياة، وهناك قول آخر ينسب السقوط لكون الطبيعة الحيوية للاشخاص الذين تتركب منهم تلك المدنيه تأخذ فى الفساد لاسباب مجهولة بعد مرور عدد من الاجيال عليهم، ويرد على هذا القول بأن ذلك الفساد هو نتيجة عن انحلال لا سبب له وان ابناء تلك المدنية لو وجدوا فى وسط ناهض لظهرت مواهبهم وتوسع فى الرد على اصحاب هذه النظرية العنصرية الذين يقولون ان دواء فساد تلك الطبيعة هو ان تلقح بدم جديد وبين ان الامثلة التاريخية التى يؤيدون بها وجهة نظرهم باطلة (تاريخ ايطاليا قبل المسيح وقت ازدهار مدنيتها ثم الالف سنة التى اعقبت ذلك وكانت فى حالة جمود ما قامت منه الا بعد تلقيحها بدم القوط واللومبارد الذى تبعته النهضة الايطالية)، قال المؤلف وهذا الشرح لا يفيدنا فى تفهم تاريخ ايطاليا اذا نحن انتقلنا الى النهضة الثانية التى اتسمت بها ايطاليا فى القرن التاسع عشر حتى ان لفظة Risorgimento (البعث) صارت لا تطلق الا عليها؛ فما هو يا ترى الدم الجديد الذى حقن للشعب الايطالى اذاك ؟ لا جواب على هذا السؤال بالطبع، وانما يرجع المؤرخون السبب فى هذه النهضة للهزة القوية التى نتجت عن الاحتلال الفرنسى ايام الثورة وفى عهد نابليون .

وبعد نقض هذه النظريات الثلاث (السبب الخارجي عن ارادة البشر النظرية الحيوية، النظرية العنصرية) تعرض لنظرية اخرى شائعة وهى النظرية الدورية لشرح حوادث التاريخ تتلخص فى كون احوال البشر هى تتعاقب كالليل والنهار واهلال القمر وتعاقب الفصول وبكيفية عامة نظرية التاريخ يعيد نفسه، وقد نقض هذه النظرية كذلك ونبه على انه يمكن ان يستنتج مما سبق من فصول هذا الكتاب ان حركات فى تاريخ البشر تتكرر وتتشابه وتعود فى ازمان مؤقتة ولكن ذلك لا يرجع للحركة الكونية الكبرى التى هى سائرة فى تقدم وارتقاء ولا تتكرر سوى الحركات الصغرى الثانوية

وفى الفصل الخامس عشر اخذ يدرس الاسباب الحقيقية لانحطاط المدنيات ولكنه كما فعل فى الفصل قبله تساءل عن عامل قوى يلوح كانه

السبب الحقيقي وهو ما يسميه فقد السيطرة على الوسط كما شرحه، وانتهى الى نتيجة سلبية ، وذلك ان مقياس هذه السيطرة على الوسط الطبيعي هو اتقان الصناعات وبكيفية اخص هو المقدرة التقنية وهو يرى انه اذا وافق سقوط مدنية تأخرا في الاساليب التقنية عندها فلا يلزم ان يكون هذا التأخر سببا لانهيارها بل نشاهد انه نتيجة للانحطاط، ومن المقطوع به ان اهمال الطرق الرومانية في اوربا لم يكن سببا لانحاط الامبراطورية الرومانية ولكن نتيجة لذلك الانحطاط، وكذلك اهمال نظام السقي في العراق الذي كان سببا في ازدهار المدنيات البابلية والاشورية في ما بين النهرين اعقب زوال تلك المدنيات السالفة قال : «ونصل لنتائج مماثلة ان نحن انتقلنا من الصنائع الآلية الى الفن، فلم عدل الاتراك عن الحروف العربية سنة 1928 ؟ ولم تعدل كل المدنيات الآن باستثناء المدنية الغربية عن لباسها الوطني ومقوماتها الخاصة (Folklore)» واخذ يشرح ان العدول عن المميزات الشخصية لا يرجع لنسيان القواعد الفنية وضياعها وانما لفقد الحاسة الفنية لاعتقاد ان اساليب الغير افضل، فالانحطاط اذن ليس متسببا عن فقد السيطرة على الوسط الطبيعي وانما يرجع لاسباب نفسية، وان استبدال الحروف اللاتينية بالعربية ان هو الا رمز عن فقد مصطفى كمال اتاتورك واصحابه الثقة بثقافتهم الخاصة، والخلاصة ان هجر الاسلوب التقليدي في الفن هو علامة على ان المدنية التي تقترفه منحطة وقد دخلت في طور الانحلال كما ان هجر اساليب تقنية مقررة هو نتيجة للانحطاط لا سببه، ثم انتقل للكلام على فقد السيطرة على الوسط الانساني بمعنى ان المدنيات تموت بسبب هجوم اجنبي وقد لخص هنا كلام جيبون مؤلف تاريخ الامبراطورية الرومانية وسقوطها ونقضه مستندا على كون الامبراطورية الرومانية ان هي الا جزء من المدنية اليونانية والعلامة الكبرى لبدء انحلالها، ومثل ذلك قال في مدنيات اخرى (عصر الذهب السامري : حمورابي، المدنية الصينية القديمة وغيرهما)، وهو في كل هذا يرجع الاسباب لانحطاط المدنيات الى عوامل بعيدة في الزمان بعدا لا يكاد يعقل لمن لا يربط علائق المدنيات مع تاريخها القديم على كيفية لم يتقدم لها نظير عند المؤرخين السابقين حتى ان ازدهار المدنية الاسلامية ايام العباسيين يصوره هذا المؤلف كأنه من تمام المدنية السورية، الفارسية التي كانت مزدهرة في القرن الرابع قبل المسيح واوقف سيرها نحو الفناء تدخل المدنية اليونانية ، وكذلك اسباب الانحطاط يرجعها في كل مدنيه الى مئات السنين ويجعل من عوامله الاساسية فقد الشخصية والاندماج في مدنية اخرى، وهنا رجع للكلام على مظاهر ابتلاع المدنية الغربية الحاضرة

للمدنيات الاخرى المشرفة على الموت مع بيان ان هـذه العلامـات (اقتباس كل مميزات المدنية الغربية الاقتصادية والسياسية والثقافية) ليست هى السبب الحقيقى للانحطاط وانما هى آثاره وبهذه المناسبة استعرض اسباب سقوط عدة مدنيات سالفة مع ذكر مظاهر الانحطاط التى تلته مبينا ان تدخل مدنية اجنبية لا يكون مـن شأنه فـى الحقيقة الا احداث رد فعل فى صالح المدنية المعتدى عليها، واذا كانت اسبـاب الانهيار عميقة وقديمة فلا يكون ذلك التدخل الا كمن يجهز على منتحر، والا فالاسباب الحقيقية ترجـع الى وقت ازدهار تلك المدنية وهذا كما يقول الشاعر: «لكل شىء اذا ما تم نقصان» وقول الآخر : «فراقب زوالا اذا قل تم» وختم هذا الفصل بقوله : «ان الاثر العادى للضغط وللاصطدامات الخارجية لا يكون الا منبها وحافزا لا هداما» واذا سلمنا هذا فان فقد السيطرة على الوسط الانسانى لا يكون فى شىء سببا لانحطاط المدنيات » .

ثم انتقل فى الفصل السادس عشر الى الكلام على السبب الحقيقـى لسقوط المدنيات بعد ان بين ان الاسباب الاخرى التى تعتبر عادة عاملا فـى هذا السقوط ان هى الا مظاهر لهذا السبب العميق الذى يمكن ان نعبر عنه بهذه الجملة «ان المدنيات لا تموت وانما تنتحر» واورد هنا قول الشاعر مرديث Meredith : (حياة المآسى هذه، علم الله، لسنا فى حاجة الـى ان ننسبهـا لاعمال الغادرين، فان شهواتنا تنسج طعمتهـا ولا يخوننـا الا اعمـق ما فى انفسنا من خداع) .

واورد كذلك قـول المسيـح عليه السلام حسب متى (15 : 17 ـ 20) كل ما يدخل من الفم يذهب للكرش ويرمى فى مكان خال ولكن ما يخـرج من الفم يأتى من القلب وهذا ما يلطخ الانسان لان الافكار السيئـة من قتل وزنا ومباضعات محرمة وسرقة وزور وهتك للحرمات الالهية كل ذلك يأتى من القلب، وهذا ما ينجس الانسان»

وبعد هذا التقديم بين ان من بين المدنيـات الاحـدى والعشرين ثلاث عشرة ماتت ودفنت وسبع فى الاحتضـار وواحدة وهـى الغربية ربما كانت تعدت طور اوجها واخذت فى الانحدار .

وبما ان الترقى هو عمل شخصيات او اقليات ايجادية فانها لا تنجـح الا اذا توصلت لجعل الكل يسير فى طريقها ويتبعهـا ويجـب لهذا ان تكون طبيعة التقليد عند الاتباع قوية آلية، الا ان لهذه الطبيعة رد فعل سيئا على اصحاب الدعوة وهو انهم بخضوع مريديهم يفقـدون تلـك الشعلة الايجادية ويتبع ذلك ما نراه فى المدنيات الجامدة او فى اطوار الجمود التى تعترى

تاريخ المدنيات الاخرى، وهناك رد فعل آخر ايجابي وهو اضر على المدنيات من الآخر وذلك عند ما يفلت الزمام من يد الرؤساء .

ثم تكلم على سبب ثان وهو ان المؤسسات تموت بادخال عناصر جديدة عليها لم تكن مستعدة لتحملها واورد قول المسيح (متى 9 : 16 ــ 17) الذي يلخص في كون الانسان لا يجعل رقعة من ثوب خلق لثوب جديد ولا يجعل خمرا جديدة في شكوة قديمة والا انخرقت، ومثل لهذا من التاريخ بالثورة الفرنسية التي اخذت اصولها من حوادث تحرير امريكا ومن تقاليد انجلترا التي نشرها بفرنسا ومجدها مونستكيو وفلاسفة القرن الثامن عشر الآخرون

واذا دخلت عناصر جديدة على جسم قديم فان الانفجار يكون بمقدار الضغط وكلما كانت اسباب الضغط قوية كان الضغط شديدا والانفجار عظيما فيساعد تلك القوى المكبوتة على التحرر .

ومثل ايضا لهذا الانفجار باثر ادخال الآلية في الصناعة على الرقيق في امريكا، واثر هذا التصنيع والديموقراطية على الحرب، وتكلم هنا على التعصب الديني، وقال ان كانت الحرب في القرن الثامن عشر اقل همجية مما كانت عليه قبل فليس ذلك الا لانها لم تبق اذاك آلة في يد التعصب الديني ولم تصر بعد آلة في يد التعصب القومي، ثم تكلم على اثر الديموقراطية والتصنيع على السيادة المحلية فقد كان من اثر ادخال هذين العاملين على هيكل الدولة القديم ان تولدت القومية السياسية والاقتصادية، مما ادى الى الحروب الحديثة، وبين هنا ان بناء المجتمعات على مجرد المصالح الاقتصادية كمن يبني على الرمال المتحركة وان البناءات الصحيحة هي التي تبنى على الاسس الدينية فهي كمن يبني على الصخر .

وانتقل للكلام على التصنيع واثره على الملكية الخاصة وظهور الآراء الشيوعية، ثم تكلم على اثر الديموقراطية في التربية وان من اهم الانقلابات في العصور الحديثة تعميم التعليم الا انه كان من نتائج ذلك ما لم يكن في الحسبان وهو ضعف قيمة الثقافة حيث ابتعد عن التعمق الذي كان ممكنا لما كانت الثقافة من نصيب طبقة خاصة، ثم ان العلم كان يطلب لنفسه، فلما عمم صار اداة لاقتناء المال والاستفادة المادية، وكل ذلك ادى من جهة اخرى الى جعل الشعب تحت سيطرة المثقفين بما لهم من وسائل النشر من صحافة واذاعة وعظمت كذلك سيطرة الحكومات التي تستغل هذه القوى الجديدة ، ثم قال ان كل هذه الامثلة والظواهر لتاثير العناصر الجديدة على المؤسسات القديمة مأخوذة من المرحلة الاخيرة من تاريخ اوربا وساق امثلة اخرى مما قبل، كتاثير مؤسسات الجمهوريات الايطالية على بلاد ما وراء جبال الالب، وان هذا التأثير لم يكن حسنا الا على انجلترا التي خلفت تلك الجمهوريات

كاقلية ايجادية مبتكرة (minorité créatrice) في اوربا، وشبه التاثير الايطالي في التاريخ الحديث بتاثير الجمهوريات اليونانية في القرنين السابع والسادس قبل المسيح ثم تكلم على تاثير الطبائع الخاصة لكل شعب من شعوب اوربا على وحدة المسيحيه حتى ان القومية حلت محل المسيحية كدين لاوربا .

وانتقل للكلام على موضوع من الاهمية بمكان وهو ان الديانات الكبرى التي جاءت بالشمول اي التي بعث انبياؤها الى كافة البشر كان من شانها ان تشن حروبا شعواء على مخالفيها مما لم يكن له وجود في الوثنيات القديمة حيث ان تعدد الآلهة كان من شانه ان يجعل التسامح الديني يسود، ومن متناقضات التاريخ البشري ان يكون الوحي الذي جاء بتوحيد الله والاخوة بين البشر، هو الذي نتج عنه التعصب والاضطهاد فان سعى فرعون اخاناتون لما اراد ان يفرض الايمان باله واحد في القرن الرابع عشر قبل المسيح أشعلها نارا متقدة في القطر المصري، ومثل هذا التعصب صاحب كل تاريخ اليهودية لفرض التوحيد كذلك ومثل هذا شاهدناه في تاريخ المسيحية، ثم قال بالحرف : (ص 330) «وفي صورة تستحق التسجيل هذا التسامح نادى به نبي وعلمه لاصحابه فان محمدا (صلى الله عليه وسلم) الزمهم به في معاملاتهم مع اليهود والنصارى الذين يخضعون للسلطة السياسية الاسلامية معتمدا في ذلك على انهم اهل كتاب «مثل المسلمين انفسهم وجعل هذا التسامح فرضا واجبا، وكون المسلمين سحبوا هذا التسامح على» «المجوس انفسهم بدون نص صريح في ذلك من النبي (عليه صلوات الله وسلامه) يدل بكيفية واضحة على» «روح الحرية التي كانت تسود الاسلام في اول عهده

«واما تلك الحقبة التي عرفت فيها المسيحية التسامح ابتداء من النصف الثاني من القرن السابع عشر فانها» «ترجع لاسباب ساقطة اذ لا يمكن ان يقال تسامح ديني الا فيما كانت فيه فضيلة وعند ما تبحث عن العوامل» «التي ادت الى عقلية ذلك العصر فانه يحق ان يدعى ذلك التسامح» «بالتسامح اللاديني» .

ثم انتقل للكلام عن تأثير الدين في نظام الطبقات بالهند وعن تأثير المدنية في تقسيم الشغل وقال ان العمل كان حتى في المجتمعات القديمة موزعا فكان الحداد والشاعر المغني والكاهن والطبيب ولكن المدنية الحديثة بالغت في هذا التوزيع حتى جعلت من كل صنف انواعا وحتى كاد هذا التخصص الضيق يجعل كل واحد يعمل لنفسه مما هو مخالف لقاعدة الاجتماع الانساني ونرى هذا حتى في الفنون مما هو السائد عند دعاة الفن للفن، وكل ذلك يجعل في نفس الوقت عدم انسجام وتباعدا بين انواع طبقات المجتمع

ويكون فى النهاية من مظاهر هذا السبب الثانى ان الجماهير تأخذ فى تقليد المستحدثات ولكنها لا تأخذ من ذلك الا القشور وتفقد تقاليدها الصالحـه فينهار البناء نتيجة لعدم تلاؤم المؤسسات القديمة مع القوى الجديدة .

وبعد هذا انتقل للكلام على سبب ثالث لانحطاط المدنيات وهو الـذى يجعل من شعب او طبقة سائدة ترى ان التفوق على الغير هو راجع لفضيلة خاصة بها فتتيه وتأخذ فى تمجيد نفسها والاتكال علـى فضائلهـا الموروثة فينتج عن هذا الغرور السقوط ونرى هذه الفكرة (اى التنديد بهذا الغـرور) سائدة فى الاناجيل ومن قبلها فى كل آثار اليونـان الادبية الكبرى (واقـول ان حكم العرب والادب الاسلامى كله مملوء بهذه الفكرة التى رددها الشعراء على شتى الاشكال) وقد مثل لكل هذا بتاريخ اليهود الذين اعتبروا انفسهم شعب الله المختار لانهم جاؤوا بفكرة التوحيد وكذلـك وقع لاثينـا التى كانت تعتبر نفسها «مربية اليونـان» وهو نفسه الذى وقع لجمهوريات ايطاليا التى تزعمت النهضـة فـى اوربا من القرن الثالث عشر الى الخامس عشر وقـد اعقبت هذه الحقبـة فتـرة ركود دامت الى القرن التاسع عشر حيث وقعت نهضة جديدة فى ايطاليـا هى التى يطلق عليها لفظة الانبعـاث (Risorgimento)

ومثل فى النهاية للسقوط بسبب الغرور بولايات الجنوب فى الولايات المتحدة الامريكية التى كانت بلغت درجة عليا فى الترقى، فلما وقعت الحرب الاهلية وغلبت لم تستطع النهـوض الـى الآن وكل من يزور او يدرس هذه الولايات يظهر له الفرق بين الكارولاين الجنوبية مثلا وجيرانها من الولايات الشمالية مع ما تقدم للكارولاين الجنوبية من مجد قبل تلك الحرب.

ومن نوع هذا الاغترار عنـد شعـب بنفسـه الاغترار بمؤسساته التى يعتبرها خالدة والحالة انها زائلة ككل ما هو من انشاء البشـر، ومثل لهـذا ايضا بالنظام الاثينى الذى جعل من مدينـة دولة مستحوذة على باقى الاقطار التابعة لها ممـا ادى الى ذلك الاغترار الذى يتبعه الانهيار، ومن المؤسسات التى اوحت الى نفوس اصحابها الغـرور والتعلق بهـا لدرجة تأليهها الملكية والبرلمانات والنظام الادارى المؤسس على الاوراق والملفات مما هو مشاهد اليوم، ومثل للملوك الآلهة بالفراعنة والمؤلهة بلويس الرابع عشر الملـك الشمس كفرعون عمون ـ را (ابن الشمس)، وللبرلمانات المؤلهة بأم المجالس النيابية ويستمنستر. وكل هـذه المؤسسـات المؤلهة تستلزم كتبة وحفظـة ومسجلين كالكهنة والرهبان للديانات القديمة تلك الطبقات التـى صـار لها ايضا التقديس وهذا ما نراه فى طبقـة الموظفيـن والكتـاب فـى مختلـف الوزارات والادارات اليوم ومن نوع الاغترار كذلـك التشبث باساليب تقنية

والجمود عليها مع تقديسها مما يؤدي الى عدم البحث عن ترقيتها او محاولة ايجاد طرائق اخرى في الصناعة وفي وسائل الحياة وهذا هو السر في كون بعض المدنيات بقيت جامدة فالايسكيمو والرحالة ركزوا كل مواهبهم على اساليب تربية المواشي والصيد وانهم يتقنون طبعا ذلك لدرجة لا تقارب ولكن هذا هو سر جمودهم فهم لا يستطيعون مجابهة حياة اخرى، ونرى هذه الظاهرة حتى في عالم الحيوانات التي اذا تعودت على الحياة في وسط من الاوساط، وترقت مقاومتها لما يحيط بها من المؤثرات ثم نقلت لوسط آخر لا تقدر على التأقلم فتضمحل، وقد عبر عن هذه الظاهرة العامة احد العلماء بقوله «لا شيء يفشل بالسهولة التي يفشل بها النجاح» وقد اطال هنا في تشبيه المجتمع البشري وتطوره بعالم الحيوانات ناقلا اقوال العلماء المختصين من ذلك قول هيرد في كتابه اصل المدنية (1) «ان الحياة تنمو بالاستعداد لرد الفعل بسرعة مع الحذر وبالتعرض للاخطار لا بالاحتماء عنها وبالاحتياج لا بالحصول على السلطة التامة وهي تنمو مع ضعف البنية احسن مما تنمو مع الصلابة» .

ومن مظاهر التشبث بالاساليب الموروثة الصناعة في انجلترا التي كانت تدعى «مصنع العالم» والتي بتقديسها لاساليبها الصناعية وقفت في كثير من المناحي في الاساليب التي استغنى بها اجداد سادات الصناعة في بريطانيا العظمى، واعظم من ذلك ما نشاهده عند الامريكان انفسهم فانهم لا يسايرون الترقي في اختراع يرجع الفضل لهم فيه وهو السفينة ذات البخار وقد اتقنوا هذا الاختراع وتشبثوا بما توصلوا اليه فيه لدرجة انهم لم ينتبهوا لادخال التحسين العظيم الذي ادخل عليه بانجلترا الا مؤخرا وهو «الدفع بالفرفارة»(propulseur à hélices) ونرى من هذه المظاهر ايضا تشبث الامم الحربية بأساليبها العتيقة التي انتصرت بواسطتها في حروب عدة ومثل لهذه الظاهرة بعدة حروب منذ مقابلة سيدنا داود بمقلعه لجالوت مدججا بسلاحه الى خرق الجنود الالمانية لخط ماجينو العتيق .

وهذا السبب الثالث في مظاهره الثلاثة يمكن ان نعبر عنه «بالاستراحة فوق اغصان الغار» التي يكنى بها عن النصر ويقول المغاربة لمن كان في هذه الحالة «نام على فراش الريش» .

ثم تعرض للسبب الرابع حسب نظره في سقوط المدنيات الذي عبر عنه «بتخريب القوة الحربية نفسها بنفسها»(auto-destruction du militarisme) وقدم لذلك بقوله ان سير هذا العامل يكون على ثلاث مراحل: الشبع الى الامتلاء (او التخمة) Kôpos ــ التجبر Ghpis ــ والكارثة Atn

(1) Heard (Yerald) : The Source of Civilisation. ص 71-72

ومعنى كل هذ ان القوة الغاشمة لا تقـف عند حد وتريد الاستيلاء والزيادة في الاستيلاء وهو المعبر عنه بالتخمـة ثم يجعـل اولئك المستبدين يظلمون ويتعدون وعاقبة الظلم الفناء والانهيار، لان القوة وان سادت مدة فانها تجعل قوة اخرى تستعد لمقاومتها وطبيعة من يتكل على السلاح ان لا يقف مكتوف اليد امام عدوه ولو كان سلاحه اضعف من سلاح ذلك العدو، وهكذا تتحقـق دائما الحكمة التي تقول ان من يسلون السيف يموتون بالسيف، ومثل لهذا المبدأ العام بتاريخ اشور وكيف حاولت الاستيلاء على سائر العالـم الشرقي الى مصر مـن ايـام تيكلات فالازار (Teglathphalazar)(745 — 727 قبل المسيح) الى سقوط الدولـة الاشورية وزوال اسمهـا من خريطـة العالم قرنا ونصف قرن بعد ذلـك .

وهـذا اوضـح مثـال لانتحـار امة فـان الاشوريـيـن سعـوا بحـب الاتساع الى حتفهم بأيديهم كمن يقف فوق غصن شجرة ينشره فيسقط واياه وتبقى الشجرة واقفة، ومثل كذلك بتاريخ شارل الكبير (شارلمان) الامبراطور الافرنجي الذي ترك الشعب يئن تحت المغـارم والضرائب بسبـب مطامعـه الكبرى وكذلك مثل بتاريخ تيمورلنك الذي يعد ايضا عمله كانتحار له ولشعبه اذ ان كل فتوحاته التي لم تكن مؤسسة على عدل او اية فكرة سامية ذهبـت بذهابه ولم يخلف الا الدمار وكان ضـرره على الاسلام الذي ادعى انه يخدمه اكثر من كل شيء قبله فاوقف سيره السلمي الذي كان يغـزو النفوس في الشرق الاقصى، وتمتاز هذه الامثلة الثلاثة بكون قوة حربيـة كانت معـدة للدفاع عن مدنيـة خاصة انقلبت وبالا عليها لما ارادت ان تخرج عن الجـادة بحب الاستيلاء والتوسع .

ثم ختم هذا الفصل بالكلام على السبب الآخر لسقوط المدنيات وهـو الذي عبر عنه بالتسمم من جراء النصر وهذا التسمم يكون في النصر الحربي كما يكون في انتصار افكار او مبادىء روحية، ومثـل لهـذا النـوع من النصر الاخير بتاريخ الكنيسة والبابوية وكيف انها بعد ان فرضت سلطتها الروحية ايام البابا كريكوار السابع (هيلدبراند) من 1073 الى 1085 وهو الذي طهـر الكنيسة من الرذائل التي كانت ملتصقة بها من فسق الرهبان وأخذهم الرشى مقابل تسهيلات الواجبات الدينية وهو الذي فرض الرهبانية اى عدم التزوج على اعضاء الكهنوت الكاتوليكي، بعد هذه الاصلاحات التي قوت مركز البابويه اخذت الكنيسة تطغى وتسعى في فرض سلطتها السياسية لدرجة ان كريكوار بعد لم يكتف بكل ذلك حتى اراد التوسع وقام في وجه السلطة السياسيـة في شخص هانـرى الرابـع الامبراطـور الجرماني الـذى كـان علـى رأس

الامبراطورية المقدسة وقد اراد التدخل فى تعيين الاساقفة، وكان من جراء معارضة البابا ان ارغم الامبراطور على الاتيان الى كانوسة لطلب المسامحة وهنا يبتدىء سقوط الكنيسة فى اوج عظمتها حتى سارت فى انحطاط من حيث السلطة السياسية وفقد سيطرتها على الممالك الاوربية التى استقلت عنها تماما وحتى لم يبق لها سوى تلك النقطة الضيقة المبنى فيها قصر البابوات الفاتيكان لما احتل رومية الملك فيكتور، عما نويل يوم 20 شتنبر سنة 1870.

ومما ورد فى هذا الفصل قوله (ص 386) «ان حلول القوة المادية محل قوة الروح هو التغير الاساسى الذى لم تكن التغييرات الاخرى الا نتيجة له» قال لشرح سبب الرجوع الى الرشى ونحوها من الاحتياج الى المال «ان البابوية صارت حربية، والحرب تستلزم المال الكثير»

ثم انتقل الى القسم الخامس والاخير من هذا المختصر وهو الذى يدرس فيه انحلال المدنيات وهو اصعب هذه الاقسام لان مبادىء التكون تنبىء عن نفسها وعلامات الانحطاط تظهر ايضا واضحة وسط نضج المدينة الكلى وبلوغها اوجها فكل شىء ينم عن انحراف عن الجادة يظهر بينا بخلاف الانحلال الكلى فلا يدرى متى يبدأ ومتى ينتهى اذ المدنيات ليست كالاشخاص الذين بعد موتهم تزول ذاتهم كلها ولا يبقى منهم جزء مادى، هذا ما ظهر لى من تعثره فى البحث عن مظاهر الانحلال وتحليلها وشرحها وقد تنبه الى هذه الصعوبات المؤلف نفسه .

وقد بدأ فى الفصل السابع عشر بوضع المسألة مقدما لذلك بعرض عام حيث بين فيه ان الانحلال هو غير الانحطاط، كما ان التكون هو غير النمو ، وذلك ان بعض المدنيات بعد ان وصلت لطور الانحطاط وقفت حيويتها ودخلت فى طور تحجر وتجمد دام زمنا طويلا واشهر مثال لذلك : المجتمع المصرى فانه بعد مقاومته لهجوم الهيكسوس فى القرن السادس عشر قبل المسيح ابى ان يموت، وظل فى حالة تحجر الى القرن الخامس المسيحى، وهناك امثلة اخرى للتحجر فى تاريخ المدنيات (جيان الهند، بوديو سرنديب والسيام وبيرمانيا الخ) .

وكما ان التحدى ورد الفعل الذى يتبعه من مقدمات النمو فكذلك الشان فى الانحلال الا ان رد الفعل عند ذلك يفشل، وهكذا يسير من فشل الى فشل الى الموت النهائى، وقد اطلق لفظة الانشقاق للتعبير عن جل مظاهر الانحلال فانشقاق فى الهيكل الاجتماعى وانشقاق فى الروحيات وهكذا، وخصص الفصل الثامن للاول بانيا بحثه على التقسيمات التى ركز عليها هذه المباحث من وجود اقليات سائدة وصعلكات داخلية وصعلكات خارجية (وهو

ما عبرنا عنه في اول البحث بالعنصر العام الداخلي والعنصر العام الخارجي والدولة العامة والدين العام .

وقال ان اول ما يظهر من علامات الانحلال انشقاق جماعة من مجموع الاقلية السائدة عن المجموع واخذ يتكلم على رجال الحرب وتكوينهم لطبقة خاصة، وفي الصفحات التي تلي اخذ يتعثر في نظري في امثلة من مختلف التواريخ الشرقية والغربية مما لا تتضح تماما اهميته بالنسبة لموضوع الانحلال الذي اخذ على عاتقه تحليل علاماته وظواهره وهو يحيل في كثير من المسائل على الاجزاء التي لم تنشر من هذه المعلمة في فلسفة التاريخ الواسعة، ومن جملة ما ورد في هذا الفصل قوله : « وبما ان العنصر الثقافي هو الذي يكون روح المدنية في حين ان العنصر الاقتصادي والسياسي ليسا الا مظهرين خشنيين (manifestations relative) بالنسبة له يترتب على هذا، ان الانتصارات ذات البهرجة التي يحرز عليها التوسع الاقتصادي والسياسي، تكون ناقصة واهية (ص 446) وقال في ص 461، ناقلا كلام اينج (Inge) مؤلف كتاب فكرة الترقي بالانجليزية/The Idea of Progress ص 13) «ان المدنيات القديمة اتلفها متهمجون جاؤوا من الخارج، واما اليوم فاننا نخلق نحن انفسنا متهمجين». وقال المؤلف بعد هذا : «من يجرؤ على ادعاء ان الجلد الاسود في حرب الحبشة من سنة 1935 الى 1936 كان هو عنوان الهمجية ؟ «ان الهمجي الحق هو الذي ارتكب عن تعمد جرائمه ضد الانوار والحقائق التي وصلته عن طريق الـوراثـة .

وقد ذكر في هذا الفصل ان استيلاء اقلية داخلية أو خارجية تحتمل في اول الامر ثم بعد طول الزمان تعتاد الاقلية الداخلية ولا ينسى ما كلفته من مصائب لتركيز سلطتها واما الاقلية الخارجية فتبقى دائما موضع كراهية الى ان يتخلص منها .

وتعرض في الفصل التاسع عشر للانشقاق في الروحيات حيث تكلم على بعض الحياة العقلية والدينية كالاسترسال مع الشهوات والاستشهاد في سبيل المثل الاعلى وفكرة الذنب والفكرة الجبرية التي تتجلى بشدة وقوة في طور الانحلال .

وتعرض في قسم من هذا الفصل للكلام على تاثر الاقليات السائدة باخلاق العنصر الخارجي وعوائده مما يكون نذيرا بالانهيار النهائي ومثل لهذا من جملة ما مثل بـه باقبال اوربا بعد فتح امريكا على عوائد سكانها الاصليين (الجلود الحمر) قبل القضاء عليهم من تدخين ونحوه وكذلك التاثر بعوائد شرقية من شرب الشاي والقهوة ولعب «بولو» ولباس المنامة (بيجامة)

والاقبال على الحمامات البخارية (المسماة عندهم التركية) ومن ذلك فى النهاية الاقبال على الموسيقى السودانية المنقولة من افريقيا الى امريكا والمعبر عنها بالجاز .

وعلى هذا تسير الاحوال بتحرر العنصر الداخلي وانغماس الاقلية السائدة في عوائد العنصر الخارجي، وفى اول هذا الطور يكون سير العنصر الداخلي نحو التحرر ظاهرا بينا، واما فى آخر طور الانحلال فان الشيء الذى يظهر واضحا هو انحطاط الاقلية السائدة وسقوطها، وقد بين فى هذا الفصل ان كثيرا من زعماء التحرر تعلموا اساليب المستولين وطرائقهم عندهم ومثل لذلك بطيودريك وبعبد الكريم، قال : وبكيفية عامة فان جماهير الشعوب المستعبدة تتعلم فى الحرب كجنود متطوعة فى صفوف مستعبديها، وقال ان العرب انفسهم كانوا جنودا فى الجيوش الرومانية قبل الاسلام مما ساعدهم على الاعمال التى قاموا بها عند ظهور الاسلام (ولكن هذا الراى وحده لا يكفى لشرح ذلك النجاح الباهر الذى احرز عليه الاسلام، فلولا روح الايمان والثقة بالله التى كانت تطبع نفوس اولئك المجاهدين لما كان فى معرفتهم السابقة غناء (تعليق للملخص) .

وقال فى هذا الفصل «وهكذا عند ما كان المتهمجون (العنصر الخارجي) يرقون اعلى مدارج السلم الاجتماعي كان الرومان ينزلونها».

وتكلم بعد هذا على الفنون واللغات وانحطاطها فى طور الانحلال عند ما تصير اللغة كالمرقعة، وتكلم كذلك عن فساد الديانات بأخذها اعتقادات وخرافات عن امم منحطة وزجها فى صلب ديانة الاقلية السائدة التى جعلت منها ديانة عامة وتكلم على تأثير الملوك على الدين وذلك ما يعبر عنه باللاتينية: Cujus Regio ejus Religio (1)وهو مرادف «الناس على دين ملوكهم» كما نقول

وله فى هذا الفصل ثلاث صفحات عن الاسلام (534 – 636) ينبغى ترجمتها بحذافيرها لاهميتها، فانه بعد ان قرر ان الدين يضيع اكثر مما يربح بالتجائه الى حماية السلطة المدنية او بخضوعه لها، قال : «ولكن يوجد استثناء بين لهذه القاعدة يتطلب ان نشرحه وذلك ان الاسلام نجح فى ان يصير الديانة العامة للمجتمع السورى (2) عند انحلاله مع كونه تعرض لخطر الانحياش الى السلطة السياسية بكيفية واضحة واكثر مما تعرضت له ديانة

---

1) اى ان الملك هو الذى يفرض الدين الذى يبتغيه، وهذه العبارة وردت فى معاهدة اوكسبورك سنة 1555 التى تبيح لكل ملك من ملوك الامبراطورية الجرمانية ان يختار الدين الذى يناسبه لمملكته الكاثوليكية او البروتستانية

2) تقدم له انه يعنى بهذه المدنية الفارسية القديمة التى ازدهرت قبل الاسلام والمدنية العربية التى خلفتها .

اخرى من الديانات التى درسناها الى حد الآن، بل ان الاسلام تعرض لهـذا الخطر فى حياة مؤسسه نفسه ومن جراء هذا المؤسس شخصيا .

ان حياة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) العامة تتكون من مرحلتين متباينتين وفى الظاهر متناقضتين فاما فى المرحلة الاولى فانـه كان يجتهـد فى نشر وحى دينى بوسائل الدعوة السلمية، وفى المرحلة الثانية حاول بناء سلطة سياسية عسكرية واستعمالها بكيفية يكون فيها بالنسبة لغيرها القضاء المبرم على كل ديانة عمدت الى استعمالها، وقد استعمل محمد (صلى الله عليه وسلم) اذاك سلطته السياسية الجديدة لنصرة ما وضعه من سنة محافظا علـى الطقوس الخارجيـة للديانة التى اسسها فـى المرحلـة السابقة قبل هجرته الشهيرة من مكة الى المدينة .

واذن فيمكننا ان نستنتج من هذا ان الهجرة كان ينبغى ان تعتبر العلامة على تاريخ انهيار الاسلام لا تـاريخ تأسيسه كما هى معتبرة من ذلك الوقـت فكيف يمكن ان يشرح هـذا الوضع وهو ان ديانـة انتشرت فى الدنيا على اساس كونهـا ايمان شعب حربى متهمج نجحت فى ان تصير ديانة عامة مع انها بدأت حياتها بعائق روحى كان من شأنه على ما يظهر ان يقضى عليها ؟

وحيث اننا وضعنا المسألة على هذه الصورة نجد لها عدة شروح جزئية ان هى اجتمعت كونت حلا لهذا المشكل، اولا ينبغى لنا ان نحترز من الوقـوع فيما هو منتشر عند المسيحيين من الميل الى اعطاء قيمة كبيرة للاعتماد على القوة فى نشر الاسلام، فان ما كان يفرضـه خلفاء النبى (صلى الله عليه وسلم) من المظاهر الخارجية للانتماء الى الديانة الجديدة كان محدودا فى تأدية عدد قليل من الشعائر لا تتطلب كبير عناء ، على ان هذه الشعائر لم تكن مفروضة الا على الجماعات الوثنية البدائية التى كانت تقطن فى مجاهل البلاد العربية التى نشأ فيها الاسلام، واما فى الاقطار التى فتحت وكانت فى حكم الرومان والساسانيين، فان ما كان يفرض على اهلها لم يكـن «الاسـلام او الموت» ، وانما «الاسلام او الجزية» وهى سياسة لم تزل تمتدح لما تتسم به من دهاء منذ ان تبعتها بعـد ذلك مدة طويلة بانجلترا الياصابات تلك الملكة القليلـة النسك والتقوى .

وهذا الاختيار لم يتسبب عنه اى تمرد من قبل رعايا الخلافة العربية الغير المسلمين ايام الامويين لانهم كلهم (باستثناء واحد من خلفاء الفرع الـذى لم يحكم سوى ثلاث سنوات) كانوا قليلى التحمس فى ما يتعلق بالدين، وفى

الواقع فان الامويين كانوا وثنيين وكانوا لا يبالون بنشر الاسلام بل لا يحبذون ذلك رغم كونهم كانوا رؤساء الوسميين (1) .

وفي هذه الظروف الفذة استطاع الاسلام ان ينجر طريقه بين رعايا الخلافة من غير (2) المسلمين بفضل قيمة مزاياه الروحية وحدها، وقد كان انتشاره بطيئا ولكن ثابتا وقد صار في قلوب اولئك المسيحيين السابقين وفي قلوب اتباع ازدشير ممن اعتنقوا العقيدة الجديدة رغم عدم مبالاة ملوكهم او كراهتهم دينا مغايرا تماما لما كان عليه من قبل لما كان المحاربون العرب يحملون على اكتافهم شارته المميزة التي تدل على انهم كانوا يتمتعون بنظام سياسي ممتاز .

وان من اعتنق الاسلام من غير العرب جعلوه يتمشى مع انظارهم مترجمين اقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) التي جمعت كما اتفق وكثيرا ما تكون مصحفة الى عبارات منطقية كلها رقة وقد اقتبست من علم الكلام المسيحي ومن الفلسفة اليونانية (3) وعلى هذه الصورة الجديدة امكن للاسلام ان يصير الديانة التي وحدت العالم السوري وقد كانت وحدته من قبل مرتكزة بكيفية غير طبيعية على اسس سياسية نظرا لاتساع فتوحاته العسكرية.

ولم يمر قرن على تسنم معاوية كرسي الخلافة حتى كان الرعايا المسلمون من غير العرب قد بلغوا من القوة ما امكنهم من اسقاط الامويين واعطاء الخلافة لدولة لم تكن تقواها الا انعكاسا للمطامح الدينية التي كانت لانصارها .

وفي سنة 750 م. لما ساعد عطف المسلمين من غير العرب على العباسيين ان ينتصروا على الامويين يمكن ان يعتبر عدد افراد ذلك الحزب الديني الذي تغلب طفيفا بالنسبة لمجموع السكان العرب ولعله لم يكن اكثر اهمية من عدد المسيحيين في الامبراطورية الرومانية عندما عزل قسطنطين ماكسانس وهي نسبة قدرها الاستاذ ن. ه. باينس(N. H. Baynes) بعشرة في المائة تقريبا .

وان اعتناق جماعات كثيرة للاسلام من بين رعايا الخلافة لم يبتدئ قبل القرن التاسع المسيحي ولم ينته الا عند انحلال الامبراطورية العباسية

---

1) هذه النظرية غريبة وباطلة في اساسها وهي محاولة شرح ظواهر للسياسة الاموية لتفضيل بعض الخلفاء جمع اموال **الجزية على** اسلام التميين لا تكفي لنسبة الاموية للوثنية

2) او معتمدا على مجرد مزاياه الروحية.

3) ان كان هذا صحيحا في ما يرجع للاحاديث الموضوعة الكثيرة فانها باطل بالنسبة لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم .

فى القرن الثالث عشر، ولنقل «فى ما بيننا» (1) ان هذا الحصاد المتأخر فى حقل الدعاية الاسلامية كان نتيجة لحركة شعبيـة اختياريـة مستقلة، عن كل ضغط سياسى، وان فى مجموع الخلفاء العباسيين الذين تتابعوا على كرسى الخلافة مدة خمسة قرون لا يكاد يوجد الا قليلا، وفى فترات متباعدة خليفـة مثل طيو دور او جوستينيان استغل سلطته الرسمية باسم مصالح دينيـة مزعومة، وكل هذا يشرح لنا بكيفية مرضية كيف ان الاسلام شذ عـن تلـك القاعدة التـى يمكننـا ان نلخصها فى قولنا، ليس من المستحيل على سلطة دنيوية ان تحصل على نوع نجاح بارغام رعاياها علـى اتباع ديانة بلغت اوج نموها ولكن هذه الديانة تؤدى جزاء هذه الاعانة من بعد مما يجعل الفائدة التى تحصل عليها رعاية الدولة منعدمه الجدوى .

ثم تعرض بعد هذا لفرض جماعة او ملك لا ديانـة تامة التكون ولكـن عقيدة جديدة اخترعتها تلك الجماعة او ذلك الفرد وقال : «اننا لا نحتاج فـى مثل هـذه الصـورة ان نجمع الادلة لنبين ان مثل هذه المحاولات يمنى دائما بالفشل ولكنها نظرا لكونها من العجائب التاريخية لا باس ان نلمع الى بعضها ثم قال ولعل اعجب هذه المحاولات هو عمل الخليفة الفاطمي الحاكـم (996 ـ 1020 م). وبين تلك المخاريق المشهورة، وانتقل بعد ذلك للكـلام على محاولة وضع دين عام من قبل بطليموس سوطير احد فراعنة مصر ومحاولة فرعون آخر قبله بالف عام، وهو ابخناتون الذى اراد نشـر فكـرة توحيد الاله وتكلم كذلك على محاولة اكبر الملك الهندى الشهير فى جمع الديانـات السماويـة فى دين واحد، ثم انتقل فى فصل «حاسة الوحدة» الـى الكلام على طمـوح البشر الى الوحدة مما ادى الى تكويـن تلـك الامبراطوريـات العظيمة ومما يحدو البشر اليوم فى المعمورة كلها الى الاتحاد فى مجموعة عالمية. واطال فى دراسة هذا الطموح وبالخصوص من الحيثية الدينية وكيف ان الاتجاه نحـو جمع العبادات كلها فى معبود واحد من مظاهر هذه الطبيعة البشريـة ودرس هذا فى الديانات الهندية وفى وثنيـة اليونان القدماء ثم فى الديانة الموسوية

وانتقل (3) بعـد هذا الكـلام على ما تمـتاز بـه ايضا عصور الانحلال الاجتماعى من البحث عن علاجات من جملتها الالتجاء الى ما يمكن ان نسميه ايضا «العتيقة» archaisme وهو الرجوع الى العقائد والعوائد القديمة التى

1) اى لنعترف بهذه الحقيقة
2) اى اعتنـاق تلـك الجماعـات الكثيرة للاسـلام
3) وذلك فى الفصل السابع : «العتيقية»

تصور بعد مرور القرون عليها انها كانت سبب السعادة وان ما حل بالمجتمع من مصائب وويلات ان هو الا نتيجة للابتعاد عن تلك الاحوال ودرس هذه العتيقة في اثرها على الديانات والفلسفات والنظريات السياسية والادبية واللغوية .

ثم في فصل ثامن عنونه «المستقبلية» Futurisme انتقل لظاهره معاكسة تماما للعتيقية وهي نبذ كل ما يمت للحاضر بله للماضي بصلة واختراع اساليب جديدة غريبة في كل شيء للتخلص من مصائب الحاضر وويلاته، وهذه المستقبلية اكثر تنافيا للطبيعة البشرية من العتيقية وتكون لها مظاهر مضحكة كاتخاذ ملابس غريبة وتغيير شكل الوجه بحلق الشعر مثلا (ومثل لهذا بالزام بطرس الكبير شعبه بحلق لحاه والزام مصطفى كمال الاتراك بلبس القبعة) .

وشرح بعد عرض هاتين الظاهرتين وتبيين خواصهما انهما لا تجديان لانهما ترتكزان على حلول ارضية ولا تسعى واحدة منهما الى التسامي الى الحلول الروحية التي اساسها التجرد عن الماديات والشهوات مما يمكن الانسان والمدنيات من ان تخلق خلقا جديدا، واشار هنا الى ظاهرة رابعة وهي حلول إله في شخص (1)

وعقد الباب العشرين للكلام على علائق المجتمعات في حالة انحلالها مع الافراد مبتدئا بالتذكير باثر الاشخاص في تأسيس المدنيات ثم قال : وان الاقلية المبتكرة التي يتكون منها الاشخاص المبدعون وقت نمو المدنية يقف نشاطها وقت الانحلال وتكتفي بأن تحافظ على سيادتها، ثم «المبدع» الذي يكون كالفاتح عند نمو المدنية يعتبر كالمنقذ وقت انحلالها ويتبع احدى الطرق الاربع «العتيقية» «المستقبلية» «التجرد» «والحلول» .

ثم ذكر ان محاول انقاذ المجتمع في حالة انحلاله يظهر والسيف في يده لزوما الا انه يمكن ان يسله من غمده او ان يتركه مغمدا) ومثل من التاريخ العام لمثل هؤلاء المنقذين خاتما كلامه عليهم بقوله : «ان المنقذ صاحب السيف لا ينقذ شيئا» .

ثم تكلم على المنقذ صاحب آلة ارتياد الزمان وهو الذي يريد ان يرجع بالمجتمع المنحل الى الماضي الغابر او الذي يريد ان ينقله من حاضره الى مجاهيل المستقبل الذي يتصوره هو على صورة خاصة وبعد التمثيل لكليهما خرج، بنتيجة مثل النتيجة السابقة وهي الفشل على طول الخط .

1) وهذا غريب من فيلسوف مثل طوينبي

ثم تكلم على المنقذ الفيلسوف الذى يريد بالحكمة والتجـرد ان يجعل السعادة تسود الدنيا ومثل لذلك بماركوس اريلوس وبافلاطون وقال ان مثل هذه النظريات تؤول فى النهايـة الى محاولـة فرضهـا بالقوة وتصيـر مثل المنقـذ بالسيف .

وختم بفصل يبين فيه اعتقاده المسيحى وهو انه لا خلاص الا من قبل إله يحل في بشر وهذا وقع حسب النظر المسيحـى فـى سيدنا عيسى، وضعف هذه النتيجة واضح بين ولو كان منصفـا او قل لو لم تكـن عقيدته المسيحية غلبت علـى تفكيـره العظيم وتعمقه فى دراسات الظواهر التاريخية واسبابها لولا ذلك لكان يرى ان ما توفـق الى قول الحق فيه وهـو ان الاسلام الـذى انتشر بفضل سمو مبادئه الروحية ونجح فى نفس الوقت فى تأسيس دولة عظيمة بدون ان يقع تنافس بين الدين والدنيا، بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية هذا الدين هو الـذى يمكن ان يوجـد فيه الحل الحقيقـى للويلات التى يتخبط فيها البشر اليوم وهو يجمع بين كل محاسن الحلول الاخـرى ففيه الرجوع الى الفضائل الابدية وفيه المبدأ الذى يقول اعمل لدنياك كأنـك تعيش ابدا (المستقبلية) . واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا (التجرد) وكـل هذا لا يلجئنا الى اعتقاد خرافى يجل فكر سليم عن اعتقاده وهو حلول الاله تعالى عن ذلك علوا كبيرا فى بشر .

وعقد بعد هذا فصلين لم تكن تدعو اليهما ضرورة بعد تلك الخاتمـه وهما كالذيلين احدهما فى انتظام سير للانحلال فى المجتمعات المشرفة على الانهيار من محاولة نهوض فسقوط يتبعه شبه انبعاث فانكسار وهكذا الـى الفناء النهائى، واتى على هذا مرة اخرى بامثلة مـن التاريخ العام، والآخر وهو الفصل الثانى والعشرون والاخير فى انه كما ان النمو يمتاز بالتنـوع فان الانحلال يمتاز باتخاذ شكل واحد من الجمود فى كل المناحى وان هـذا يظهر ان هذه المباحث لم تنته بعد وانما وصل فيها الى اول حدود ميدانهـا الاخـيـر .

وتتميـما للفائدة ننشر بعد هذا التلخيص فهرس الكتاب لان عناوينه تعطى نظرة اجمالية على ترتيب الفكرة الجديدة التى ابتكرها هذا الفيلسوف فى شرح التطور التاريخى للعالم وتظهر كيفية تسلسل افكاره، وهو يشيد هذا البناء الضخم الذى سيخلد لا شك ذكـره كما خلدت المقدمة اسم ابـن خلدون الواضع الاول لهذا العلم .

فهرس التاريخ ومحاولة شرحه
او اصل المدنيات البشرية
وفلسفة التاريخ

3) نمو المدنيات

4) انحطاط المدنيات

5) انحلال المدنيات

محمد عبد الله عنان

جغرافية الانـدلس والمصطلحات الجغرافيـة الأندلسيـة (1)

كان للعرب مصطلحاتهـم الجغرافيـة الخاصـة فى سائر البلاد التى فتحوها، وذلك عن طريق الاشتقـاق والتعريـب والتنسيق، فسموا الاقطار والمدن والاماكن والانهـار والجبال وغيرهـا باسمائهـا العربية، وتركت لنا الجغرافية العربية فى ذلك تراثا عظيما لا يقل فى ضبطه ودقته عن تراث ايه لغة او حضارة اخرى .

وقد حظيت جغرافية الاندلس من هذا التراث بأوفـر قسط من الدقة وحسن التعريب، فجاءت فى مجموعها صورة صادقة لجغرافية شبه الجزيرة الاسبانية، لم ينسخها ما توالى عليها من التغييرات التاريخية والسياسية ، بل لبثـت بالعكس الى يومنـا اساسا للاشتقـاق والمصطلحـات الجغرافية الحديثـة .

واول ما يجب التنويه به فى هـذا الصـدد هو ان الجغرافية العربية تطلق كلمة الاندلس علـى شبـه الجزيـرة الاسبانية كلهـا، وقد كان الفتح الاسلامى يشمل فى بدايته سائر أرجاء شبه الجزيرة ما عدا ركنها الشمالى الغربى الذى اعتصم به القوط، ثم اطلقت الكلمـة بعد ذلـك علـى اسبانيا المسلمة، او الجزء الذى تحتله الدولة الاسلامية من شبه الجزيرة، وهى المنطقة التى تشمل اليوم ولاية جليقية والجزء الغربى من ولاية كنتبرية، ولم يـك ثمة يومئذ فارق بين اسبانيا والبرتغـال، ولم يكن للبرتغـال وجود او كيان مستقل، بل كانت ولاية الغرب الاندلسية وهى الذى يشملها اليوم القسم الجنوبى من البرتغال، ولاية من ولايات اسبانيا المسلمة. ولما تضاءلت رقعة الوطن الاندلسى على كر الزمن، وتوالى سقوط القواعد الاندلسية القديمة فى يد اسبانيا النصرانية، اضحت كلمة الاندلس تطلق على ولايات الاندلس الواقعة جنوبى شبه الجزيرة بين نهر الـوادى الكبيـر والبحر، وهـو نفس مدلول الكلمة فى الجغرافية الحديثة. وما زالت الاندلس Andalucia تحتل فى تقسيم اسبانيا الادارى نفس هذه المنطقة. واما اصل الكلمـة فقد ذكر لنا البكرى ان الاندلس قد اشتقت من اسماء «الانذليش» الذين سكنوها فى قديم

---

1) محاضرة القاها استاذنا الكبير الدكتور محمد عبد الله عنان بكلية الاداب، الجامعة المغربية فى اواخر شهر دجنبر سنة 1959 .

الزمان. الاندليش هم «الوندال» Vandals ويوافقه ابن خلدون على ذلك حيث يقول ان الاندلس، اشتقت من كلمة «فندلس» اى الوندال والتعليل الحديث للكلمة لا يخرج عن ذلك حيث يرجعها الى كلمة Vandalusia او بلد الوندال. كذلك يقدم لنا البكرى ايضا لكلمة «ايبريا» Iberia التى تطلق على شبه الجزيرة الاسبانية فيقول لنا ان اسمها القديم «ابارية» من وادى ابرة، ثم سميت بعد ذلك باطقة Baetica من وادى بيطى وهو نهر قرطبة، وسميت كذلك اشبالية بالاشتقاق من Hespéris او اشبرش وهو الكوكب المعروف بالاحمر، الى غير ذلك من التعليلات.

ويجب ان نذكر الى جانب ذلك ان الاندلس الكبرى كانت منذ اوائل القرن الثالث الهجرى، تضم الجزائر الشرقية، او جزائر البليار، وكانت هذه الجزائر التى فطن المسلمون الى اهميتها البحرية وافتتحوها فى سنة 848 م. ايام عبد الرحمن بن الحكم، تعتبر ولاية قائمة بنفسها، واستمرت على هذا الوضع ايام انهيار الاندلس الكبرى فى عهد الطوائف، وبسط مجاهد العامرى صاحب دانية سلطانه عليها، واتخذها قاعدة لغاراته البحرية المشهورة على كورسيكا وسردانية، واستمرت كذلك أيام ولده على اقبال الدولة، ثم استقلت بنفسها ايام المرابطين والموحدين، وان كانت تستظل فى بعض الاحيان باسم السلطة المركزية فى شبه الجزيرة، الى ان افتتحها خايمى الثانى ملك اراجون فى سنة 1229 م.

وقد حظيت الاندلس او اسبانيا المسلمة من الفاتحين المسلمين بتنظيم جغرافى شامل، وكان هذا التنظيم يقوم فى جوهره على التنظيم الرومانى القديم، ثم التنظيم القوطى الذى قام على اسسه، وهو يقوم على تقسيم شبه الجزيرة الى اربع ولايات كبيرة، تشمل الاولى اقليم الاندلس وهو الذى يمتد كما تقدم بين البحر الابيض ونهر الوادى الكبير، ومما يلى هذا النهر حتى نهر وادى يانه، واشهر مدنها، قرطبة، واشبيلية، ومالقة، واستجة وغرناطة وجيان، وتشمل الولاية الثانية جميع اسبانيا الوسطى من البحر شرقا الى حدود البرتغال، او لوزيتانيا غربا، ثم الى نهر دويرة شمالا، واشهر قواعدها طليطلة، وشقوبية وبلنسية ودانية، ومرسية ولقنت وقرطاجنة ولورقة وبسطه، وتشمل الولاية الثالثة، جليقية ولوزيتانيا والبرتغال القديمة، واشهر قواعدها ماردة وبطليوس ويابرة واشبونة وقلمرية وباجة وسانترة، وشلمنقة ولك وغيرها، وتمتد الولاية الرابعة من نهر دويرة شمالا الى جبال البرنيه على ضفتى نهر ابره، وغربا الى جليقية، واشهر قواعدها سرقسطة وطرطوشة وطركونة وبرشلونة وارقلة وبلد الوليد وبشتر ووشقة وغيرها. ولما اتسع نطاق الفتوحات الاسلامية شمالا انشئت ولاية خامسة

فيما وراء جبال البرنيــة شاملة لولاية سبتمانيــا القديمة، واشهــر مدنهــا أربونه ونيمه وقرقشونه وبزييه وأجده ومجلونه (او مقلون) ولودين.

ثم قسمت الاندلس بعد ذلك، حينما استقرت رقعتها جنوبي نهر دويرة الى ولايات او كور اقل حجما، وقد بلغت فــى بعض الاحيــان خمس عشرة كورة او اكثر .

ويجب ان ننتهز هذه المناسبة لنصحح خطأ شائعا فيما يتعلق بتسمية جبال البرنيه، فكثير من الكتــاب والمؤرخيــن المحدثيــن يسمونها بجبــال البرانس، وهي تسمية خاطئة. ذلك ان جبال البرنيه تسمى في الجغرافية الاندلسية بجبال البــرت والبرتات مشتقة مــن كلمة بورتا Porta اللاتنية او Puerta الاسبانيــة، وقــد سميــت كذلــك نسبة الى الابواب او الممــرات الرومانية القديمة التي تخترقها والتى كانت منــذ العصــر القديــم ممــرات للغزاة، سواء من الشمال الى الجنوب او من الجنوب الــى الشمال.

ويقــدم لنا الشريف الادريسي عمدة الجغرافية الاندلسية وصفا دقيقا لجبال البرتات هذه فيقول: «وطول هــذه الجبال من الشمال الــى الجــنوب مع سير تقويس سبعة ايام، وهو جبل عال جدا صعب الصعود، وفيه اربعة أبواب فيها مضايق يدخلها الفارس بعد الفارس، وهذه الابــواب عراض لهــا مسافات وهي متفرقة الطرق. واحد هــذه الابواب البــاب الذى فى ناحيــة برشلونة ويسمى «برت جاقة»، والباب الثانى الذى يليه يسمى «برت اشبره» والباب الثالث منها يسمى «برت شيزروا»

وطوله فى عرض الجبل خمسة وثلاثــون ميلا. والبــاب الرابــع منها يسمى «برت بيونه»، ويتصل بكل برت منها فــى الجهتين مــدن، فمما يلى برت سيزروا مدينة بنبلونة، والباب المسمى جاقة عند مدينة جاقة

وباب شيزروا هذا الذى يذكــره الادريسي غير مرة، هو اشهر هــذه الابواب، وقد سماه الادريسي كذلك تقريبا لاسمه الرومانــى القديــم Portus Ciserae وهو المعــروف ايضــا بالاسبانية Roncevalles وقد اشتهر فى التاريخ الاندلسي بنوع خاص، اذ قد وقعــت في الــوادى المطل عليه، والذى يحمل نفس الاسم، على مقربة من مدينة بنبلونة عاصمة نبارا، موقعة باب شيزروا الشهيرة التى هزم فيها شارلمان عاهل الفرنج على يد القوات العربية، وذلك فى شهر ذى القعدة ســنــة ١٦١ هـ. الموافــق لشهــر اغسطس سنة ٧٧٨ م. ايام عبد الرحمان الداخل. وكــان شارلمــان قد حــاول ان يغزو الاندلس ، ووصل فى زحفــه الــى مدينــة سرقسطة، ولكنه ارتد حينما امتنعت عليه،

فهاجمت القوات العربية مؤخرة جيشه، ومزقتها بشدة ونظمت فيما بعد عن تلك الموقعة انشودة رولان الشهيرة Chanson de Roland

والجغرافية الحديثة لا تختلف كثيرا عما تقدم، وفيها ان ابواب البرنيه خمسة وهى :

١ – ممر برنيان بين برشلونة واربونة .

٢ – ممر پيكارديا الموصل الى شرطانية .

٣ – الممر الموصل بين بنبلونة وسان جان دى بييدتور (وهى التى يسميها الادريسى سنت جوان) وهو باب شيزروا.

٤ – ممر طولوشة (او تولوز) الى بيونه.

٥ – ممر جاكا او جاقه

واذاً فجبال البرنية هى فى الجغرافية الاندلسية جبال البرت او البرتات . على ان الجغرافية الاندلسية، وكذلك التاريخ الاندلسى يحدثنا ايضا عن جبال «البرانس» ولكن هذه التسمية تطلق على سلسلة اخرى من الجبال تقع فى منطقة اخرى من شبه الجزيرة الاسبانية، ولا تمت الى جبال البرنيه باية صلة. وتقع «جبال البرانس» جنوبى نهر وادى يانه، وشرقى مدينة ماردة، جنوبى جبال طليطلة وهى سلسلة الجبال التى تعرف فى الجغرافية الحديثة بجبال المعدن Sierra de Almaden ولوقوعها على مقربة من مدينة المعدن Almaden . واما تسميتها فى الجغرافية الاندلسية بجبال البرانس، فليس تحريفا لاية تسمية افرنجية، وانما هى نسبة فقط لقبيلة البرانس البربرية، التى كانت هذه المنطقة منزل كثير من بطونها. ويحدثنا ابن خلدون عن قبيلة البرانس هذه ويقول لنا انهم سموا كذلك لانتمائهم الى «اوريغ بن برنس» وقد ظهروا فى بداية امرهم فى نواحى برقة وطرابلس ثم نزحوا الى المغرب الاوسط فى اوائل القرن الثانى من الهجرة. وقد اشترك كثير من زعماء البرانس مع طارق بن زياد فى الفتح، وكان منهم بنو ذو النون امراء طليطلة ايام الطوئف، وهم ينتمون الى هوارة احدى بطون البرانس. وكان منهم ايضا بنو رزين اصحاب السهلة وامراء سنتمرية الشرق . واشترك البرانس ايضا فى غزو صقلية ايام الاغالبة فى اوائل القرن التاسع الميلادى، وتشغل اخبارهم حيزا كبيرا فى تاريخ المغرب .

وكانت الاندلس فى بداية امرها، وحينما كانت تمتد رقعتها حتى جنوبى فرنسا، تمتاز باحتوائها على مناطق الثغور، والثغر فى الجغرافية العربية وفقا لياقوت هو كل موضع قريب من ارض العدو، كأنه مأخوذ من

الثغرة، وهى الفرجة فى الحائط. وكان رباط الثغر ايام افتتاح الاندلس يشمل اربونه وما حولها، باعتبارها اقصى ولاية فى اسبانيا المسلمة تجاور اراضى الفرنج، فلما سقطت اربونه وباقى مدن سبتمانيا فى ايدى الفرنج ارتد ثغر الاندلس الى ما وراء جبال البرنيه، واصبح هذا الثغر يطلق على سرقسطة، وما جاورها حتى برشلونة شرقا، وهذا فى الجغرافية الاندلسية هو «الثغر الاعلى» وقد كاد يشمل عدا سرقسطة، لاردة، وتطيلة، ووشقة، وطرطوشة، وطركونة، وغيرها، وهو ما يقابل فى الجغرافية الحديثة ولاية اراجون الاسبانية. واما «الثغر الادنى» فكان يشمل طليطلة واعمالها وذلك لمجاورتها لمملكة ليون وجليقية النصرانية

هذا وقد كان للاندلس عدة عواصم متعاقبة وفقا لمختلف العصور والدول. ولما افتتح العرب الاندلس كانت طليطلة عاصمة مملكة القوط ولكن العرب لم يتخذوها عند الفتح عاصمة للقطر الجديد وذلك بالرغم مما كانت عليه من الضخامة والحضارة، ولما ولى عبد العزيز بن موسى حكم الاندلس عقب انصراف ابيه موسى بن نصير الى المشرق اتخذ مدينة اشبيلية عاصمة للاندلس وقتل بها سنة 97 هـ. ولما ولى مكانه ايوب بن حبيب اللخمى نقل مركز الحكم من اشبيلية الى قرطبة وذلك باتفاق الجماعة وروعى فى هذا النقل موقع قرطبة المتوسط واستمرت قرطبة من بعد ذلك مركز الولاة حتى جاء عبد الرحمن الداخل واستولى على الاندلس فلم يحدث تغييرا فى وضع العاصمة الاندلسية، بل بالعكس فأثبت فى عهده رياسة قرطبة وبنى بها القصر والجامع وغدت حاضرة الدولة الاموية الجديدة .

وهكذا غدت قرطبة منذ عصر الولاة عاصمة للاندلس وتوطدت صفتها على كر الزمن حتى جاء عبد الرحمن الناصر فأعلن اتشاحه بثوب الخلافة وغدت قرطبة دار الخلافة الاموية ولم تفقد هذه الصفة الجليلة بقيام مدينة الزهراء الملوكية على مقربة منها وان كانت الزهراء قد اضحت منذ أواخر عهد الناصر مقر الحكم ومركز البلاط والحاشية. ثم جاء المنصور بن ابى عامر واستولى على مقاليد السلطان وانشأ لنفسه مدينة الزاهرة فى سنة 368 هجرية على مقربة من جنوبى قرطبة ونقل اليها دواوين الحكم وغدت منذ اواخر عهده مركز الحكم والادارة، لكن الخليفة الاموى لبث على عهده من الاقامة فى الزهراء واحيانا فى قرطبة. ولما سقطت الدولة العامرية فى سنة 399 هـ. استمرت قرطبة عصرا آخر عاصمة للخلافة الاموية احيانا والحمودية احيانا اخرى. واقترنت هذه الفترة العصيبة بانهيار الخلافة وانهيار الحكومة المركزية وفقدت قرطبة صفتها التالدة كعاصمة للاندلس ورأس الدولة العظيمة الموحدة وانتثرت الاندلس الكبرى وحدات صغيرة متنافسة وقامت

دول الطوائف في المدن والثغور المختلفة وغدت كل منهـا عاصمة مستقلة بذاتها ولم تكن قرطبة عندئذ سوى عاصمة لاحدى هـذه الدويلات الصغيرة ثم فقدت هذه الصفة غير بعيد .

ولما غلب المرابطون على الاندلس عادت قرطبة قاعدة الحكم والادارة وان كانت هذه الصفة لم تكن يومئذ من الوضوح والتألق كما كانت من قبل واتخذ المرابطون فى نفس الوقت بعض الثغور الجنوبية مثل غرناطة مراكز دفاعية وادارية واستقلت الولايات الشرقية وبقيت خارجة عن حكم المرابطين وقامت بها حكومات محلية فى بلنسية ومرسية .

وفى عصر الموحدين كانت اشبيلية قاعدة الحكم فى الاندلس وتوطدت هذه الصفة بالاخص أيام السلطان ابى يعقوب يوسف وولده السلطان يعقوب المنصور وذلك فى اواخر القرن الثانى عشر الميلادى، وفـى هذه الفترة اقيم باشبيلية القصر والجامع الاعظم الذى ما زالت منارته قائمة حتى اليوم .

وقد كانت اشبيلية فى الواقع اصلح قاعدة لحكم الموحدين فى ذلـك الوقت الذى اتجه فيه تيار الحوادث الاندلسية بالاخص نحو ولاية الغرب او بعبارة اخرى نحو البرتغال حيث لبث الموحدون خلال اواخر القرن الثانى عشر واوائل القرن الثالث عشـر فى حـروب مستمرة مع القـوة الجديـدة الناشئة فى اسبانيا النصرانية اعنى مملكـة البرتغال حيث كانـت القواعد الاسلامية تسقط الواحدة بعد الاخرى .

وكانت غرناطة آخر عاصمـة للاندلـس وهى الاندلس الصغيرة التى قامت على انقاض الاندلس الكبرى باسم مملكة غرناطة وعاشت فى ظل بنى الاحمر مائتى عام .

وكـان لشرق الاندلس فـى الوقت نفسه عاصمة خاصة هى بلنسية التى اتخذ منها آل مردنيش قاعدة لحكمهم فى تلك المنطقة وقاعـدة لخططهم الدفاعية ضد الموحدين .

وقد ابدى الجغرافيون المسلمون منتهى الدقة والبراعـة فى اقتبـاس وتعريب المصطلحات الجغرافية الاندلسيـة من اصولها الرومانية والقوطيـة وربما كانوا فى ذلك اوفر دقة منهم فى معالجة الاعلام التاريخيـة. والواقع ان الاسماء الاسبانية التى اطلقت فيما بعد على القواعد والمدن الاندلسيـة الذاهبة، لم تكن فى الغالب سوى تحريف لاسمائها العربية، فمدينة اشبيلية كانت مثلا تسمى باسمها الرومانى Hispalis او Yspalis فجاء منطوقهـا العربى مطابقا لمنطوقها اللاتينى، ثم حرفها الاسبان الى اسمها الحديث وهو Sevilla وكانـت قرطبـة تسمـى باللاتينيـة Curduba فنقـل بالعربية كما هو، وجـاء

اسمها الاسباني مطابقا لاسمها العربي، وكانت طليطلة تسمى Tolebolus فعرب الاسم تعريبا حسنا، واختصره الاسبان الى Toledo وكانت باجة تسمى باللاتينية Pexzelio فعربت الى باجة ، واضحت اليوم Beja وكانت لشبونة تسمى Olissipo فعربت الى اشبونة وهى اليوم «اشبوا» وقس على ذلك معظم المدن الاندلسية، فقد عربت اسماؤها جميعا على اصولها القديمة تعريبا حسنا، ثم حرفت الاعلام العربية، بعد ذلك الى تسمياتها الاسبانية والبرتغالية الحديثة .

وفى احيان كثيرة يغدو هذا التحريف نوعا من المطابقة، كما هو الشأن مثلا فى بلنسية التى ما زالت تنطق بالاسبانية كما هى بالعربية والقلعة التى تنطق بالاسبانية Alcalá وقلعة ايوب، وهى بالاسبانية Calatayud وقلعة رباح، وهى بالاسبانية Calatrava ، والقصر وهى بالاسبانية Alcazár والقصور وهى Cáceres الى غير ذلك.

ولم يكتف العرب فى تعريب الاعلام بالتكييف والاقتباس، بل زادوا على ذلك ان قاموا بترجمة معانيها فى احيان كثيرة، فان ولاية قشتالة القديمة مثلا كانت تسمى باللاتينية Alva y Castella Vetula وقد ترجم العرب اسمها الى «البة والقلاع» ونحن نعرف أن Casbella أو Casbiela معناها القلعة والقلاع واطلق العرب اسم شلير او جبل الثلج على جبال «سييرا نفادا» والاسم الاول تحريفا لاسمها اللاتينى Solaim ، واما الثانى فهو ترجمة مطابقة لاسمها القشتالى القديم Sierra Nevada ، وسموا سهل غرناطة بالفحص او المرج، ومقابله الاسبانى La Vega ويقال انه تحريف للاسم العربى. وقس على ذلك اسماء ومصطلحات لا حصر لها .

والخلاصة ان الاعلام الجغرافية الاندلسية تحتل بين تراث الجغرافية العربية مكانة بارزة وتمتاز فى معظمها بالضبط والدقة والمطابقة. وقد لبثت هذه الاعلام والمصطلحات حية متداولة طوال عصور الدولة الاسلامية فى الاندلس، اعنى حتى اواخر القرن التاسع الهجرى او الخامس عشر الميلادى لا يعتورها خطأ او تحريف، ولكنها من ذلك التاريخ، اخذت تفقد دقتها تدريجيا وتختفى بمضى الزمن شيئا فشيئا، وتحتل محلها الاعلام الاسبانية المحرفة عنها، وقد تسرب هذا التحريف مع الاسف الى كثير من الكتب العربية ولم ينج منه الكتاب المغاربة انفسهم، مع قربهم من الاندلس وتفوقهم

فى آدابها وتاريخها، وانتهى هذا التحريف فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الى درك مؤلم، فمثلا نرى الوزير محمد بن عبد الوهاب الغسانى، سفير مولاى اسماعيل الى ملك اسبانيا كرلوص الثانى فى سنة 1690 واحمد ابن المهدى الغزال سفير مولاى محمد بن عبد الله الى كرلوص الثالث فى سنة 1776 يذكر كل منهما فى رحلته اسماء البلاد الاندلسية محرفة تحريفا يرثى له. فمثلا يسمى الوزير الغسانى مدينة استجة، ايشكا، ومدينة شلوقة باسمها الاسبانى سان لوكار ومدينة شدونة باسمها الاسبانى صيدونه. ويسمى الغزال مدينة الجزيرة بالخزيرات، وجزيرة طريف بطريفة، ومدينة شريش بخريز، واستجة، باسينا، واوريوله باريوله، وحصن اللوز باوناليوص الى غير ذلك، مما يدل على ان المصطلحات الجغرافية الاندلسية، كانت فى هذا العهد قد نسيت تماما ونسختها اسماؤها الاسبانية نسخا .

ومن الاسف ان هذا التحريف يمتد اليوم الى دوائرنا الادبية، فنجد المؤرخين والكتاب فى الصحافة العربية على وجه العموم، يمسخون الاعلام الاندلسية فى كتاباتهم، ويوردونها محرفة عن المصطلحات الاوربية الانجليزية او الفرنسية او الاسبانية، ولو انهم كلفوا انفسهم مشقة البحث والتحقيق لألفوا أمامهم تراثا عريقا من الاعلام والمصطلحات الاندلسية الاصيلة يغنيهم عن عجمة المصطلحات الاجنبية، ويقيهم هذا المسخ والتحريف .

هذا وقد حظيت جغرافية الاندلس من الجغرافيين والمؤرخين المسلمين باوفر عناية، وتناولها معظم الجغرافيين المتقدمين مثل الاصطخرى وابن خرداذبه والمسعودى وابن حوقل وغيرهم، تناولوها فى اشارات ونبذ قصيرة عند احاديثهم عن الاقاليم السبعة. ولكن تناولها آخرون ولا سيما الجغرافيين الاندلسيين بافاضة، وكان من هؤلاء احمد بن موسى الرازى، والحجارى، وابن سعيد الاندلسى وغيرهم، ثم جاء المقرى فنقل الينا من هؤلاء وعن غيرهم اقوالا كثيرة فى وصف جزيرة الاندلس، وما اشتملت عليه من الخواص والفضائل، وفى وصف قواعدها الكبرى مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها، وبالرغم من ان المقرى ينقل دون تحقيق او تمحيص، فانه ينقل الينا فى احيان كثيرة نبذا قيمة عن اصول ضاعت واضحى له الفضل فى نقلها الينا. على ان اشهر من شرح لنا جغرافية شبه الجزيرة الاندلسية واستوعبها استيعابا حسنا، يشمل سائر خواصها، وجبالها وانهارها وبحارها ومدنها هو الشريف الادريسى السبتى المتوفى سنة 560 هـ (1166 م) فهو يخصص لنا فى مؤلفه الجغرافى الجامع «نزهة

المشتاق فى اختراق الآفاق، قسما كبيرا للتحدث عن صفة الاندلس وجغرافيتها ، وتشغل موسوعة الادريسى الجغرافية عدة مجلدات كبيرة وتحتوى على عدد كبير من الخرائط الفريدة، بيد انه لم ينشر منها بالعربية حتى اليوم سوى مختصر طبع فى روما منذ سنة 1593 ونشرت منها الاقسام الخاصة باسبانيا وافريقية وايطاليا وصقلية مع تراجم اسبانيا وفرنسية وايطالية، ويمتاز هذا القسم الخاص باسبانيا او الاندلس منها بدقته وتفاصيله الواضحة القيمة ـ التى لا تكاد تختلف فى شىء عما تقدمه الينا الجغرافية الحديثة فى ذلك الموطن. وقد سبق ان قدمنا اليكم نموذجا من ذلك فى وصف جبال البرنيه. ويضع الادريسى شبه الجزيرة الاسبانية ما عدا قسمها الشمالى فى الاقليم الرابع ويضع قسمها الشمالى مما يلى اراجون فى الاقليم الخامس ويقسمها الى قسمين تفصلها جبال الشارات Sierra Morena ويسمى القسم الشمالى لهذه الجبال بقشتالة وهو الذى يضم اليوم ولايتى قشتالة القديمة والحديثة ويسمى القسم الجنوبى اسبانيا وهو الذى يضم ولاية الاندلس وشرقى الاندلس ويسمى السهول المنبسطة داخل شبه الجزيرة باقليم الكنبانية وهو مشتق من الكلمة الاسبانية Los Campos ومعناها الحقول والسهولويسمى اقليم الهضاب بالشرف Alsarafa ويحدده لنا بأنه الممتد ما بين اشبيلية ولبلة والبحر المظلم اى المحيط الاطلنطى. وقد اضحت الكلمتان من المصطلحات الجغرافية الاندلسية. ويبدى الادريسى عناية خاصة بتسجيل سائر المسافات بين مختلف المدن مقدرة بالمراحل احيانا واحيانا اخرى بالزمن. وترجع دقة الادريسى وتمكنه فى هذا القسم الخاص بالاندلس من معجمه الجغرافى الى انه قد درس فى قرطبة وتجول فى شبه جزيرة الاندلس شرقا وشمالا وجنوبا وتنقل بين معظم مدنها ودرس انهارها وجبالها وسهولها وهضابها، وتجول كذلك فى مياه شبه الجزيرة الغربية الشمالية مما يلى خليج بسكوينة او فسكونية كما يسميه وقضى اعواما فى هذه الجولات الدراسية واستطاع بعقليته الجغرافية الممتازة ان يقدم الينا عنها ذلك الوصف البديع الممتع. وينفرد الادريسى بأن يقص علينا فى هذا القسم الخاص بجغرافية الاندلس حادثتين بارزتين لهما دلالة تاريخية خاصة، اولهما قصة احراق طارق بن زياد فاتح الاندلس للسفن التى عبر بها الى شبه الجزيرة ليدفع رجاله الى الظفر او الموت والثانى قصة الاخوة الثمانية المغرورين «وهم ثمانية اخوة او ابناء عم» من اهل مدينة الحامة البرتغالية خرجوا من ثغر اشبونة فى مركب كبير وقضوا

عدة اسابيع يتجولون فى مياه المحيط الاطلنطى او بحر الظلمات واكتشفوا الجزائر المجهولة. ولم يذكر احد سوى الادريسى لا من الجغرافيين او من المؤرخين المسلمين شيئا عن هاتين الواقعتين الفريدتين .

وقد لبث وصف الادريسى للاندلس وهو الذى اخرجه لنا اولا المستشرقان الهولنديان دوزى ودى جويه فى طبعة خاصة ثم عاد فاخرجه لنا المستشرق الاسبانى سابيدرا لبث مستقى لمعظم الدراسات الاندلسية العربية اللاحقة. وتناول ياقوت الحموى المتوفى سنة 626 هـ. فى معجمه الكبير وصف الاندلس واماكنها ومدنها وجبالها وانهارها فى مواضع متفرقة عديدة متفرقة من معجمه وتمتاز كتاباته فيها كذلك بالضبط والدقة. وممن كتبوا ايضا عن جغرافية الاندلس او وصفها عبد الواحد المراكشى تناولها فى تاريخه المسمى «بالمعجب» والشقندى الاندلسى فقد وصف لنا فى رسالته عن «فضل الاندلس» بعض القواعد الاندلسية الكبرى مثل قرطبة واشبيلية ومالقة وذلك فى عبارات شعرية رقيقة. وكتب عنها العلامة ابن خلدون فى مقدمته عند حديثه عن الاقاليم السبعة وهو يضعها فى الاقليم الخامس. وكتب عنها من العلماء المشارقة المتاخرين شهاب الدين العمرى المتوفى سنة 749 هـ. وتناولها فى موسوعته الجغرافية «مسالك الابصار» ويبدو مما كتبه العمرى انه قد زار شمال افريقية والاندلس وقد وصف لنا مملكة غرناطة واقسامها ومدنها وصفا دقيقا مسهبا ووصف لنا مدينة غرناطة بنوع خاص وصف العارف المتمكن، وذكر لنا اسماء ابوابها السبعة فى أوائل القرن الثامن الهجرى وتناولها النويرى المتوفى سنة 733 هـ. فى موسوعته «نهاية الارب» والقلقشندى المتوفى سنة 821 هـ. فى موسوعته «صبح الاعشى» . على ان اهم من كتب من المتاخرين عن جغرافية الاندلس هو ابو عبد الله بن عبد المنعم الحميرى تناولها فى مؤلفه «الروض المعطار» فى خبر الاقطار وهو الذى جمعه فى سنة 866 هـ. وخصها منه بقسم كبير يشغل مجلدا برمته يتحدث فيه عن اماكنها ومدنها وبحارها وجبالها بافاضة ودقة ويمزج الجغرافية بالتاريخ فى مواضع كثيرة منتفعا بذلك بجهود من تقدمه من المؤرخين والجغرافيين. واخيرا يجب الا ننسى ما كتبه فى ذلك كاتب الاندلس الكبير ومؤرخها لسان الدين ابن الخطيب عن وصف مملكة غرناطة وجغرافيتها فى عصره اعنى اواخر القرن الثامن الهجرى فى مؤلفه «الاحاطة فى تاريخ غرناطة» وهو فصل يتسم بالرغم من ايجازه بكثير من القوة والدقة والطرافة . وما كتبه فى بعض رسائله الاخرى فى وصف مالقة

وغيرها من الثغور. وهى اوصاف تقدم الينا ادق الصور عن مملكة غرناطة واحوالها العمرانية فى اواسط القرن الثامن الهجرى .

واما العلماء المستشرقون فانهم لم يبذلوا فى هذا الميدان واعنى جغرافية الاندلس جهودا ذات شأن ولم يأتوا بالاخص فيه بجديد وقد اعتمد معظمهم فى بحوثه على مصادر قديمة وغير محققة مثل اقوال كوندى والغزيرى التى نقلت بدورها دون تمحيص عن مصادر مخطوطة قديمة. وبذل المستشرقون الاسبان فى ذلك بعض الجهد امثال سيمونيت حيث جمع اقوال الجغرافيين الاندلسيين عن مملكة غرناطة وبلادها واماكنها وقدم الينا مقارنات عن اسمائها القديمة والحديثة وكذلك قام اگيلات وريميرو وغيرهما ببعض بحوث مقارنة فى ذلك الميدان .

هذا وانه لمما يلفت نظر المتجول اليوم فى شبه الجزيرة الاسبانية انه فيما عدا بعض المناطق الساحلية يغلب الجدب والتغير على معظم الهضاب والسهول الداخلية وحتى ضفاف الانهار العظيمة مثل الوادى الكبير ووادى يانه والتاجه وهى التى تغنى شعراء الاندلس بخصبها وروعة حدائقها ونضرتها قلما تعثر العين اليوم فيها على شىء من الخضر الممتعة. وترى وادى شنيل ومروج غرناطة وهو الذى كان ايام المسلمين يفيض بالجنات والرياض النضرة التى اطنب ابن الخطيب فى وصفها وقد غلب عليها القفر والفضاء .

وهكذا الشأن فى معظم البقاع التى وصفتها لنا الآداب الاندلسية وتغنى بها الشعر الاندلسى لا تجد الا قفارا دارسة. وليس معنى ذلك ان الطبيعة قد تغيرت ولكن معناه ان شبه الجزيرة الاسبانية قد فقدت باختفاء الامة الاندلسية الذكية العاملة كثيرا من ضروب النشاط والجد والمثابرة والبراعة الفنية والزراعية وهى التى كانت ايام المسلمين تجعل من بسائطها المقفرة حدائق وجنات زاهرة .

محمد بن تاويت

وثائق سعدية لم تنشر

هذه بعض الوثائق الهامة عن العهد السعدي لم يسبق لها ان تنشر ضمن الوثائق التي كانت تتصل بالعلاقات الانجليزية المغربية على ذلك العهد، وهي محفوظة بادارة الوثائق العامة بلندن : Public Record office

والواقع ان هناك وثائق اخرى ليست اقل اهمية من هذه، وهي حتى الآن لما تنشر، ومن حسن الحظ ان تنبهت سفارتنا بلندن الى هذه الاهمية فصار ملحقها الثقافي يعمل على تصويرها، وفعلا صور عددا منها لا يستهان به .

ومهما يكن فما احوج تاريخنا الى جمع هذه الوثائق الاصيلة التي ما زال كثير منها موزعا في محفوظات اروبا، وحبذا لو كان ملحقونا في سفاراتنا المتعددة بهذه البلاد يقومون بنفس النشاط العلمي الذي ظهرت بوادره في سفارتنا بلندن .

اما مسالة الاتصال بين انجلترا وبين المغرب فقد كانت اقدم بكثير من هذا التاريخ، والمصادر الانجليزية تذكر لنا بعض الامثلة من ذلك على اوائل دولة الموحدين واهمها علاقة الملك جون John بالناصر الموحدي حينما كان غرب فرنسا الى جبال البرينه من جملة الممتلكات الانجليزية وكان السلطان المغربي مسيطرا على قسم كبير من غربي الجزيرة الايبيرية.

لقد احس الملك جون بأن بارونات Barons فرنسا يفسدون عليه جهاز الحكم في هذه المقاطعة فاسبح غير قادر على تثبيت نظام الحكم الانجليزي في تلك البلاد، ولم يجد أمامه من دولة قوية يستطيع ان يستعين بها على هؤلاء الا دولة الموحدين التي كانت حتى ذلك الوقت اعظم دولة على وجه البسيطة، ولم تكن حتى آنذاك قد اصيبت بتلك الكارثة التي حلت بها في موقعة «العقاب» التي كانت في الواقع اول ضربة قاسية انصدع بها كيان الملك الموحدي .

وعلى ذلك بعث الملك جون بسفارتـه الى الناصـر وكان يرأس هذه السفارة أحد أساقفة الانجليز الممتازين، كان ذلك بالضبط سنة 1208 ميلادية

لقد ادت السفارة رسالتها للعاهل الموحدى ولكن الناصر اشترط فى انجاد هذا الملك ان يعتنق الاسلام حتى تكون نصرة المسلمين له يرضى عنها الدين، ويظهر ان هـذا الشرط كان مانعـا من تنفيذ الخطة، الا ان السفارة ـ بالرغم من ذلك ـ كانت موفقة الى حد ما، ذلك انها ما عادت الى انجلترا حتى كان الملك جون يكافىء رئيسها الاسقف فجعله رئيس دير St. Albans (1)

ولم يمض غير قليل حتى كانت موقعة «العقاب» المذكورة التى ترتـب عليها ان صار ظل الموحدين يتقلص عن الاندلس كما تبع ذلك ان صار ظـل الانجليز يتقلص عن فرنسا، وشغلت المملكتان بمشاكل داخلية وحروب فى الداخل والخارج وانقطع بذلك تيار الاتصال الذى كان بين انجلترا والمغرب ومنذ ذلك والوثائق ـ التى بأيدينا ـ لا تتحدث عـن اى اتصـال كان بيـن الامتين الى ان كانت دولة الوطاسيين فى مرحلة الاحتضار ودولة السعديين على وشك ظهور فجرها ...

ففى هذه المرحلة بالذات كان قد قيض للانجليز ملك طموح اسس لدولته اول اسطول عتيد كان يشق البحار للاتصال بالخارج ذلك هـو الملـك Henry الثامن الذى كان يخاصمه البابا والعالم الكاثوليكى من ورائه .

لقد رأى هذا الملك ـ وهو فى مأزقه ـ ان يتصـل بالعالم الاسلامـى القريب وكان هذا العالم يتمثل فى الامبراطورية العثمانية وفى مملكة المغرب الناشئـة، فكان عليه ان يستعمل سفـراءه المتبثيـن فى ايطاليا وفـرنسا واسبانيا فى مس نبض هذا العالم الاسلامى القريب، فرفعت اليه تقارير عدة نجد منها كثيرا فيما نشـر بمجموعـة De Castries واهمهـا ما كان متصلا بالصراع بين السعديين من جهة والوطاسييـن والبرتغال والعثمانيين مـن جهة اخرى، وهى تقارير مفيدة حيث تلقى على وضعية المغرب آنذاك كثيرا من الاضواء التى لا تشع من مراجعنـا العربيـة ثم هـى فى الوقـت نفسه تستشف لها زاوية خاصة كان ينظر اليها الانجليز عند ما حاولوا ان يستأنفوا علاقاتهم بالمغـرب .

وبناء على ذلك كله تقرر ارسال بعثة تجارية فى الظاهر الى المغرب، وفعلا وصلت سفن الانجليز الى الشواطىء المغربية التى كان جلها حتى ذلك الحين ما زال مضروبا عليه الحصار من قبل البرتغـال او محتـلا به بالفعل ومن تقارير تلك البعثة ما يحمل تاريخ 1540 وما يقدم الى حكومة انجلتـرا

---

(1) A Ride in Morocco; Frances Maenal

تفصيلا عاما عن حالة البلاد وخصوصا عن مقدراتها الاقتصادية، ومع الاسف ان هذه السفن وقد حملت الى المغرب بضائع من انجلترا واستبدلته بضائع اخرى مغربية عائدة الى بلادها ؛ مع الاسف ان هذه السفن تعرضت لقراصنة البرتغال ونار مدافعهم فوقعت فى الشرك وخسرت حمولتها وبعضا من رجالها، ومن ثم راى الانجليز وقد تولى على عرشهم بعض اولاد Henry الثامن من بنات وبنين لم تكن لهم القوة ولا الطموح الذي كان لسالفهم ـ ان يكفوا عن مثل هذه المجازفة خصوصا وان الاسبان وعلى رأسهم فيليب الثانى زوج ابنة هنرى الملكة Mary Tudor المتوفاة والطامع فى المملكة بوسائل عديدة ـ صاروا يقفون حجر عثرة فى طريق هذا الاتصال .

لقد كفت انجلترا عن الاتصال بالمغرب الى حين، ولكن Elizabeth ما جلست على دست الملك حتى كانت لفرط ذكائها وحصافة عقلها وطموح نفسها الوثابة الموتورة تعمل جاهدة لا تنى فى رفع مستوى بلادها ووضعها فى الوضع الذي استقرت فيه استقرارا وطيدا برغم الدسائس الداخلية والخارجية، فكان من أهم أعمالها العظام ان جددت للاسطول الانجليزى قوته واعادت اليه حيويته وصارت تتصل بذلك العالم الاسلامى اتصالا كان هدفه الاول هدفا تجاريا وارادت ان تجعل لهذا الاتصال اسسا ديبلوماسية تقوم على الاتفاقات الرسمية بين الدول وعلى غرار ذلك اتصلت بالعثمانيين كما اتصلت بالسعديين الذين بعثت اليهم بسفير مقيم فى التراب المغربى وحول هذه الاتصالات نجد اتفاقا عقد بينها وبين محمد المتوكل ونصه العربى كما يأتى (1) :

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم .

عن امر عبد الله المتوكل على الله المستعين بالله المستغنى به عمن سواه فى سره ونجواه امير المومنين المجاهد فى سبيل رب العالمين الشريف الحسنى .

أيد الله بعزيز نصره أوامره، وظفر جنوده وعساكره، وخلد مفاخره ومآثره ونظم به شمل الدين وابقى الخلافة فى عقبه الى يوم الدين .

يستقر هذا المسطور الاكرم والخطاب المحتم الصميم الموفق بعون الله وتأييده المصحوب بتوفيقه وتسديده بيد النصرانى الباشدور كبيرة اهل

---

1) كان للملكة اتصال من ذى قبل مع والد محمد المتوكل عبد الله الغالب ونجد من بين الرسائل التى كانت تروج بينهما رسالة منشورة بمجموعة De Castries الجزء الاول من المجموعة الانجليزية بعث بها عبد الله الغالب الى الملكة المذكورة يوصى فيها ببعض التجار الاسبان كانوا يعملون فى خدمته .

جنسها وعظيمة قومها المتحببة الينا والراغبة فى مواصلتنا ومعرفتنا طاغية الانجليز الراينة .

وان الذى ورد على ابوابنا العلية بالله المحفوظة بحفظ الله موجها من تلقائها يتقاضى من الصلح الذى طلب مناديه والمهادنة التى اسهر فى ابتغائها جفنه رغبة فى المواصلة وجميل المعاملة وحسن المجاملة وايثار العافية والمسالمة للمسافر والمقيم والوارد والصادر والبر والفاجر والمتسوق والتاجر.

وحيث ورد على مقامنا الكريم اسعفناه بمراده وقصده وعقدنا له هذا الصلح على حسب ما طلبه منا ورغبة من جانبنا العلى بالله واحظيناه به واجبناه اليه وعملنا له فيه غرضه بما صورته :

ان المسلمين اذا التقى قرصانهم بسفن النصارى الانجليز ولقى احدا من غير جنسهم بسنجاقهم فانه يعفيه ويترك سبيله ولا يأخذه ولا يأسره .

وان سفن المسلمين اهل طاعتنا وايالتنا المباركة ان لقيت سفنهم فتعمل لهم سنجاق المسلمين وتنزل الفلوكة ولا ينزل بها من ينزل الا عن اذن الرئيس من غير زيادة على من نزل باذن ويأتوا فى ايديهم ببراءة على تعيين من بعث من البحرية ليلا يزداد أحد عليهم وان كل تاجر سافر تحت سنجاقهم وفى مراكبهم وهو من غير جنسهم وعثر عليه المسلمون فهو آمن على رقبته وعلى ماله .

وان اجفان المسلمين القرصانية لا تتعرض على كوشطهم(1) والارض التى يعتمرونها ويتصرفون بها ان تركت عندهم وفى مراسيهم قضاء اوطارها وجميع ما تحتاج وتتوقف رغبتها عليه.

وان كل مسلم يريد التجارة الى بلادهم وفى كل موضع هو الى نظرهم لا يعطى ولا يكلف بمكلف ولا بغيره وله عليهم ان يبروا به البرور التام .

وان تجار النصارى الذين ببلاد الاسلام من طاعتنا وسائر ايالتنا المرعية بالله لا يكلفون بتكليف ولا يطالبون بوظيف الا بالعشر الواجب الذى لا بد منه ولا محيد عنه .

وكل تاجر لهم يسلك فى بلاد المسلمين وينزل بها لا يضام ولا يسام بشىء يكرهه فيدخل مومنا ويخرج مومنا، ولتجار المسلمين منهم مثل ذلك ان دخلوا ارضهم واحتلوا ببلادهم. وان دعاهم الحال الى شراء شىء من الضروريات من بلاد المسلمين فيشترونه بسعر البلاد وقيمته المعروفة من غير زياد ولا شطط وان تعدى عليهم احد من المسلمين او ظلمهم فيوخذ لهم

(1) الكلمة اسبانية COSTA بمعنى الساحل وفى هذا الاتفاق الفاظ اجنبية مثل هذه ومثل سنجاق التركية بمعنى الراية وغيرهما كما ان به اخطاء نحوية او املائية.

بالحق منه ويحكم فيه. وكل من ابتاع شيئا من المسلمين او منهم واراد اخراجه من بلادنا او من بلادهم فلا يمنع منه ولا يزال له اذا كان مما استحل بيعه منهم وكذلك الحكم بالخراج وسائر الجبايات يوخذ بها صاحبها مسلما كان او نصرانيا .

كما اذنا لهم ان يتركوا عندنا باشدور يكون هنا واسطة بيننا وبينهم فيما يعرض من الاغراض والمآرب ان احبوا ذلك وارادوه، كما اذنا لخديمنا الارضى وربى نعمتنا الاحظى الوجيه الاثير قائد الثغور وصاحب خطة الجهاد ومتولى النظر فى كوشطة البحر وما يليه من قبائل البر من العرب والبربر خديمنا الباشا احمد بن خديمنا الاثير المجاهد الصابر اخينا فى الله القائد على بن عبد الله (1) اعانه الله ان يوجه مع هذا الباشدور ان شاء من يرضاه ويثق به من اصحابه واهل بلده واعماله ويرسله باشدور الى طاغية الانجليز ماذونا له الكلام معهم فيما يقتضيه الحال والمرام. صلحا امضيناه لهذا الباشدور وانفذناه واجبنا العمل بمقتضاه ومن انحرف عنه او بدل فيه او غير فقد برئت منه الذمة ولا عقد له ولا عبرة بما امله. والواقف عليه من خدامنا وعمالنا وولاة امرنا واهل الراى (2) واهل البحر وغيرهم يعمل به ولا يحيد عن كريم مذهبه، ومن حاد عنه فلا يلوم الا نفسه ولا يضر الا راسه

وهكذا نرى انه بالرغم من قصر المدة التى كانت للسلطان المتوكل فان اتفاقا ابرم بينه وبين اليزابيث وكان له اثره الفعال. فاستمرت الحركة التجارية بينهما فى طريقها، وكان من موادها اسلحة وذخائر حربية كانت تبعث بها اليه كما نجد ذلك فى عدة وثائق انجليزية منشورة بمجموعة De castries

ولما تغلب عم المتوكل عبد الملك بعث الى اليزابث برسالة يعلمها فيها بانه استولى على عرشه وكانت بينهما مكاتبات ومراسلات نجدها فى نصوصها ومترجمة الى الاسبانية فى المجموعة المذكورة، ولكن الازمة بين هذا الملك وبين الاسبان والبرتغال كانت عويصة، لهذا نجد اليزابث حريصة على ان تبقى اتصالاتهما فى طى الكتمان خصوصا بعد ما لاحظته من امتعاض هؤلاء الاسبان والبرتغال حينما زار سفيرها البلاط السعدى وظل مع ملكه يتردد عليه مدة من الزمان يصطحبه هذا فى نزهاته وخلواته كما نجد ذلك فى مذكرته المنشورة بتلك المجموعة. على انه بالرغم من هذا التكتم والتوجس من ناحية اليزابيث فقد وجدت نفسها مضطرة الى ان تبادله بعض العتاد

1) لا نعرف شيئا عن ابن عبد الله هذا ومن الاوصاف التى وصف بها مع اغفال النسبة الى اسرة أو قبيلة ومع ما نعرفه عمن وقف به النسب من رجال الدولة عند «ابن عبد الله» مثل «جؤذر بن عبد الله» فانه يبدو ان عليا من اولئك الذين اسلموا من العلوج .

2) هكذا بالاصل ولعله «البر» بدل «الراى» .

الحربى فكانت تبعث اليه ببعض الاسلحة مقابل بعثه لها ملح البارود Saltpeter ويوخذ من احدى رسائله انه كان عازما على ارسال بعثة سفارة اليها ولكن الملكة نصحته بأن يتريث فيها .

ولما كانت موقعة وادى المخازن شارك فيها العالم المسيحى بأجمعه ولم يشارك فيها من الانجليز الا بعض الكاثوليك الذين كان رئيسهم الذى دفع بهم الى هذه الموقعة على خلاف مع الملكة، وكانت مشاركته هذه مقابل وعد قطعه له البابا فى ان يكون اميرا لجزر ايرلاندة التى كان معظمها قد دخل تحت التاج البريطانى .

وما انتهت المعركة ونصب المنصور ملكا حتى استؤنفت العلائق بين المغرب وانجلترا وتبودلت الرسائل والسفارات بين المنصور واليزابت واغلب ذلك سجلته الوثائق المنشورة بمجموعة Castreis على ان هناك بعض وثائق لم تنشر بنصها نحيها منها الوثيقتان الآتيتان :

بسم الله الرحمن الرحيم صل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

العلامة

من عبد الله المجاهد فى سبيل الله امير المومنين ابى العباس المنصور بن امير المومنين ابى عبد الله محمد الشيخ الشريف الحسنى أيد الله بعزيز نصره اوامره واسعد ايامه المباركة وخلد مفاخره وابقى بمنه مآثره للسلطانة المعظمة الجليلة الاصيلة الرفيعة المقدار السامية المنار التى لملكها الرسوخ والاشتهار والاصالة التى لها وضوح النهار ذات البلاد الواسعة والمفاخر الناصعة والهمة المترامية الى الغايات الشاسعة مام ركائب حب هذا المقام والحائزة وداده بودها الذى بعثته والزمته المقام كبيرة ملة المسيح والمستنيرة من الجلالة بالامر الفسيح السلطانة ايزبيله وصل الله لها مدد الخيرات وادام عليها بالعافية المستمرة نعم المسرات كتبناه اليك وانا نحمد الله الذى يجب فى كل الشرائع ان يحمد ونصلى على نبينا عبده محمد، من حضرتنا العلية قاعدة المغرب مراكش حرسها الله ولا جديد الا فضله ولا حول الا حوله ومثابتكم هى المثابة التى نخصها بصفو الوداد ونحفظ اغراضها على التنائى والبعاد ونتولاها بالنية وكل الاعتقاد وقد وصل كتابك مشكور الاشارة والتصريح مشتملا على الود الثابت والحب الصريح واحللنا اغراضه محلها من القبول والكرامة وتناولناها بيد تنيل كل مراد تمامه وان من ذلك قضية التاجر الذى ادعى خديمه بعد موته ماله وعلق بالاستبداد به بمعونة الانقطاع بهذه الحضرة

آماله، فها نحن مشينا الامر على ما بينت فيه اختيارك وأذنا فيها بما يناسب جنابك المعظم ومقدارك وكذا التجار الذين لهم من خطابك الجليل حظ الايصاء فلهم عندنا بمقتضاه من الحظ ما يدلل لهم من حقوقهم كل غرض تمنع واستعصا وبالجملة فأغراضك بهذه الحضرة العلية محمولة على كاهل التيسير والتسهيل مقابلة من الفرح بها بالمحيا الحسن والوجه الجميل فابواب القبول لواردها مفتوحة وقواعد الاعتناء بها مفسرة مشروحة وقد ذكرتم أطال الله في النعم بقاءكم ما عندكم من حسن القيام بما يعرض لنا من الاغراض هنالكم والاهتمام بما يتم تيسيره باعمال اشارتكم واقوالكم فقد شكرنا ذلك لاصيل سلطانكم شكرا تجاوز الغاية والتزمناه تلاوة لا يزايلها الدءوب والعناية، والله يديم رعايتكم والسلام وبه كتب في الموفي عشرين من شهر جمادى الاول عام ثمانية وثمانين بعد تسعمائة هـ .

وثانية الوثيقتين هي :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

العلامة

من عبد الله تعالى المجاهد في سبيله الامام المنصور بالله امير المومنين ابن امير المومنين ابن أمير المومنين الشريف الحسني أيد الله أوامره ونصر عساكره وخلد مآثره ومفاخره واسعد موارده ومصادره (الاصل : ومصاده) ووصل له مجد الدنيا بمجد الآخرة، الى الاصالة الجليلة المقدار السامية العلم والمنار والمكانة التي حسن منها في حياطة حوزتها الايراد والاصدار ولا يمل من انبائها المستطابة التواتر ولا التكرار اصالة السلطانة الجليلة الاصيلة المثيلة الاثيلة الشهيرة الخطيرة السلطانة ايزبيل. اما بعد حمد الله واجب الوجود ومنجز الوعود ومدبج الاغوار بصنيع قدرته ولطيف حكمته والنجود المنزه عن الكم والكيف والتحديد الكفيل لمن شكر نعمه الجسيمة وآلاءه العميمة بكمال المزيد سبحانه وتعالى ان يكون في ملكه ما لا يريد ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلي الامامي الفاطمي النبوي الاحمدي المنصوري بنصر يتكفل بظهور الاولياء وثبور الاعداء والاستيلاء على الجهات والاقطار على الولاء بيمن الله فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية الامامية مراكش حاطها الله ونصر الله تعالى خفاق اللواء قوى المدد والامداد بجنود الارض والسماء، له الحمد وله المنة، هذا وكتابكم الاثير ورد على حضرتنا العلية على يد المكرم خديمكم القبطان(1) فقوبل بالرحب والكرامة وصوله، وتليت

(1) Captain EYRE

بلسان التنويه ابوابه وفصوله ووقفنا منه على ما ذكرتم فى شان مسالة السلطن الجليل الاصيل المثيل السلطن دون انطون صاحب برتغال (1) وانكم تطلبون حيث لم يتمكن امر المال الذى كان طلب امداده به على جهة السلف ولم تظهر فائدة لجلوس ولده المستقر الآن بكريم جوارنا وفى كنف عزنا وايثارنا نبعث به اليكم لاجل انكم انتم الذين بعثوه الى جانبنا العلى ومقامنا الكريم الامامى وفهمنا (الاصل : فهما) من خطابكم ايضا انكم وجدتم فى انفسكم شيئا على عدم الجواب لكم وبطئه عنكم والى هذا الذى يتقرر لديكم وتشمدون عليه بكلتا يديكم ان مسائلكم عندنا كلها جليلها وحقيرها، واموركم باسرها كبيرها وصغيرها متلقاة عندنا بوجه الاعتناء والاحتبال ومقابلة من على مقامنا بجميل الترحيب والاقبال بحيث تثقون كل الوثوق بان هذا الجناب ما لكم فيه الا الخير والرضى والموالات بالوجه الجميل المرتضى واذا تقرر لديكم هذا فاعلموا حينئذ انه ما كان شغلنا عن هذه المسالة التى ذكرتم واليها اشرتم الا شان هذه المملكة السودانية والتارجية اللتين ازدادتا بحمد الله فى ملكنا ونظمها الفتح الالاهى والسيف الهندوانى فى سلكنا ولا يخفاكم ان زيادتهما زيادة ايضا فى قوتكم وعائدة ان شاء الله بمصلحتكم ومدد من الله معين على المسالة التى اهمتنا واهمتكم، واما الجواب الذى وجدتكم عليه واشتد التفاتكم اليه فلو ان رسولكم عاد نحوكم ولم يحمل الجواب اليكم ولا وقد به عليكم، يقال اننا اهملناه او اعرضنا عنه واغفلناه، لاكن رسولكم باق هنا ومكثه لدينا ما كان الا برسم الجواب وهو منا ابدا ببال ومن الامور التى لنا بها شديد الاحتبال ونحن لم نزل على ما عملنا معكم لاكن على ان تعينوا السلطن المذكور الاعانة التى نثق بها ونعتقد بحصافة سببها اذ لا يحسن ان نجتمع نحن وأنتم على أمر ولا ينتج ويقع تظاهرنا على مسالة ولا نستفتح من مغلقها ما ارتج وليتقرر فى علمكم اننا ان شاء الله عازمون فى هذا الربيع على اللقاء مع ولدنا الاجل الاكمل الارضى ببا الشيخ اعز الله تعالى مكانه واسعد زمانه برسم المفاوضة معه ان شاء الله على هذه المسالة وغيرها من

---

1) دون الطونيو هو الذى تولى عرش البرتغال بعد موت عمه الكردينال هنرى الذى كان قد خلف دون سيبستيان الهالك فى موقعة وادى المخازن. ولكنه لم يعلن عنه ملكا للبرتغال حتى جرد له الملك الاسبانى فليب الثانى – فى نفس السنة 1580 – جيشا انتزع منه المملكة بعد معارك هزم فيها، ففر الى فرنسا ثم الى الجلترا حيث اعترف بمطالبته للتاج واسعفه ملك فرنسا هنرى الثالث بجيش خسر به موقعتين سنتى 1582 – 1583 كما ساعدته الملكة اليزابيث الانجليزية بحملة اخرى الى البرتغال سنة 1589 فلم يحالفه التوفيق ثم اتجه الى المنصور الذى وعده المساعدة وترك عنده ابنه كريستوفر وديعة ولكن المنصور لم يتمكن من هذه المساعدة التى توسطت فيها الملكة الانجليزية وترددت بينها وبين المنصور فى هذا الصدد سفارات ورسائل لم تات بنتيجة وخلقت جوا من التوتر بين الجلترا والمغرب واخيرا طالبت الملكة بابن المطالب على العرش فبعث به المنصور ..

الامور المهمة والمصالح التى أردنا ان تعود بالخير ان شاء الله على هذه الامة وعند رجوعنا ان شاء الله من هذا الملتقى المبارك وايابنا وعودنا في كنف السلامة بحضرتنا العلية وانقلابنا تبعث تلقاءكم ان شاء الله من مقامنا العلى برسول يرد عليكم ويصل بحول الله بذلك الاوان اليكم، فان وجدكم ولم يتمكن لكم الاشتغال بهذه الاعانة فى هذه الساعة تحتاجون ان تبعثوا الينا بذلك الرسول الذى يقدم عليكم من قبلنا وتعاملوه فى حال قدومه عليكم وصدوره عنكم بجميل الصنع المظنون بكم والمالوف منكم وهذا موجبه لكم وفى اواسط ربيع الآخر عام ألف عرفنا الله خيره .

ثم تموت اليزابث ويتلوها المنصور فى نفس السنة وتتوزع المملكة بين اولاده وتقوم الفتن والحروب بينهم ومع هذا فلم تفتر العلائق بين انجلترا والمغرب وتروج بينهما مكاتبات فى أمور شتى كان من اهمها مشاكل تجارية وفى هذا الصدد نجد من الوثائق التى لما تنشر رسالة من الوليد الى شارل Charles الاول هذا نصها :

[العلامة]

صدر هذا المكتوب العلى السلطانى الوليدى المؤيدى بالتاييد الربانى الى الملك الذى له بين ملوك النصرانية والملل المسيحية المكانة العظيمة القدر والرتبة الرفيعة المنار والمنزلة التى لها فى اقطارها الخطر الخطير وفى ارضها الصيت الشهير وفى قومها المنصب العالى الكبير مكانة ملك المملكة الانجليزية واقطارها السلطان كرلس بن الملوك الذين لهم عظيم الذكر وكمال الاشتهار.

اما بعد حمد الله ولى الحمد واهله والصلاة والسلام على مولانا محمد خاتم انبيائه ورسله، والرضى عن آله الايمة الاعلام وعن اصحابه البررة الكرام ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلى الامامى النبوى العلوى الوليدى بنصر دائم الاتصال متصل الدوام، فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية حمراء مراكش المحروسة بالله المحمية، وعناية الله كفيلة بسبوغ الانعام والنصر والتاييد العام بعز الله وعنايته .

هذا وانه ورد على ابوابنا السلطانية واعتابنا العلية الامامية خديمكم زورج (1) مصحوبا بكتابكم الاثير فمثل بين ايدينا وحضر بمجلسنا الكريم وناديتا فاسلم لمقامنا العلى كتابكم ففضضنا باناامل القبول ختامه وحططنا عن محياه الوسيم لثامه ووقفنا منه على ما ذكرت من بث شكوى خدامكم من التجار الشاكين اليكم بما كان من طول مغيب التاجر بكفرت(2) عنهم بمال لهم معتبر ومطالبتهم بذلك فماطلهم فيه وتلكأ عنهم بأدائه والمطارحة منكم الى

(1) George Vernan.
(2) Pickford.

الوقوف لخديمكم ولوكيل التجار المشتكين اليكم حتى تقع المفاصلة بينهم او اشخاصه لديكم وغير ذلك من فصوله، والى هذا فالذى تتعرفه انه عند ما عرضت على اسماعنا الكريمة ما اودعتم فى كتابكم لاجل التجار المذكورين امرنا حينئذ باحضار التاجر بكفرت فأدلى بحجج تشعب عنها الخصام ولا بينة تقع بها المفاصلة فاقتضى نظرنا العلى ان وجهنا به اليكم صحبة خديمكم المذكور كما ذكرت للفصل بينه وبين المشتكين به من خدامكم هنالك لديكم حتى لا يقع غبن لاحد منهم، واما ما ذكرت من تأسيس المحبة والهدنة بين المملكتين كما كانت قبل، بين اسلافنا الكرام رضوان الله عليهم وبين سلفكم فالذى نعرفكم به ان فى هذه الايام ان شاء الله يرد عليكم رسولنا مصحوبا معه كتابنا العلى فتتلقى منه ان شاء الله تعالى ما لدينا جملة وتفصيلا ويقرره لكم تقريرا اصيلا مشافهة بحول الله وبه وجب الكتب اليكم فى منتصف شهر صفر سنة اربع واربعين والف .

البحـريـة المغربيـة والقـرصنـة (1)

كانت القرصنة من اعظم النكبـات التـي منيت بها القـرون الوسطى وفترات من العصور الحديثة، فقد كانت القرصنة حركة رابحة ينجذب لهـا المسلمون والمسيحيون على السواء وسنحاول ان نحدد في هذه العجالة مدى المسؤولية التي يتحملها الطرفان لان كثيـرا مـن المؤرخيـن نزعوا الى القاء التبعة كلها على الملاحة الافريقية الوطنية .

ولقد وصف كثير من المؤرخين البحارة المغاربة بأنهم اقبـح مـن خاض لجج البحار من الامم والشعوب حتى علق هذا الوهم بأذهان الكثير من الناس وتبلور في صورة حقيقة واقعية مع ان ذلك يتنافي مع تطور الاحـداث قبـل وبعد القرن السادس عشر الميلادي الذي يمكن ان يعتبر في نظرنا بمثابة حد فاصل في عصر العلائق الطيبة الوثيقة في افريقيا واوربا والعصور التي غمرته الآلة واستغلال الاستعمار الناشيء ، وسنرى كيف ان هذه الحقيقة تتجلى بوضوح في تـاريخ القرصنـة بالبحـر الابيـض المتوسط فقد حاول مؤرخان اثنان يجمعان بين النزاهة والضلاعة رسم لوحة جليـة المعالم عـن السمات البارزة التي طبعت نشاط القراصنـة خلال العصور الوسطى وفـي غضون فتـرة غيـر قصيـرة من العصـور الحديثة وهـاذان المؤرخان هما سيســمـونـدي Sismondi صاحـب كتـاب تاريـخ الجمهوريـات الايطالية »ولاطــري Latrie في مصنفه حول صلات المسيحيين بالعرب في الشمال الافريقـي وقـد عمد كلاهما الى دحض الافتراءات المروجة ضد العرب في شان الفظائع المرتكبة باسم القرصنة البحرية .

فهنالك ظاهرة اولى تدل وحدها على ضآلة تاثير القرصنة في العلائق المغربية المسيحية وهي ما اكده المؤرخ بالدوتشي بيركولوطي Balducci Pergolotti من ان المغرب كان في حقل التجارة العامة الدولة الثانية في الصفقات المتبادلة في اوربا والعالم العربي فما كانت هذه العلائق لتستقر وتنتظم لولا ضمان

---

1) بحث نشر بالفرنسية في كتاب «التيارات الكبرى للحضارة المغربية» لصاحب المقال

حظ ولو قليل من السلامة والطمانينة فاستيناس الافارقة بالمسيحيين لم ينصرم رغم تهجمات رعايا بعض الدول الحليفة للمغرب كالجنويين الذين وجهوا حملة جزئية ضد طرابلس الغرب التي ظلت منضوية مدة طويلة تحت لواء ملوك مراكش وفاس ذلك ان الاميرال الجنوي فيليب دوريا Philipp Doria الذي حزمه الاركونيون في سردينيا عمد الى الانتقام لهزيمته الشنعاء من مدينة مغربية وقداكد المؤرخ ماتيو فيلانيMathieu Villaniانه لم يكن هنالك اي مبرر لنشوب حرب بين الجمهورية الجنوية وطرابلس سوى ان هذه المدينة كانت غنية سهلة المأخذ فكان ذلك ابلغ مسوغ لهذا الاعتداء ففي بحبوحة الحركة التجارية الكبرى التي كانت تذكي هذا الميناء الافريقي تمكنت سبع قوارب جنوية من الرسو عام 1355 بالقرب من المراكب الاسلامية دون اثارة ادنى شبهة وفي غياهيب الدجى تظاهر الاميرال بالابتعاد عن الشواطى ولكنه ما لبث ان فاجأ المرسى بكرة فاقتحم اسوارها وفتك بالمقاومين من رجالها، واستولى عنوة على جميع مرافق المدينة وابرق الى جمهورية جنوة بانتصاره البارد واصدر اوامره باكتساح القصور والدور التجارية والمنازل الثرية وابتزاز ما فيها من ثروات فارتفعت قيمة اسلابه الى نحو المليونين من الفلوريين (1) علاوة على سبعة آلاف اسير من رجال ونساء واطفال، غير ان خوف الجنويين من ثأر الاقطار الاسلامية حدا الجمهورية الى الحكم على الاميرال وجيشه بنوع من الابعاد، ولكن الاميرال عفي عنه بعد ذلك بثلاث سنوات ومع ذلك ظل عدد ضخم من الاسارى الطرابلسيين في شوارع جنوة ينتظرون الحرية وقد ساق لاطري هذه القصة ولاحظ انه لو اقترف العرب ذلك ضد بلدة مسيحية لاثار صرخات مؤرخي الغرب وتنديداتهم بوحشية العرب .

وقد اسفر هذا العدوان الجنوي عن بعض الحنق، لان افريقيا المسلمة التي كانت تربطها معاهدات بالجمهورية الايطالية آلمها هذا الجرح الوقح في كرامة رعاياها وعمدت الى جمع الاكتتابات لفكاك الاسرى، وقد اسهم السلطان ابو عنان المريني في افتداء طرابلس وتحرير عدد كبير من الافارقة، ويجب الاعتراف بأن الجنويين لم يكن من عادتهم ارتكاب مثل هذه الفظائع فرعايا جنوة الذين كانوا يعيشون في سبتة شاركوا في الذب عن حوزة هذه المدينة المغربية ضد الصليبيين الذين اغاروا عليهم عام 1235 ميلادية وبالرغم من هذه الاعتداءات النادرة التي اتسمت في الغالب بطابع خاص كانت روح التوادد الطيب تذكي العلائق بين الحكومات المسيحية والاسلامية التي

---

1) كان هذا النقد مستعملا في القرن الثامن الهجري في بعض البلاد العربية كالشام وكان معروفا بالفلور (الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ص 255) .

حظرت القرصنة على رعاياها وسمحت بتعويض الاجانب المتضررين من ذلك حيث توجد معاهدتان امضاهما المغرب مع كل من بيزة وجزيرة ميورقة بل ان هذه الحكومات كثيرا ما كانت تحشر سفنها للاقتصاص المشترك من القراصنة وقد نصت معاهدة سيبو في فصلها التاسع عشر على انه اذا ارسل الموحدون مراكبهم لمطاردة قرصان جنويين فان جمهورية جنوة يكون من واجبها تسليح سفن للمشاركة في هذه المطاردة ومن اجل الحيلولة دون استفادة القراصنة من اسلابهم حظرت الحكومات المذكورة بكيفية باتة بيع الغنائم والاسرى والتزمت بالمساعدة على افتكاك الاسارى العاجل بل وتحريرهم بدون عوض على ان هذه الحكومات قررت فيما بينها اعدام وتتريك المسيحيين او المسلمين الذين يقرصنون ضد رعايا الدول المتحالفة.. غير ان الارقاء من المسلمين ظلوا موفوري العدد في اوربا حسب شهادة لاطري، بل كان المسيحيون الراسفون في الاغلال بافريقيا اكثر منهم عددا يعيشون بالقرب من مواطنهم الذين يتجرون في امن وطمانينة في المدن الاسلامية .

وهؤلاء الاسرى لم يكونوا كلهم ضحايا للقرصنة بل كان منهم اسارى حرب ويجب ان تميز من الاحداث الحربية الناشئة بين دول متحاربة، اعمال التخريب القرصنية التي تجرف بكل التجار في كل الامصار من اصدقاء وخصوم ومن مواطنين واجانب وتوجد معاهدة امضيت عام 1323 بين اراكون وتونس تعتبر القرصنة نفسها كوسيلة حربية عادية مشروعة سواء عند المسلمين ام عند المسيحيين على ان القانون الدولي لم يتمكن رغم تقدمه من استئصال ما تنطوي عليه المعارك البحرية من مظاهر الوحشية والحروب ضد الملكية .

وقد تساءل المؤرخ المسيحي لاطري عن مدى التبعة التي يتحملها كل من المسيحيين والمسلمين في اعمال القرصنة خلال الفترة التي عقبت غزوات العرب والتي يمكن ان توسم بأنها عهد سلام وتجارة آمنة فلاحظ ان احصاء الجرائم التي كان البحر الابيض المتوسط مسرحا لها بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين من شأنه - لو تم - ان يحمل المسيحيين قسطا كبيرا جدا من مجموع عمليات النهب والتخريب البحرية التي ينسب المؤرخون ويلاتها الى الافارقة فاذا بين التاريخ ان المسيحيين كانوا اكثر من غيرهم تضررا من القرصنة الاسلامية فما ذاك الا لكون تجارتهم كانت اوسع وشواطئهم اشد عرضة للاكتساح ولان تاريخهم العام اوضح واجلى عند مؤرخي الغرب من التاريخ العربي فقد شهد المؤرخون المسيحيون بالمصائب الكبرى التي ارتكبها قراصنتهم .

وقد اكد لاطري من جهة اخرى ان الاعتداءات والفظائع المنسوبة للمسيحيين في علائقهم مع العرب كانت ابلغ مما اقترفه العرب وضرب لذلك امثلة تصور مدى تبعة المسيحيين في قرصنة البحر المتوسط خلال العصور الوسطى ذلك ان جزر المتوسط مثل سردينية وكورسيكا وصقلية والباليار ما كاد العرب يزحزحون عنها حتى امست ملجأ لقراصنة اوربيين لا يقلون خطرا عن قطاع الطرق الكبرى وقد كانت ارباض مدينة كاكليارى «اوكارا للصوص» واضحت مالطة في القرن الثالث عشر الميلادى مركزا لغزوات شنها رجل من جنوة مشهور في تاريخ الملاحة، ولم يكن هذا الرجل سوى لص من اللصوص الحقيقيين حسب شهادة عدة مؤرخين ايطاليين وقد عاش في نفس العصر احد القراصنة وهو هوك فير الذى اصله من مرسيلية والذى الف مع اميرال صقلي شركة اثيمة اثرت على حساب تجارة البحر المتوسط بحيث اصبح بيع الرقيق من المسلمين في المدن الاوربية ظاهرة مالوفة ازدادت استفحالا مع الايام ويكفى ان نعيد الى الاذهان قصة آلاف الفلاحين والملاكين العرب الذين اختطفوا من قابس عام 1284 م. وجربة عام 1310 م. وطرابلس الغرب سنة 1355 م. وبيعوا بعد ذلك كالبهائم الخسيسة في البلاد الاوربية .

ومعلوم ان الاسطول الموحدى كان يسيطر على البحار لانه كان اول اسطول في البحر الابيض المتوسط حسب رواية الاستاذ اندرى جوليان عميد كلية الآداب بالرباط ... وقد لاحظ ابن ابى زرع (1) احداث عبد المومن لاسطول عام 557 في جميع سواحل المغرب فانشأ (400) قطعة منها في حلق المعمورة (المهدية) ومرساها (120)، وفي طنجة وسبتة وباديس ومراسي الريف (100) قطعة، ومنها في بلاد افريقية ووهران ومرسى هنين 100 قطعة ومنها ببلاد الاندلس 80 قطعة (2) وبلغ الجيش الموحدى اذ ذاك ازيد من 380.000 فارس و 100.000 راجل، وفي هذا العصر كان خطر

---

1) الانيس المطرب بروض القرطاس ج. 2 ص (160 - 167)

2) وفي عهد ابى الحسن المريني كانت المناورات ممتدة بين اسفي ومدينة الجزائر (المسند لابن مرزوق تعريب ليفي بروفنسال مجلة هسبريس عن ثلاثة الاشهر الاولى لعام 1925 ص 61) وقد لاحظ روبير مونطاى في كتابه «البرابرة والمخزن» ص 22 ، ان البحارة العرب جالوا الى القرن الثالث عشر الميلادى في شواطئ المحيط الاطلسي من طنجة الى السينغال واكد جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب الطبعة الفرنسية ص 284، ان العرب ظلوا مدة طويلة قادة البحر الابيض المتوسط واوضح (كودار) في كتابه وصف تاريخ المغرب جزء 2 ص 156 ان اسطول مولاى سليمان كان يتوفر عام 1793 على نحو 47 سفينة منها عشر بوارج يقود مجموعها ستة آلاف بحار من خيرة الملاحين وفي عهد سيدى محمد بن عبد الله كان عدد البوارج ثلاثين من بينها خمسون مركبا وقادتها نحو الستين يعمل تحت امرتهم خمسة آلاف بحار والفان من الرماة، وكانت من بين البواخر الحربية المغربية عام 1901 (الحاشي) (وسيدى التركي) (والتريكي) (والبشير) .

القراصنة الاوربيين نسبيا حيث كانت للملوك الموحدين (مليشية) مختصة في قمع قرصنة المسيحيين والعرب على السواء ، ولكن الملاحة الغربية ما لبثت ان تفوقت فكان لذلك اثره السيء على التجارة البحرية حيث لاحظ لاطرى نفسه ان كثيرا من رجال الملاحة الاسبان والايطاليين لم يتورعوا عن ادراج النهب القرصني في صفقاتهم التجارية ففي عام 1200 ميلادية هاجمت سفينتان من سفن (بيزا) في تونس ثلاثة مراكب اسلامية في بحبوحة عهد السلام، واغتنمتا غرة المفاجأة فأحاطتا بالربانين وانتهك رجالهما اعراض النساء كما ابتزوا ما وقع في ايديهم من متاع وفي نفس العهد كان القراصنة الجنويون يسعون فسادا في جزر امبراطورية الاستانة وسواحلها وكانت الضربات المسيحية تترى خاصة على الاراضي والمراكب الاسلامية، غير ان البحارين المسيحيين كانوا يجرفون بكل ما يعترض طريقهم دون تقية ولا تحرج سواء كان مسيحيا او مسلما، وقد اكد لاطرى ان هذه الفظائع لم يكن لها اى مبرر وطني او حربي على ان البحارين البندقيين الذين كانوا مشهورين باستقامتهم بين ملاحي اوربا لم يحترموا دائما التجار الاجانب وكان السلاطين الاتراك يتذمرون غالبا من هؤلاء العداة الذين كانوا يلقون جزاءهم على يد البحارين اليونانيين واحيانا كان الملاحون السكندنافيون يطيفون بالسواحل الاسلامية كالتجار وفي الغالب كأعداء وقراصنة، وفي عام 1053 ملادية اكتسحت قطعة اسكندنافية المدن الاندلسية واستولت في مياه سردينية على مركب عربي ضخم عمدت الى بيع اسلابه في مهدية وطرابلس اللتين كانتا اذ ذاك تحت حكم النورمانديين وقد تحدث عن ذلك باسهاب المؤرخ ريانت Rinat في كتابه حول غزوات السكندنافيين في الاراضي المقدسة، ولكن هذا لم يمنع بحارى الشمال – ومنهم السويديون خاصة – من التجارة المباشرة مع المسلمين الافارقة فكانت العلائق التجارية بين اوربا والمغرب وادعة احيانا مما دعا المؤرخ لاطرى الى التاكيد بأن التجار البندقيين الذين كانوا انزه من غيرهم ظلوا يجولون الى القرن السادس عشر الميلادي في شواطيء افريقيا في بحبوحة الانتظام والامن، وكان لمعظم الدول التجارية مراكز وعملاء على هاته الضفاف وخاصة في طنجة، وكيف لا وقد نصت المعاهدة المشار اليها والمؤرخة بـ 1321 ميلادية على ان الفظائع المتبادلة بين القراصنة المسيحيين والمسلمين لا يمكن ان يتحمل تباعاتها البتة رجال التجارة الذين كان يتاح لهم الانتقال من بلد الى آخر في طمانينة وسلام تحت الرعاية الملكية دون ان يزروا وزر الآخرين .

تلك خلاصة قسط التبعة التى تحملها المسيحيون فى عمليات البحر الابيض المتوسط وسنحاول ان نرسم صورة اخرى عن تطور القرصنة الموسومة بالعربية او الاسلامية والتى انقلبت من صفقة هدفها الربح الى عملية اصبحت عنوانا عن رد فعل وطنى او سياسى ضد غزوات الاسبان والبرتغاليين للاراضى الافريقية وعمليات التعذيب Inquisition التى ذهبت ضحيتها مآت آلاف الاندلسيين من المسلمين واليهود

نعم ان القرصنة فى المياه المغربية لم تصدر دائما عن ملاحين من الاهالى بل كانت فى الغالب من فعل اخلاط المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام او الاندلسيين الموتورين الذين طردهم الاسبان من الفردوس المفقود فالتجأوا الى السواحل المغربية متحفزين للوثوب على العداة، وقد وجد هؤلاء الطرداء الاندلسيون من مسلمين ويهود الاقتبال الرحب من طرف ملوك المغرب الذين اذكتهم عاطفة مزدوجة من السماحة والاريحية.

وقد رأينا موقف سلاطين المغرب فى المراحل الاولى للعصور الوسطى وشنهم الحرب شعواء ضد القراصنة مهما كانت جنسيتهم وملتهم ولم يكونوا يكتفون بالقمع بل كانوا يمنحون التعويضات عن الخسارات التى عجزوا عن تلافيها كما شهد بذلك «لاطرى» وكان اساس سياسة عبد المومن الخارجية معاقبة كل من تجرأ على الملاحة المسيحية من المسلمين وحتى فى ابان الحرب كان للملاحة الوطنية وحدها الحق فى مطاردة وجزر اساطيل العدو ذلك ان الموحدين الذين كانوا يستجيبون لمقتضيات التجارة الدولية ونواميسها والذين لقنوا اوربا بعض مبادئها حسب شهادة اندرى جوليان الزموا انفسهم اذ ذاك حماية الحرية وضمانة الطمانينة والسلام فى البحار رعيا لمصالح تجارتهم الخارجية .

غير ان تفكك اوصال الامبراطورية الموحدية التى امتدت الى طرابلس والاندلس وانقسامها بين امراء مستقلين جعلت هؤلاء عاجزين عن تعقب القراصنة الذين تطاولوا فى البحار .

وقد كتب لاطرى يقول : (فى نفس الوقت الذى كان التجار المسيحيون محفوفين بالرعاية والعناية تعاملهم سلطات المغرب وسلطانه بحسن نية استداموا نهب القراصنة المسلمين فى البحار بالرغم عن المعاهدات والجهود التى ما فتىء الامراء المسلمون يبذلونها) وقد لوحظ ذلك خاصة فى القرن الرابع عشر الميلادى .

غير ان هذه العصابة الافريقية من القراصنة لم تكن كلها اسلامية الملة بل كان منها خوارج ومتشيعون يتقربون الى الله زلفى ببيع المسلمين الى النصارى، وقد اكد المؤرخ التجانى ذلك فى رحلته الى تونس عام 1306 م

وذكر صاحب كتاب (معاهدات السلام والتجارة) نقلا عن التجانى ان هذه الفرقة من الخوارج كانت تقطن جانبا من الساحل التونسى فقد تالفت فى ميناء بجاية فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى عصابة من الخائضين فى لجج البحار المنحدرين من الجبال المجاورة لبجاية وعنابة والمتمذهبين على غرار اهل جربة .

وبصدد مسؤولية الاندلسيين فى القظائع البحرية لاحظ لاطرى ان استفحال القرصنة راجع لانتصار الاسبان الذين قذفوا الى شواطىء المغرب باهالى الاندلس الموتورين الذين لم ير المغرب مندوحة من ايوائهم .

نعم لقد آوى سكان السواحل المغربية القراصنة الاندلسيين البؤساء وزاد ذلك استفحالا غارات الاسبان على المغرب والحنق الشديد الذى اذكى المعسكر المسمى آنذاك صد المسلمين مما حدا الاب دان (Pere Dan) الى القول بأنه لا ينبغى ان نستنكر ما يقوم به القراصنة المسيحيون ضد خصومهم فى الدين وبذلك يتاكد لنا ان القرصنة المسيحية اتخذت احيانا مظهر حملة صليبية ضد الاسلام، على ان المغاربة لم يتأت لهم الاسهام عمليا فى هذا العراك الزجرى لانشغالهم فى الذب عن حوزة المراكز التى اقتطعها الاسبان والبرتغاليون من التراب المغربى .

وقد كان مجموع المغرب مهددا اذ ذاك من طرف غزاة الاسبان الذين حدتهم الى اكتساح افريقيا روح صليبية باركتها رسميا البابوية اذ ذاك، ولم تكن تخلو هذه الغارات من الرغبة فى الغنيمة، لا سيما وان استقرار المسيحيين فى الشواطىء المغربية كما يقول الاستاذ تراس سلسلة من غزوات النهب قام بها البرتغاليون والفرسان الاسبان، على ان هاته الاعتداءات ضد المغرب تندرج فى اطار حملة استعمارية واسعة النطاق زجت اوربا بنفسها فيها فى القرن السادس عشر الميلادى، ذلك ان الاستعمار الاسبانى البرتغالى لم يسعه الا ان ينجذب لثروات بلاد قريبة من اوربا مثل الشمال الافريقى

ولا يمكننا ان نفصل تاريخ هاته القرصنة الموسومة بالافريقية عن حركة الغزو والتمسيح التى نسقت (كما يقول تيراس) تنسيقا بديعا تحت ظل البابوية. وقد اغار الاسبان على شرق البلاد بينما اكتسح البرتغاليون غربها محاولين اقرار حمايتهم على جميع المغرب، ولكن هاته المحاولات باءت بالفشل وارتطمت بصمود تلقائى عنيف حيث هب الشعب المغربى الذى كادت تجرف به لاول مرة فى تاريخه حملة الغزاة الاوربيين فى كتلة متراصة لصد العدوان فخف المتطوعون من جميع انحاء البلاد للتجمع من انقاذ الوطن المهدد، وقد لاحظ تيراس ان مجاهدى الجنوب الاقصى للمغرب شوهدوا وراء اسوار سبتة متحفزين للوثوب على العدو، فقد كان المغربى متسامحا لحد

الآن ازاء الاوربيين واستوثقت علائقه مع اوربا طوال خمسة قرون في جو من التحالف الوثيق الهادىء، غيـر ان هذا المساس بسيادته وكيانه وذلك الثلم الاليم لكرامته وحريته اسفرا عن تفتق عهد جديد وسمه الحذر والحيطة بطابع خاص فانقلبت الجماهير المتسامحة المسالمة الى شعب هائج مس مساسا بليغا في شعوره القومي فانتفض انتفاضة الموتور للذب عن حماه، وحداه ذلك الحذر الى الانطواء علـى نفسه لا بالنسبـة للعالم المسيحي وحده بل حتى بالنسبة للامبراطورية العثمانية التـي اكتسحـت منذ القـرن السادس عشر الميلادى الاقليمين الشرقيين للشمال الافريقي وهما الجزائر وتونس، ذلك ان التوسع التركي كـان يرمـي الـى الاستيـلاء في شمـال المغرب على بعض المراكز الاستراتيجية التي كانت تركيا ترى من الضروري مراقبتها لتعزيز كفاحهـا ضد الاسبان، غير ان المغرب الذى كان شديد التمسك باستقلاله لم يتوان في خوض كفـاح مرير مـن اجل الدفاع عن كيانه ضد كل المعتدين ولو كانوا من المسلمين، فكفاحه هذا لم يتسم اذا بسمة عنصرية ولا ملية وانما كان رد فعل قوى ضد الاجنبى بصفته معتديا، وهذه الفترة العصيبة في التاريخ المغربى قد وافقت سقوط غرناطة آخر معقل اسلامى فـى اسبانيـا والفتـك الذريع الجماعى بعشرات الآلاف من الاندلسيين فاضطر المغرب الذى انتزع منه قسط من ترابه الوطنى الى ايواء المهاجرين الاسبان الذين حملوا معهم الحقد وانطوت قلوبهم على ضغينة من العداوة ضد من طردوهم من بلادهم. نعم ان المهاجرين الاندلسيين حنقوا اشـد الحنق على اسبانيا التى فتكت فى ظرف 139 سنة بنحـو ثلاثـة ملاييـن من المسلمين واليهود حسب المؤرخ لورانت Lorente فى تاريخه النقـدى للتعذيـب باسبانيـا كمـا احرقـوا عام 1499 ازيـد من مخطوط عربى حسب رواية المؤرخ بيرسكوت Berescott فـى كتابه حول فيرنانـدو وايزابيـلا ص 451 وهكذا انقلب الاندلسيون الذين فقدوا اموالهم وعائلاتهم من جراء الضربات المتوالية التـى انزلتهـا بهـم اسبانيا الصليبية، وهبوا ليأخذوا الثار لقتلاهم فاستوطنوا بعض مدن الشمال وكونوا عصابـة من القراصنة هاجمت الاساطيل المسيحية فى قوة وعنف، فتحولت القرصنة البحرية آنذاك الى كفاح وطنى وقد ارخ المؤرخ الانجليزى لينپـول L'an Pool هذا النوع الجديد من الحرب فى الكتاب الـذى صنفـه حول قراصنة افريقيا وبذلك ارتسمت القرصنـة كمرحلـه جوهريـة فى المناورات الحربيـة فـى ذلك العصر فاقض القراصنة الاندلسيون مضاجع الغزاة الاسبان الذين كانوا قد اسقروا بقسم من الساحل الافريقى مما حدا الاستاذ تيراس الى القول بأن سيطرة العثمانيين على سواحل الجزائر وتونس كانت نتيجة رد فعل تجلى فى سلسلة من القرصنة ضد الاكتساحات الاسبانية على هاته الشواطىء كما اكد

المؤرخ اندرى جوليان ان تدخل هؤلاء القرصنة العرب هو الذى ادى الى فشل سياسة اسبانيا الافريقية كما غير مجرى تاريخ القارة الافريقيه.

ففي عام 1501 م. نقل السيد خير الدين المعروف عند الاوربيين بباربوروس وهو مسيحى الاصل من جزيرة ليسوس اليونانية ـ مركز عملياته الى البحر الابيض المتوسط بعد ما ساعد على اجازة سبعين الف اندلسى الى التراب المغربى (راجع لين بول ص 59) وبذلك اندرج في سلك عصابة خير الدين عدد من المرتزقة للقيام بالقرصنة فى مياه المحيط .

نعم كانت هناك اوكار اخرى للقراصنة في شواطىء الاطلنطيق لا سيما فى مصب ابى رقراق، تطور نشاطها مع الايام حتى اصبح رجالها معروفين بالقراصنة السلاويين وهو اسم اطلق فى الحقيقة على مجموع القراصنة المغاربة غير ان هؤلاء لهم وضع خاص يعتبر مظهرا لمشكلة استثنائية هى مشكلة الداخلين في الاسلام من المسيحيين فى افريقيا وسنرى كيف ان هذه القضية المعقدة خلقت لبسا خطيرا فى ذهن بعض المؤرخين

وعلى اى حال فان الاعمال التى كان يرتكبها هؤلاء القراصنة اصبحت مع الزمان مثار قلق بالنسبة للمغرب، ولم يكن فى وسع ملوكنا مواجهة هذه المشاكل، لان المسؤولية ترجع فى الواقع الى اوربا التى تحدت السلطات المغربية المشروعة فاعترفت لمن يسمون بالقراصنة المغاربة طوال قرنين اثنين بوجود قانون شبه رسمى (راجع كتاب دوكاسترى فى الموضوع) بل ان بعض الدول الاوربية حالفت هؤلاء القراصنة وشجعتهم ثم شملتهم بعطفها وحمايتها مثل هولندا وانجلترا، فلا يعزب عن اذهان المؤرخين ذلك العمل الغريب الذى قامت به الولايات العامة (اى هولندا) حيث اجبرت بحارة لوبيك (وهى مرسى المانى يقع على 15 كلم. من بحر البلطيق) على اعداد مركب جديد لتسليمه الى القراصنة المغاربة بل ان الاسطول الانجليزى حمى هؤلاء القراصنة عام 1681 م. بدعوى مسالمته لهم، ذلك ان وجود القراصنة بالمغرب كان يشجع دسائس ومناورات بعض الدول التى كانت تتحين الفرص للانقضاض على الشمال الافريقى، وقد استغلت بعض هذه الدول القرصنة نفسها فاعتبرت وجودها خطرا على كيانها والفت كتلة عملت على القضاء على اسطولنا الوطنى الذى كان معقلا متنقلا وحصنا مكينا للذب عن سيادة البلاد فكان ذلك من اوربا الخطوة الاولى فى سبيل القضاء على استقلال البلاد .

وقد كتب دوكاسترى بحثا قيما حول تاريخ «قراصنة سلا» فاكد ان المغرب تمكن من فرض وجوده خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الى حد ان الدول المسيحية خطبت وده وحالفته وادت له جزية، ثم علل ذلك

بأن اسطولا قرصنيا كان يثير الرعب في الاطلنطيق فوجب ان تضمن ضد السلاويين سلامة السفن التجارية عن طريق المعاهدات والجزيات .

ومعلوم ان القرصنة في حوض ابي رقراق من آثار الاوربيين انفسهم لان ذلك كان مجهولا في المغرب حتى استقر ايام المرينيين «وكر قرصني» في المعمورة (المهدية) على ساحل الاطلنطيق فعظم شأنه واستفحل امره وكان القائمون عليه اخلاطا من جميع الامصار اهم من المسيحيين اكثر من المسلمين كما يقول دوكاستري .

ولكن بعد قيام دولة الشرفاء السعديين واسترجاع المغرب لمراكزه البحرية وقع حادثان اثنان كان لهما كبير الاثر في تاريخ المغرب وهما استيلاء خير الدين ورجاله على مدينة الجزائر وتحول محور التجارة الدولية من الشرق الى الغرب على اثر الاكتشافات البحرية الكبرى، فقد اصبح مضيق جبل طارق المحجة التجارية الكبرى وكان من بين المدن الساحلية التي نجت من غارات البرتغاليين والاسبان سلا الواقعة على ساحق الاطلنطيق وتطوان على ضفاف المتوسط فأمسيتا «مهدا» للقراصنة المغاربة ثم صارت سلا خاصة المدينة القرصنية الرابعة – حسب دوكاستري – بعد طرابلس الغرب وتونس والجزائر (1)

وبالرغم عن كون سلا (1) كانت رديئة الميناء فقد اصبحت اهم مورد للغرب حيث كانت اوربا تروج مجموع منتجاتها المصدرة للغرب، فقد لاحظ قنصل فرنير 1699 ان منتجات الغرب كانت تباع بأقل من ثمنها في اوربا نفسها نظرا لوفرة الكمية المستوردة، وطوال قرن كامل انحدر الى سلا من الفردوس المفقود عدد كبير من المهاجرين على اثر سياسة القمع التي نهجتها اسبانيا اذ ذاك واستمرت هذه الهجرة المؤلمة الى عام 1610 ميلادية وهو تاريخ الطرد النهائي المقرر من طرف فيليب الثالث ولم يندمج الدخلاء الجدد مع سكان المدينة بل انافوا عليهم عددا وثراء وقد انجذب لهاته المدينة التي كانت في حصن امنع من المدن الاخرى ضد ردود فعل المسيحية عدد لا

---

1) كانت سلا ملجأ امينا، وقد تنبه الى هذا الوضع الشريف الادريسي الذي وصفها بأنها منيعة من جهة البحر لا يقدر احد من اهل المركب على الوصول اليها من جهته (وصف افريقيا الشمالية والصحراء المأخوذ من كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للشريف الادريسي طبعة الجزائر عام 1957 ص 48) .

وقد ورد في تاريخ الدولة السعدية (طبعة 1353) ان مولاي عبد المالك السعدي اول من امر بانشاء السفن في العرائش وسلا ص 53، على ان دار الصناعة كانت موجودة في سلا قبل ذلك. وقد لاحظ المؤرخ كايي ان هذا المرسى صار منذ 1614 م. الميناء الاسلامية الاقرب الى اوربا في مغرب الاطلنطيق (تاريخ الرباط الاصغر ص 92) الا ان هذا الضيق الذي كان يتسم به مدخل الوادي قد نقص على اثر زلزال وقع في لشبونة بعد وفاة المولى اسماعيل بعشرين سنة مما ساعد دخول مراكب مهمة الى المرسى، (كتاب اسماعيل الاكبر للمؤرخ ماكسانج ص 72)

يستهان به من الاندلسيين الذين كانت تذكيهم روح المغامرة البحرية فوجدوا في القرصنة ذريعة للاقتصاص من اسبانيا بوجه خاص ومن المسيحية عامة، مع تنمية ثرواتهم في آن واحد، وقد شجع السلطان عبد المالك السعدي استقرار هاته العائلات الاندلسية لا سيما وان المدينة المعمورة التي سبق لعبد المومن الموحدي ان اقام فيها 120 قطعة حربية كانت لا تزال هي واصيلا والعرائش في قبضة المسيحيين، فكانت سلا(1) بذلك هي الميناء المغربية الوحيدة بالاطلنطيق التي تتاتى لها مراقبة مضيق جبل طارق الذي لم تكن تفصله عنها سوى خمسين مرحلة وقد لاحظ الاب دان Père Dan ان هذا الوضع ساعد القراصنة على الانزواء المستمر استعدادا للتحفز ضد السفن الاجنبية وكانت معرفة الاندلسيين للجهات الاسبانية ولثنايا البلاد تمكنهم من تقمص اللبوس اللائق للتربص بالعدو والانقضاض على مراكبه، ولم يكن لهؤلاء لاندلسيين صلات طيبة بالقبائل المجاورة التي كانت تعتبرهم ضعيفي الايمان، فلم تكن بينهم والحالة هذه تآمر من اجل القرصنة المشتركة .

وقد لاحظ دكاستري انه ورد على سلا في هذا العهد اتراك ومسلمون حديثو عهد بالاسلام انحدروا من مختلف آفاق المتوسط وكانوا عبارة عن عصابات اتخذت اللصوصية مهنة لها فما لبث هذا الخليط من البشر ان انساق على غرار امثاله من سكان المدن القرصنية الاخرى واذا استثنينا العقيدة الاسلامية التي مزجت في نفوس هؤلاء فلم يكن هناك كبير فرق بينهم وبين اهالي مدن المتوسط المسيحية وبالاخص منها (جنوة) و (بيزا) و (لفورن) و (برشلونة) . وكان الاسترقاق هو هدف الجانبين الاساسي في القرصنة، فقد حط الجنويون من كرامتهم التجارية عند ما استرقوا المسيحيين والمسلمين على السواء وفتحوا باب النخاسة على مصراعيه على حد تعبير دوكاستري .

ففي بحبوحة القرن السابع عشر الميلادي كنت ترى في مدينة جنوة بحارين اثرياء يستخدمون عبيدا افارقة ولم يتورع عن ذلك حتى كبار المسيحيين الذين كانوا يضربون المثل لهديهم، فقد حكى المؤرخ هوبيط ان احد سكان تلمسان كان عبدا عند كارديتال مدينة جنوة، وقد انقلبت سلا على غرار اخواتها من مدن المتوسط القرصنية الى جمهورية وكانت ظاهرة عادية في التاريخ لان كبرياء الحواضر البحرية والتجارية كانت دائما تتوق الى الاستقلال الذاتي فقد انفصلت هذه المدن تدريجيا عن الدول التي كانت تابعة لها لاعتناق النظام الجمهوري، ففي فرنسا ايضا حصلت مدن (مرسيليا)

---

1) يرى جاك كاييي ان المقصود بسلا القرصنية هي سلا الحديثة اي الرباط ويخالفه في ذلك دوكاستري على ان الادريسي نفسه اطلق اسم سلا الحديثة على سلا الحالية (المصدر المذكور: ص 48)

و (لا روشيل) و (سانت مالو) على امتيازات وحريات كانت عبارة عن استقلال ذاتي حقيقي، فوجود وكر للقراصنة داخل التراب المغربي كان يتمشى اذن مع الناموس الطبيعي في ذلك العهد. وقد ادخل الاندلسيون الى سلا اللغة الاسبانية كما استعملوا القوانين والاعراف الاسبانية البرتغالية وقد لاحظ دوكاستري انه لا ادل على ذلك من قوائم اعضاء ديوان سلا حيث اثبتت اسماء عائلات اندلسية مثل زهراء وفنيس، غير ان هؤلاء الاندلسيين الذين ظلوا مرتبطين نظريا بسلاطين المغرب حيث كانوا يؤدون اليهم جزية خاصة طواعيه لم يكونوا يرتكبون جرائمهم الا خارج المياه الاقليمية الوطنية فظل بذلك التجار المسيحيون القاطنون بسلا المغربية محفوفين بالعناية والرعاية .

وقد استمسك ملوكنا بمبدأ حرية البحار وسلامة التجارة الدولية وجعلوا ذلك فوق الاعتبارات الدينية، بل كانوا يتحرجون عن مجابهة الاعتداءات المتكررة في هذا الميدان وكانوا يفرقون بين العمل البحرى خلال الحرب وهو عمل مشروع وبين القرصنة التى لم تكن اكثر من لصوصية بحرية .

ان الافارقة لم تكن لهم هواية في القرصنة مما جعل دكاستري يؤكد «ان قراصنة طرابلس وتونس والجزائر وسلا اذا اردنا ان نقتصر على المدن المهمة لم يكونوا ينبثقون على وجه العموم من بين ظهراني اهالي المغرب بل لم يكونوا ينبثقون حتى من بين الاتراك، لان الذين كان يطلق عليهم هذا الاسم كان معظمهم من الدخلاء او احفاد الدخلاء فى الاسلام) وقد لاحظ دوكاستري ان عدد المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام واستقروا في تركيا او في المغرب (يتجاوز كل حسبان) فمن هؤلاء خير الدين واخوه وحسن رمضان امير القراصنة البندقي، والقرصني كوبريلي Kuprili نسيب البابا التاسع Pie IX والقرصني الدركوت Dragouth الذى اسس ولاية طرابلس الغرب وقد استنكر الاب دان (Pere Dan) توارد اليونانين والروس والبرتغاليين والاسبان والفلامند والالمان وغيرهم ممن كانوا يملأون جوانب البلاد الافريقية والحقل العادى لعملة «القراصنة السلاوية» هو بحر الظلمات الذى كانوا يمخرون عبابه صعودا ونزولا حتى الجزر الخالدات الى مياه بريست بفرنسا، وكانت هذه الجزر تحتضن عام 1595 ميلادية ازيد من ثلاثمائة عائلة افريقية بحيث كان معظم سكان مدينتي فوريطا فانتورا ولانزاروطLanzarote-Fuertaventuraافارقة وكانت الاولى وحدها تشتمل على ثلاث عشرة قرية افريقية (هسبيريس مجلة 25 عام 1935)، وقلما كان السلاويون يعبرون مضيق جبل طارق للدخول للبحر المتوسط حيث كان قراصنة الجزائر يتعرضون اليهم مدعين احتكار القرصنة بهاته المياه، بل كانوا يفضلون الجولان فى لجج الاطلنطيق الى حدود المياه البريطانية بل

حتى الى جزيرة ترنوف الامريكية على ان القرصنة ضد الاساطيل الاوربية كان يستغلها احيانا ملاكون من بحاري الغرب فقد كان هنالك ضباط ضاربوا في التامينات البحرية فسلموا سفنهم الى القراصنة، المغاربة وقد ضرب دوكاستري مثلا لذلك بالبارجة (لاروبال) وهي من حمولة 60 طنا ومجهزة بستة مدافع، فقد سلمت هذه بربابينها والمسافرين المحمولين عليها مع امتعتهم الى احد قراصنة سلا يوم 16 شتنبر 1670 ميلادية، وحكى موبيط ان قبطانها الذي هو من مدينة ديبيب (وهي مدينة فرنسية على بحر المانش) كان قد ضمن لنفسه تامينات كبرى على سفينته بحيث اصبح غرمها غنما كبيرا... وقد لاحظ دوكاستري ان القراصنة كانوا يحترمون المراكب التي تحمل على ظهرها رهبانا متوجهين لافتكاك الاسرى رغم ما كانوا يحملون معهم من اموال .

وقد نظمت بعض الدول الاوربية حملات ضد قراصنة سلا ولكن مطاردتهم وحصارهم وقنبرهم للقرصان ذهبت ادراج الرياح، ذلك ان نفس هؤلاء القرصان كانوا محميين من طرف دول غربية اخرى تحالفت مع عصابات اللصوص ايغالا في الدسيسة ضد ملوك المغرب، على ان بعض الاقطار الاوربية التي لم تكن تذكيها مطامع بالمغرب كانت تسالم القراصنة محافظة على وضعها في البحار ... وكانت دول اخرى تستخلص من علائقها مع القرصان ارباحا طائلة حدتها الى عدم التحرج من مساندة هاته العصابات، وقد لوحظ انه في اواخر العهد المريني اصبحت مدينة انفا (1) غنية جدا مستقلة عن باقي البلاد في نظام جمهورية صغرى سكانها قراصنة تربطهم بانجلترا والبرتغال روابط تجارية، وقد ساعد هذا التشجيع كلا من انفا وسلا على الايغال في تمردهما ضد السلطة المركزية وعقد عدة معاهدات مباشرة مع اوربا كما وقع لعدد من الدول المسيحية التي عاقدت الجزائر دون إشراف تركيا .

فانعدام اللياقة الديبلوماسية كما يسميه دوكاستري هو الذي اطال ضد ملوك المغرب امد الحركة الثورية التي خاض غمارها هؤلاء الدخلاء من ضعفة الايمان من المسلمين تلك الحركة التي شجعتها بعض الحكومات تمهيدا لتدخلها العسكري في المغرب.

---

1) تعرض الادريسي الى هاته المدينة في النزهة في القرن السادس الهجري (المصدر المذكور ص 48) ويظهر ان هذا الاسم استحال الى اسم الدار البيضاء في عهد سيدي محمد ابن عبد الله الذي جدد معالم فضالة وهي مدينة اشار اليها الادريسي كذلك

اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار

لابى عبد الله محمد بن القاسم الانصارى

كثيرا ما كنت أقف على هذه المدينة وقفة فيها الحسرة المشوبة بالحيرة والاستغراب، الحسرة عليها لانها جزء من الوطن اغتصب منه منذ امد بعيد، واعتورته ايدى الاغتصاب التى ما زالت قابضة على مخنقه بشدة وبعنف. وفيها الحيرة والاستغراب لانى اقارن عهدها الاسلامي وما كانت عليه من ازدهار فى شتى النواحى بعهدها الطويل ـ الممتد من اوائل القرن التاسع الهجرى الى الآن ـ منذ رفعت عليها الرايات المسيحيه، فأجد البون الشاسع بين العهدين، لا، بل لا اجد هناك مقارنة بالمرة، وانما هناك مقابلة بين العدم والوجود، بين الحركة والركود، بين النشاط والجمود، بين النور والظلمة، بين المسرة والكآبة، بين الحياة فى عنفوانها والموت فى همودہ المخيف ...

أين ذلك العهد الاسلامي الذى كانت سبتة فيه عروسا ترفل فى ازهى حللها وتتبختر فى ألمع حليها، وحولها مواكب يتارج منها عبير العطر عطر الحضارة والعرفان، وتترنح فيها اغصان مكللة بثمار الفكر، وتميس من حوليها زهور المشاعر والوجدان ....

أين سبتة ـ هذه العروس ـ وقد ادرجت فى اكفانها الرهيبة الكالحة ثم أودعت ظلمة القبر، و هيل عليها التراب، وصفحت فوقها الصفائح من جلاميد الصخور، وحالت فى بيداء قاحلة لا تقع العين فيها الا على الكثبان والسراب ...

وقفت هذه الوقفات كثيرا وتساءلت وسألت ولكنى ما اهتديت ... واخيرا طرحت السؤال على رجل من مفكرى الاسبان... فأجاب فى بساطة، وكأنه يبرر الموقف بقوله «ان سبتة بعد ما تسلمتها الايدى الاسبانية من الاخرى البرتغالية، اصبحت منفى للمجرمين فلم يكن من هؤلاء الا اولاد المجرمين واحفاد المجرمين وتكون بها شعب سمته الاجرام وطابعه الجهل وعنوانه الظلام» فقلت سبحان الله، ما اتسمت مدينة من مدن المغرب بالصلاح والفضيلة بمثل ما اتسمت به سبتة فى عهدها الاسلامى، ثم صارت فى العهد المسيحى الى ما صارت اليه، فكأن الله مسخها من ملك كريم الى شيطان رجيم... سبتة هذه منها كان يرتفع لواء الاسلام فى الاندلس حينما تشرف الرايات على الانتكاس، ولكن البرتغال امتدت ايديهم الباغية الغاصبة اليها فكانت الضربة القاضية القاسية تهوى على الاندلس، وخر بذلك آخر حصن للاسلام به، وخفت ذلك الصوت الجهير خفوتا نهائيا ...

نعم، هذه الارتسامات ــ غير اللطيفة ــ هى التى كانت قد دفعت بى الى محاولة التاليف في سبتة، وتهيات للعمل، وصرت اجمع المواد لتنفيذه، وكانت النية اول الامر متجهة الى التاليف فى تاريخ سبتة على عهدها الاسلامى الى ان سقطت فى الايدى الاثيمة، وافضيت الى بعض الاصدقاء بالفكرة، وكاتبت بعضهم من العلماء مستعينا به ومسترشدا، لكن فاضلا منهم كتب الي يقول «ماذا تريد من سبتة الاسلامية ؟ ألا يكون من الاوجب عليك ان تتناول هذه المدينة بالدرس منذ ان تعست فى حظها الى الآن» ثم صار ينعى على المنصور السعدى اهماله اياها، على حين كان فى مقدوره ان يستخلصها من يد البرتغال او الاسبان (1) والواقع انى اقتنعت بالفكرة وصرت اعد العدة للابتداء من الاخير، بادئا بالاطلاع على الوثائق القريبة من الكارثة، قبل الاطلاع على الكتب وهى فى ذلك اقل من القليل، وكان فاتحة الكتب هذا المؤلف الذى ننشره ــ او نعيد نشره على صفحات هذه المجلة، فهو بحق يعتبر عتبة البحث حول سبتة بعد عهدها الاسلامى...

اما سبتة فى عهدها الاسلامى فقد عرفت تاريخها واخبارها منذ عهد سحيق اذ ألف فيها ــ كما الف فى غيرها من مدن المغرب ــ فى اوائل القرن الرابع عشر على عهد عبد الرحمن الناصر الاموى ثم تتابع الناس فى مضمار التاليف حولها، فألف القاضى عياض تاليفه «الفنون الستة فى اخبار سبتة» ثم ألف محمد بن ابى بكر الحضرمى ــ من رجال القرن الثامن ــ كتابه المسمى «الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعباد» كما عرفت بعض المؤلفات فيها بعناوينها ولم تعرف مؤلفوها، مثل «بلغة الامنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبتة فى الدولة المرينية من

1) هكذا كان هذا الفاضل يظن ــ كما يظن غيره ــ ان المنصور كان فى قدرته استخلاص هذه المدينة من يد الاسبان آنذاك، وهيهات ! فهو ظن خاطئ، لا يقوم على تقدير الاشياء حق قدرها، فالمنصور كان عاجزا كل العجز عن استخلاص هذه المدينة من براثين الراضين عليها. فالاسبان بعد ضمهم لممالك البرتغال الى مملكتهم اصبحت هذه المملكة اقوى دولة واوسعها ممالك على وجه الارض، كما صار اسطولها ــ بعد ما كسر الاسطول التركى العتيد فى موقعة LE PANTO سنة 1571 ــ صاحب السيطرة على البحار. وكان استخلاص سبتة ــ وما زال ــ يتوقف على وجود اسطول قوى فى حوزتنا، ولم يكن لنا على ذلك العهد اسطول يدانى اسطولهم او يقاربهم. والى جانب ذلك، فان المنصور كان بين نارين ، ترتعد فرائصه من الاتراك المهددين على حدوده البرية والبحرية، كما كانت ترتعد فرائصه من الاسبان الذين كانوا يتاخمونه برا وبحرا كذلك، وكانو يلوحون اليه بشبحين مخيفين من شبه الجزيرة الايبرية، هما شبح ابن اخيه عبد الله الغالب، الناصر ــ الذى سرحوه فعلا الى شواطئ مليلية ثائرا على المنصور ــ وابن المتوكل المسلوخ الذى تنصر وتسمى باسم FELIPE DE AFRICA فكانت خشيته من الاتراك تملى عليه ان يترك سبتة وغيرها من بعض المراكز بالشاطئ الشمالى بيد الاسبان ليسد المنافذ البحرية فى وجه الاتراك، وكانت خشيته من الاسبان تملى عليه ان يوادعهم فى الباطن، ولو انه فى الظاهر كان يتحرس بهم.

مدرس واستاذ وطبيب» ومثل «الكواكب الوقادة فيمن كان بسبتة من العلماء الصالحين والقادة» ولعل هذا غير المؤلف الموسوم باسم «الكواكب الوقادة فى ذكر من دفن بسبتة من العلماء والصلحاء والقادة» واخيرا يؤلف فى سبتة هذا المؤلف الذى عرف باسم «اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سنى الآثار»

هذا التاليف نشر لاول مرة بمجلة HESPÈRIS سنة احدى وثلاثين وتسعمائة والف باعتناء الفقيد ليفى بروفنسال، ثم أعيد طبعه بتطوان سنة 1940 اعتمادا على نسخة كانت فى حوزة آل بنونة بتطوان، وهى تخالف بعض الشىء النسخة السابقة. وفى عهد الطلب بالقرويين كان بعض الزملاء أطلعنى على مخطوط فى اخبار سبتة قرأته قراءة عابرة ثم أعدته لصاحبه ، ولما صح العزم ـ اخيرا ـ على ما ذكرت، صرت ابحث عن ذلك المخطوط فقيل لى انه فى ملك قائد أنجرة الاسبق الفقيه السيد مصطفى بن عجيبة وقابلت الفقيه الفاضل وطلبت منه ان يعيرنى مخطوطه، فاذا هو فى مجموع مع مخطوط لكتاب الفلاحة للعالم «التكنرى»، وقابلته بما نشره ليفى وما نشر بتطوان فاذا هو نفسه مع اختلاف بسيط، ومن مقابلة هذه النسخ الثلاث استخرجت هذه النسخة التى نعرضها على القارىء الكريم، منبهين على الفروق الموجودة بين الثلاث .

اما مؤلف الكتاب فهو محمد بن القاسم بن محمد بن محمد بن احمد بن عبد الملك الانصارى، هاجر مدينة سبتة لما غزاها البرتغال الى احدى قرى انجرة حيث استقر بها فى اوائل القرن التاسع ولا ندرى سنة وفاته بالضبط وانما نعلم انه انتهى من تاليفه هذا سنة خمس وعشرين وثمانمائة .

ويوخذ من كتابه هذا انه كان ألف كتابا آخر سماه «الاعلام» بل ربما يفهم من مخطوط ابن عجيبة انه نفس المؤلف لكتاب «الكواكب الوقادة» وانه اختصر كتابه هذا الاخير من كتابى «الكواكب والاعلام»، فنكون بذلك قد وضعنا ايدينا على مؤلف «الكواكب الوقادة» ان كان ما ألف بهذا الاسم كتابا واحدا، والا فيكون صاحبنا مؤلف احدهما ...

لم يقتصر المؤلف على وصف سبتة وذكر معلومات عنها، وانما تعدى ذلك الى ذكر قرية «بليونش» الجميلة، تلك القرية التى ما زالت خرائبها تنم عما كان لها من ماض حافل بالرفاهية والعمران ...

فالكتاب اذاً، ذو اهمية كبرى ـ على صغر حجمه ـ نظرا الى انه يسجل لنا سبتة فى مرحلتها الاخيرة الاسلامية ـ ولا جعلها الله اخيرة ـ كما انه يوافينا بمعلومات عن قريتها «بليونش» وما كانت عليه من ثروة وعمران، والى القارىء نص هذا المؤلف. [محمد بن تاويت]

قال العبد المشفق من ذنبه الراجي عفو الرحيم ربه، محمد بن القاسم بن محمد ابن (2) محمد بن احمد بن عبد الملك الانصاري المحتد السبتي الدار والنشأة والمولد، من الله عليه بالانابة ووفقه في القول والفعل الى الاصابة بمنه وكرمه

احمد الله على كل حال وأصلي على نبيه محمد (3) خاتم الارسال وعلى آله وصحبه الذين بذلوا دونه الانفس والاموال واسلم كثيرا .

وبعد فهذا جزء جامع لما كان عليه ثغر سبتة من الله على المسلمين بفتحه ـ من قبور اعلام الشرفاء وجهابذة العلماء وكبار الاولياء ونساك الصلحاء وبلغاء الخطباء ونقاد الادباء (4) وما يناسب ذلك من معالم الدين وينخرط في سلكه من ذكر المساجد الشريفة السنية والخزائن المتعددة الفنون العلمية والزوايا والمدارس والروابط والمحارس وسوى ذلك من الاماكن المنبئة بما (5) يدل على شماخة القطر وكثرة الوارد والسالك وما فيها من المضارب والمصايد الكثيرة السمك الجمة الفائد وأنبه على شرف القرية البليونشية (6) المشهورة في الآفاق بما لها من المحاسن الشاهدة بالفضل والمزية حسبما جردته من (7) تاليفي الكواكب الوقادة والاعلام ليكون سهل المنال قريب المرام (8) وقدمته هدية لمن التزم واجب شكره على جميل بره وسميته اختصار الاخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، ومن الله اسال التوفيق والارشاد وعليه تعالى اتوكل في كل مقصد (9) ومراد لا رب غيره ولا معبود سواه .

2) كذا في نسخة ليفي : ذكر محمد مرتين، اما في نسخة بنونة فقد ذكر محمدا مرة واحدة، القاسم محمد بن احمد

3) ليفي : سيدنا محمد

4) بنونة : ونبغاء الادباء

5) بنونة : المنبئة مما ..

6) ليفي : البنيونشية

7) هنا نتصل بما هو مثبت في المخطوط، اما المذكور سلفا فهو مثبت في المنشور ساقط في المخطوط الذي يبتدئ هكذا «جردني تاليفي» فاصلحنا التصحيف بما رأينا على ان كلتا النسختين المنشورتين تخالف المخطوط في ذلك، ففي ليفي : حسبما ضمنته كتابنا الاعلام الملخص من تاليف «الكواكب الوقادة الجامع لما في ثغر سبتة من تراجم السادة وقبور الائمة القادة» ونجد في «بنونة» باسقاط (الملخص) واحلال (تضمنته) فكان (ضمنته) ويلاحظ مع هذا كله ان عنوان «الكواكب» يخالف بعض الشيء عنواني «الكواكب» المذكورين في المقدمة ـ كما وردا في «دليل مؤرخ المغرب»

8) في المخطوط ذكر المرام مرتين «سهل المرام قريب المرام» فاصلحناه بما رأيناه، اما المنشور من النسختين فلا ذكر فيه لهذا الباعث بالمرة، ومن ناحية اخرى فقد سقط في المخطوط : «وقدمته هدية لمن»

9) في المنشور من النسختين : «قصده»

« عدد ما جمعه كتاب (6) الكواكب الوقادة من قبور اولئك الائمة القادة رحمة الله عليهم ورضوانه»

مما تعرفناه بمقبرات الثغر المذكور، خلا ما لم نتعرفه اثنان وثمانون قبرا وبعض المزارات تحتوى على قبور عديدة وليست بداخلة فى هذا العدد وسانبه على ذلك واذكرها (7) ان شاء الله (8) من اشهرها (9) بمقبرة التوتة من المينا شرقى المدينة قبر الولى ابى زرعة (10) مزار مشهور. حكى الشيخ (11) المحدث الراوية ابو العباس العزفى عن شيخه الشيخ الامام (12) الاشهر ابو محمد بن عبيد الله الحجرى ان ابا زرعة (10) هذا هو الذى ادخل القرآن الى المغرب، والدعاء عند قبره مستجاب، ومن اشهرها بالمقبرة الكبرى التى بسفح جبل الميناء المذكورة قبر الشيخ الاستاذ العلامة المصنف امام النحويين واسوة الفرضيين ابى الحسن بن أبى الربيع القرشى الاموى العثمانى الاشبيلى نزيل سبتة، قبر الرئيس المجاهد المحدث الاديب الماهر ابى عثمان بن الحكم القرشى، قبر الشيخ الفقيه الحاج التقى الخاشع ابى عبد الله بن معلى القيسي السبتى صاحب المناسك، قبر الشيخ الاستاذ المقرى الشريف الاشبيلى صالح المعظم ابى العباس الحسينى(13) من اهل سبتة، قبر الشيخ الولى الكبير القدر فى العلم والعمل والزهد فى الدنيا والخشية لله عز وجل ابى بكر يحيى بن محمد بن رزق من اهل سبتة، قبر الشيخ الولى الزاهد المكاشف ابى العباس الدقاق من اصهار اسلافنا(14) (وكان هذا الشيخ من الزهاد فى الدنيا واهلها ومن زهده ان العشب كان ينبت فى صحن الدار التى كان يسكن بها ومن باب الدار الى البيت الذى كان يعمره منها طريق ظاهر لاجل اختلافه عليه وليس فى البيت الا حصير ووسادة من دوم لا غير، وفقد رضى الله عنه فى عشر ذى الحجة فلم يدر اهله اين ذهب ثم اتى بعد ذلك فسئل فقال ذهبت لقضاء بعض شئونى، فلما قدم الحاج سبتة اخبروا بأن الشيخ حج معهم تلك السنة. فمن ذلك اليوم لزم منزله وانقبض عن الناس الى ان توفى واوصى صهره ابا محمد المليلى فى مرضه الذى مات منه باشياء ثم قال له انصرف

6) سقط فى المخطوط ذكر «كتاب»
7) فى المنشور من النسختين : حين «كتاب»
8) بتونة : ان شاء الله تعالى
9) بتونة : من اشهر ما بمقبرة ..
10) ليفى : ذرعة
11) فى المنشور : الشيخ الصالح المحدث ..
12) فى المنشور : الشيخ الامام المحدث الاشهر
13) فى المنشور : الحسنى
14) سقط فى المخطوط ذكر «من اصهار اسلافنا»

وائتنى صبيحة غد فانـك تجدنى ميتا. فكان كما قال. وكانت وفاته فى حدود عام ثمانية واربعين وسبع مائة. وازدحم الناس على قبره وقطعوا الحصير الذى حمل عليه تبركا به. نفعنا الله باوليائه) (15). قبر الشيخ الصالح الورع الحاج التقى الناسك الكثير(16) الصدقة والايثار المخلص فى اقواله وافعاله امام مسجد الحلفاويين (17) ابى العباس بن ابى الخير الانصارى جدنا من الام (18). قبر الشيخ الاديب العروضى التاريخى ابى اسحاق المعروف بالتلمسانى الانصارى صاحب رجز الفرائض ونظم السير، قبر الشيخ النحوى الاديب الانبل ابى بكر ابن عبيدة شارح جمل ابى القاسم، قبر الشيخ الراوية المحدث الحاج المرتحل الضابط الناقد ابـى القاسم التجيبى السبتى صاحب مستفاد الرحلة، قبـر صديقه الشيخ الفقيه الشروطى الاعرف المقيد المصحح للكتب العلمية ابى عبد الله بن العدبس الرعينى. قبر ابنه الشيخ الفقيه القاضى الخطيب (البليـغ الفذ فى عصره ابى الفضل عبد الرحمـن، قبر اخيه شقيقه وكبيره الشيـخ النحوى العدل المبرز ابى القاسم احمد. قبر ابن عمهما الشيخ الخطيب) (19) الصالح المنيب المنقبض عن الناس المتبرك به المعظم ابـى عبد الله محمد بن العـدبس الملقب بالمحجوب لكونه اقام نحوا من اربعين سنة لا يخرج من منزله الا لحضور صلاة الفريضة فى الجماعة ثم يعود. قبر الشيخ الفقيه الحاج الولى المعروف البركات(20) والكرامات ابى عبد الله الوادىلاوى السعيدى وقبره مزار مشهور قبر الشيخ الفقيه المفتى الصالح الشديد الورع الجليل القدر المتبرك به امام الفريضة بجامع سبتة الاعظم ابى الحسن بن وشاش المجسكى (21) رحمه الله قبر الشيخ الفقيه الامام القاضى الخطيب الحافظ المتفنن الاعرف ابى محمد بن مسلم الانصارى القصرى . قبر الشيخ الخطيب المقرى الصالح الصوفى المتبرك به المعظم ابى عبد الله بن عدل الكنانى . القبر الشاط سمى بذلك لطوله يذكر انه قبر سبت الذى اختط سبتة وهو من مزار معروف البركة على القدم.

ومن اشهرها بمقبرة المنارة قبر الولى العارف المعروف البركة المنقطع الى الله تعالى المشهور الكرامات والمكاشفات ريحان الاسود وقد ذكره ابن الزيات فى التشوف من تاليفه ويقال ان الدعـاء عند قبـره مستجـاب وهـو من المزارات

---

15) مـا بيـن القوسيـن ساقـط فـى المنشور من النسختين

16) ليفى : الكثير الخير والصدقة

17) فى المنشور : الحلفاويين من سجـة

18) فى المنشور : من قبل الام

19) مـا بيـن القوسين هو الموجود فى نسخة بتونـة، وهو الاصح، وفى نسخة ليفى ساقطة كلمة (ابنـه) اما النسخة الخطية فما بين القوسيـن مبتور .

20) بتونة : بالبركات

21) كـذا نسـخة ليفى، وفـى بتونة والمخطوط «المجكسى» ولعله هو الصواب : لانه سيرد فى اواخر الكتاب ذكـر لارض «مجكسة» التى يغلب على الظن انه منسوب اليها .

المشهورات بسبتة . قبر زينب العابدة والدعاء عند قبرها مستجاب ويصعد منه النور فى بعض الاحيان رحمة الله عليها(22). قبر الشيخ الفقيه القاضي الخطيب البليغ الصالح الورع المحدث الراوية الناقد بقية المشايخ وآخر المسندين ابى محمد بن عبيد (23) الله الحجرى. قبر الشيخ الفقيه القاضى المحدث الكاتب الاديب الابرع ابى عبد الله بن الـدراج الانصـارى من اهل سبتة . قبر الشيخ الصالح المجتهد الناسك ابى العباس ابن الازرق وذكره ابن القيم . قبر الشيخ اللغوى الحافظ الانبل المتفنن فى المعارف اوحد زمانه فى ذلك وامام عصـره ابى عبد الله بن عبـد المنعـم الصنهاجـى من اهل سبتة . قبر الشيخ الفقيه الحافظ المتفنن الصالح الورع ابى عثمان الانجرى امام المدرسة الجديدة. قبر تفاحة العابدة السوداء رضى الله عنها .

ومن اشهرها بمقبرة الحافة قبور الشهداء مزار مشهور بموضـع متسع جامع لعدد كثير قد حماه الله عز وجـل تعلـى بشـوك السدر ونباته هناك متصل بعضه ببعض ومن اعجب الاشياء ان السدر ليس بسبتة ولا بأحوازها الا بهذا الموضع الشريف فسبحان القادر على ما يشاء لا اله الا هو

ومـن اشهرهـا بمقبـرة زگلـو (24) قبـر الشيـخ الامـام العالـم المحدث الصالح الاتقى ابى العباس العزفى اللخمـى صاحب الدر المنظم فـى مولد النبى المعظم وقد مر ذكره (25) .

ومن اشهرها بمقبـرة مسجـد المحلـة حيث نزل طارق بن زياد حين الفتـح الاول قبـر الشيـخ الفقيـه القاضـى الحافـظ المفتـى المشهور فى الولاية والزهد ابى عبد الله محمد بن عبد الله الاموى السبتى مـن اشياخ القاضى ابى الفضـل عيـاض مـزار مشهور . قبور الشهداء بالمسجد المنسوب اليهم. قبر العجوزة المسنة المسندة ام المجد مريم بالبقعة المحبسة على دفن من يموت من طلبة مدرسة والدها الشيخ الفقيه المحدث المسنـد المطلـع على الفنون العلمية ابى الحسن الغافقى المعـروف بالشارى ويأتى ذكره (26)

22) فـى المنشور : لا وجـود للجملـة الدعائيـة .

23) ليفي : عبد الله، وفى نسخة بنونة ابـى عبـد الله بن محمد، والصواب ما اثبتناه من المخطوط كما تقدم ذكره .

24) كذا يرد فـى نسخـة ليفي، وفى بنونـة «زجلـو» اما فى المخطوط فيرد مصحفا هكذا «وجلوا»

25) فى ليفي يأتى بعد : «ومن اشهرها بالربـض الاسفـل قبر الشيـخ الفقيه..» ففيه تقديم وتأخيـر يخالف ما فى المخطوط ونسخة بنـونـة .

26) فى ليفي يأتى بعد : ومن اشهرها بمقبـرة «زكلـو..» ففيه ما تقـدم مـن التأخير والتقديـم

ومن اشهرها بالربض الاسفل قبر الشيخ الفقيه الخطيب المحدث ابى الربيع سليمان بن سبع العجسى مؤلف شفاء الصدور والقبر بصحن جامع التبانين حيث تقام الجمعة . قبر الشهيد الصالح الشهير ابى عبد الله بن خرزوزة قريبا منه بالصحن المذكور .

ومن اشهرها بمقبرة الشريعة من الربض الاوسط قبر الشيخ الصالح العابد السالك ابى عبد الله القرمونى من اهل سبتة ويصعد من قبره النور.

وبمقبرة الربض البرانى داخل سور البحر من الموضع المعروف بمضرب الشبكة قبر الشيخ الفقيه المشاور الخطيب الزاهد الشهير المعروف بالبركة الذى تراب ضريحه شفاء لذوى العاهات والزمنى، ابى عبد الله محمد بن مسعود المكى المعروف بابن الكنغر بين الكاف والقاف (27). قبر الشيخ الفقيه القاضى ابى الحسن بن القارى .

ومن اشهرها فى زماننا بالمقبرة المذكورة قبر الشيخ الولى الامام الصوفى العارف ابى محمد عبد الجليل الاوسى الاندلسى نزيل قصر كتامة والناس ينسبونه اليه صاحب شعب الايمان مزار مشهور والدعاء عند قبره مستجاب، قبر الشيخ الولى الزاهد السائح فى الارض المشهور الحاج ابى الحسن ابن الصائغ الانصارى من اهل سبتة. قبر الشيخ الفقيه المدرس الصالح الورع حافظ المغرب فى وقته لمذهب مالك بلا مدافعة ابى الحسن المتيوى شارح رسالة ابى محمد بن ابى زيد . قبر الشيخ الولى ابى العباس القنجائرى . قبر الشيخ المحدث الصالح الكثير الاجتهاد فى العبادة الذى لا يستطيع احد ان يدرك شاوه فى ذلك ابى عبد لله بن عبد الله بن(28) صالح التجيبى. قبر الشيخ الصالح المنقطع الى الله ابى عبد الله بن ستار الاستجى .

ومن اشهرها بمقبرة مضرب الشبكة البرانى خارج الباب الاحمر قبور الشرفاء الحسينيين وهم عدد كثير جمعتهم روضة واحدة وكانوا رضى الله عنهم وعن جميعهم ونفعنا بمحبتهم اهل علم وصلاح ودين. ومن تلك القبور قبر الشيخ القاضى الشريف العالم الصالح الاشهر ابى الشرف رفيع الحسينى. قبر ابنه القاضى الاعدل الاتقى الشريف ابى الحسن . قبر الشيخ الشريف الرئيس الشهير الكاتب الاديب الكبير التاريخى السخى الجواد الفذ فى عصره وزمانه ابى العباس الحسينى. قبر الشاب الحافظ لكتاب الله تعلى الكثير التلاوة له الحسن الهدى البار بالاخوان المعظم للطعام ابى الشرف رفيع الحسينى .

27) ليفى : الكنفر الكاف والقاف، وفى بنونة : الكنكر بين القاف والكاف .
28) فى المنشور : ابى عبد الله بن ابى صالح .

ومن اشهرها (29) بمقبرة احجار السودان — المقبرة الاولى — قبر الولى الشهير صاحب الكرامات والمكاشفات ابى مروان عبد الملك بن محمد ابن بشر القيسى اليحانسى ضريح مشهور ويصعد منه النور. قبر الشيخ الفقيه الخطيب (30) المصنف الاديب الكاتب الابرع ابى عبد الله بن خميس الانصارى الجزيرى نزيل سبتة وخطيب جامعها الاعظم .

ومن اشهرها بمقبرة احجار السودان — المقبرة الاخرى — قبر الشيخ الصالح الصوفى العارف ذى المنظومات الربانية والتباينات الحسية(31) الحاج الشهير المشهور ابى الحجاج المنصفى الانصارى البلنسى نزيل سبتة .

ومن اشهر هذه المزارات بمقبرة الولجة — اول قريتنا بزبج — قبور الشرفاء الحسينيين وهى نحو من اثنى عشر قبرا بموضع واحد يصعد منها نور يبلغ عنان السماء مزار مشهور معروف البركة وكيف لا يكون ذلك . قبر الشيخ الخطيب الصالح الامام المعلم لكتاب الله تعلى المتبرك به عبد الله بن الحسن .

ومن اشهرها بمقبرة الظهر المشرف على السوانى من عدوة عين علي من القرية المذكورة قبر الشيخ الشريف الصالح المعظم ابى عبد الله محمد ابن موسى الحسنى .

وبمقبرة عنصر اللوز، من قرية بنيونش جماعة من الشهداء فى اربعة قبور استشهدوا يوم دخلت النصارى القرية المذكورة (32)

ومن قبور الشهداء بمقبرة الجنتل من القرية ايضا ثلاثة قبور استشهد اهلها قبل الدخلة المذكورة بسنين .

وفيما ذكرناه من مشاهير هؤلاء الفضلاء كفاية اذ هم عدد كثير رضى الله عنهم اجمعين ونفعنا بمحبتهم بمنه وفضله ءامين .

وعدد المساجد الف مسجد من جملة العدد المدرستان مدرسة الشيخ المحدث الراوية المعتنى بالعلم واهله المنفق ماله فى نشره واقتناء كتبه أعجوبة زمانه فى ذلك ووقته ابى الحسن الشارى الغافقى السبتى المتقدم الذكر والمدرسة الجديدة العظيمة البناء المتسعة لزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام والواحه المتعددة الغالية الثمن التى ابتناها السلطان ابو الحسن المرينى مخلد الآثار الدالة على شماخة الملك وعلو المقدار .

---

29) بالاصل : «واشهر من بمقبرة» فاصلحناه كما راينا

30) ليفى : «الخطيب المصنع المصنف» وفى بنونة : «الخطيب المصقع...» وهو الصواب والكلمة ليست واردة فى المخطوط

31) سقط من نسخة بنونة: «والتباينات الحسية» وفى المخطوط «والتائبات الحسنية»

32) على هامش نسخة ليفى : طرة : كانت الدخلة المذكورة ضمن يوم الجمعة ثالث شوال عام 818 وفى هذا العام يوم الاربعاء منتصف جمادى الاخيرة دخل ثغر سبتة وحوزها عنوة واستولى عليها الطاغية قصمه الله ومن على المسلمين بعودته للاسلام بفضله

واعظم هذه المساجد واشرفها على التحقيق المسجد الجامع العتيق بلاطاته اثنان وعشرون بلاطا وبقبلته (33) شمسيات من الزجاج الملون بصناعات شتى معقودة بالرصاص والقنوات الفاصلة بين البلاطات ومجارى القسايم والميازب من الرصاص كذلك ودرجات المنبر اثنا عشر درجة صنع فى شعبان المكرم سنة ثمان واربعمائة (34) وتميز على سائر جوامع بلاد (35) المغرب كلها بالبلاط الاوسط الضخم البناء المرتفع السمك والمقصورة الهائلة الغريبة الشكل كان صنعها فى رجب الفرد من سنة ثمان وعشرين واربعمائة (36) وبه صحنان احد الصحنين اكبر من الآخر وبكل واحد منهما جبان اثنان وصومعته قديمة من بناء الاوائل .

وقد استوعبنا وصف هذا الجامع وذكرنا ما كان ينبغى ان يذكر من تاريخ وخبر فى «بغية السامع» من تاليفنا نفعنا الله بالقصد فى ذلك .

وعدد الخزائن العلمية اثنتان وستون خزانة كان منها فى الزمن القديم بدور الاكابر وذوى الاقدار خمس واربعون خزانة كبنى العجوز كان جدهم الذى نوه بهم قد رحل الى ابى محمد بن ابى زيد بالقيروان واخذ عنه جميع تواليفه وقرأ عليه تفقها وغيرهم كالقاضى ابى عبد الله بن عيسى التميمى من اشياخ القاضى ابى الفضل عياض والفقيه القاضى الزاهد ابى عبد الله محمد بن عبد الله الاموى ـ وقد مر ذكره فى المزارات ـ من اشياخه ايضا والفقيه المحدث الحسيب ابى العباس العزفى اللخمى وسواهم وكان منها فى زماننا سبع عشرة خزانة تسع بدور الفقهاء الصدور كبنى القاضى الحضرمى وبنى ابن ابى حجة واشياخهم وثمان موقفة على طلاب العلم اقدمها الخزانة الشهيرة ذات الاصول العتيقة والمولفة الغريبة خزانة الشيخ ابى الحسن الشارى المذكور التى بالمدرسة المنسوبة اليه التى ابتناها من ماله وهى اول خزانة وقفت بالمغرب على اهل العلم نفعه الله واعظمها احدى خزانتى الجامع العتيق الكائنة بشرقى صحنه وبازاء باب الشواشين(37) احد ابوابه وكانت فى الكثرة بحيث لم يشذ منها فن من الفنون ولا نوع من المعارف اصلا مع تعدد مصنفات ذلك الفن وكثرة دواوينه وباقى هذه الخزائن مفترق منها بالمدرسة الجديدة خزانتان وبمسجد القفال خزانة واحدة وبمسجد مقبرة

33) فى المخطوط وليفى : «وبقبلتها» وفى المخطوط وبنونة «شمسات» بدل «شمسيات» .

34) لا وجود لهذه الجملة فى المنشور، وانما وردت طرة على نسخة ليفى هكذا : كان صنع هذا المنبر فى شعبان المكرم سنة 408 .

35) فى نسخة بنونة سقطت كلمة«بلاد»

36) لا توجد جملة التاريخ فى المنشور من النسختين

37) ليفى : «الشواشين» ويظهر انها تصحيف لانها سترد فيما بعد «الشواشين» كما ذكرت هنا فى المخطوط ونسخة بنونة

زكلو اخرى وهو اكبر مسجد سبتة بعد المسجد الاعظم منها بلاطاته سبعة وله صحنان وصومعة عجيبة من بناء الفقيه ابي القاسم العزفي صاحب سبتة وخزانة اخرى بجامع الربض الاسفل .

وعدد الروابط والزوايا سبع واربعون ما بين زاوية ورابطة محادية للبحر من جانبي الجنوب والشمال داخل المدينة والارباض وخارجا عنها اضخمها بناء واعظمها هيكلا الرابطة المعروفة برابطة الصيد مربعة الشكل قائمة في الهواء على اثنى عشر عمودا منها ثمانية من الرخام سبعة ساطعة البياض وواحد حالك السواد مع بريق كأنه قطعة سبج ويخرج منه في غالب الاوقات رشح شبه العرق ويتقوى عند وضع اليد عليه والاربعة الباقية مبنية بالاجر تحت معاقد اركان القبة ولكل عمود منها خمسة اركان واستدارت بها ثمانية عشر شرجبا (38) في اربعة بلاطات مشرفة على البحرين معا وبابها مبنى بالكدان المنجور وتتصل بها دار للقيم بخدمتها والى جانبها رابطة اخرى على شكلها ومثالها وفي وسطها القبر المعروف بقبر صيدة جارية لاحدى امراء الموحدين وعلى القبر قطعة من رخام ابيض في طول اثنى عشر شبرا وارتفاع خمسة اشبار او ما يقرب منها وبجوانبها الاربعة خمسة ادراج منجورة طريفة الصنعة .

ومن الزوايا الزاوية الكبرى التى ابتناها السلطان الاشهر (39) ابو عنان بن ابى الحسن بخارج باب فاس احد ابواب آفراك واعدها للغرباء ولمن اضطر الى المبيت بها من التجار وغيرهم ملوكية البناء كثيرة الزخرفة والتنميق متسعة الساحة متعددة المساكن وصومعتها من ابدع الصوامع بسبتة صنعة واتمها احكاما ولا تتلخص (40) بعد الى الآن .

وعدد المحارس ثمانية عشر محرسا من المدينة الى اثنى عشر ميلا من خارجها من ناحيتي البحرين وما وراء ذلك الى بلاد الريف والى طنجة لم يدخل هذا العدد منا الطالع الكبير الفذ النظير طالع سبتة الذى بأعلى جبل مينائها المعروف عند الناس بالناظور وابتناه المرابطون هناك للناظر الراتب به حصنا وفيه قلهرة كبيرة وبداخل القلهرة مسجد وكان ذلك على يد القاضي ابى الفضل عياض رحمة الله عليهم اجمعين وهذا الطالع من اعجب الطلائع لكونه يكشف البرين ويشرف على العدوتين الى بادس من بلاد الريف والى طرف القسيس شرقا من مالقة والى ما وراء طريف غربا الى طرف سنتار من بر الاندلس فلا يخفى عليه من بالزقاق

38) هذه الكلمة ساقطة فى المخطوط .

39) بنونة : مولانا ابو عنان

40) فى المخطوط : ولم يتخلص، وفى بنونة : ولم تتخلص بعدلك الى الان

شيء ولكونه تحت اسوار وابواب داخل المدينة وفي حكم اهلها اذا(41) تقع فتنة او يحل حصار .

وعدد الازقة مائتان وخمسون زقاقا سوى ما دثر منها وهي ازقة الخندق الكبير الذى كان يعرف في القديم بخندق أيمن ويعرف اليوم بخندق الدجاج وجلها يشتمل على ازقة كثيرة من اشرفها الزقاق الاعظم زقاق بن عيسى وهو القاضي ابو عبد الله التميمي وقد تقدم ذكره وهو زقاق الاكابر عند اهل سبتة وبه يضربون المثل بينهم متسع الساحة يحتوى على ازقة ودروب وقصور ملوكية ومصانع هائلة وهو فاصل بين شطرى المدينة وفيه اربعة وعشرون حماما مبرزان وباقى العدد بدور السادة من الشرفاء وبنى العزفي وغيرهم من اعلام الفقهاء وكبار التجار وجل هذه الازقة معروفة باسماء من سكنها من العلماء كزقاق ابن عيسى هذا وزقاق عياض هو القاضى وزقاق ابن عبد الله القاضى الزاهد من اشياخ القاضى عياض وقد مر ذكره وزقاق ابن يربوع وزقاق العزفي هو ابو العباس وسواهم كابى على بن الشراك وابى القاسم بن الشاط وكل زقاق من العدد المذكور تنغلق عليه دروب وعلى تلك الدروب بيات تجرى عليهم الجرايات الى غير ذلك وعدد الحمامات المبرزة للناس اثنان وعشرون حماما اعظمها هيكلا واشهرها ذكرا حمام القائد وهو القائد ابو على ناصح الذى كان بناؤه على يديه رحمه الله، هذا الحمام الغاية في الكبر يسع المبين من الناس مرتفع السمك طيب الهواء قائم على اعمدة الرخام معروش بالواحه الساطعة البياض والمسلخ متسع الساحة له بابان اثنان وسقفه قبة مرتبة متقنة على اربع حنيات وبالصحن صهريج كبير مرتفع عن الارض وفي وسط الصهريج سارية مجوفة فوقها طيفور من الرخام الموصوف يصعد الماء في جوف السارية الى ان يفور في الطيفور وفيضه يملأ الصهريج وقد استوعبنا وصفه في «الاعلام»، ومن الحمامات ذات الرخام سواء بسبتة حمام ابن عيسى هو احد الحمامين المبرزين بزقاق ابن عيسى وحمام اليانشتى وحمام عيود بناحية الميناء وهو نظير حمام القائد في الضخامة والهيكل وبمسالخها طيافير من الرخام على سوارى مجوفة ايضا في وسط الصهاريج على نحو ما وصفناه وبالقصبة عشرة حمامات سوى العدد المذكور ابدعها حمام القصر .

هذا وبكل دار من ديار سبتة حمام ومسجد الا القليل ولقد كان بمنزلنا حمامان اثنان ومسجد طهر الله تلك المنازل من دنس عبادة الاوثان والاصنام واعاد اليها بمنه وفضله كلمة الاسلام .

---

41) في المنشور من النسختين : اذ نلاحظ انه وردت في هذه الفقرة كلمة «قلهرة» وهي كلمة اسبانية CALAHORRA ومعناها الخزين الذى يخزن فيه الخبز لتوزيعه على الاهالى عند مجاعة او ضائقة في التموين .

وعدد الاسواق مائة واربعة وسبعون سوقا تختص منها المدينة بمائة واثنين واربعين سوقا من اشرفها قدرا واجملها مرأى سوق العطارين الاعظم وسماط العدول الموثقين المتصل به حيث المدرسة الجديدة وكلاهما بجوفي الجامع الاعظم والقيسارية خلف ذلك. ومن اسواق المأكول والمطعوم والفواكه والادام وغير ذلك السوق الكبير وسوق مقبرة زكلو من الجانب الشرقي من المدينة ومن الاسواق المعلومة لتجار الانية الصفرية القوية الصبغة العجيبة الصنعة الخاصة بسبتة دون غيرها سوق السقاطين وما ادراك ما سوق السقاطين رفاهية متجر وكثرة انواع وحسن ترتيب ووضع وقد بسطنا القول فيه في «الاعلام» ويحق له ذلك .

وعدد الحوانيت اربعة وعشرون الفا وكان في الزمن القديم اكثر من هذا العدد حسبما بينا ذلك في «الاعلام» ايضا .

وعدد التربيعات المعلومات للحرارين والقزازين خاصة ـ وهناك تربيعات غيرها داخلة في حكم الاسواق احدى وثلاثون تربيعة مفترقات بالممرات والاسواق خلال الاطرزة (42) من اول المدينة الى آخرها اعظمها التربيعة التي بأسفل زقاق خطاب سامية في الهواء كأنها معقل او قلعة على ثلاثة اطباق وفي صحنها مسجد .

وعدد المنجرات المعدات لعمل القسي اربعون منجرة منها عشرون بالممر الاعظم وعشرون بمنازل المعلمين والصناع كبني القنطري وبني العاقل وبني ابن غالب وغيرهم وكان منها في زماننا خمسة عشرة منجرة وادركنا جماعة من اشياخ الصناع المنجريين بسبتة منهم الشيخ الشريف المعظم ابو عبد الله محمد بن عبد الله الحسني والشيخ الوجيه ابو عبد الله محمد الحسني ابنه والشيخ المسن الصوفي المشهور بالتقدم في الصناعة في زمانه ابو عبد الله محمد المعروف بالعقدة والشيخ الحسيب ابو محمد عبد الله بن الدليل والشيخ المتقدم الحسن الذات الكثير المواعين والادوات ابو الحسن العبادي في آخرين ومن انبل شبابهم الشاب المهذب الفاضل اوحد العصر واعجوبة الزمان في المعرفة والاحكام ابو عبد الله الشماني رحم الله جميعهم بمنه .

وعدد الفنادق حسبما استفاض على ألسنة اهل البلد ثلاثمائة وستون فندقا اعظمها بناء واوسعها ساحة واحكمها بناء الفندق الكبير المعد لاختزان الزرع وهذا الفندق من بناء ابي القاسم العزفي ومن آثاره الغريبة بسبتة يحتوي على اثنين وخمسين مخزنا ما بين هري وبيت تسع تلك المخازن من قفزان الزرع الآلاف العديدة التي لا تبلغ الحصر (43) ومن ضخامته ان له بابين باب

42) بالمخطوط : الازقة
43) بنونة : لا تبلغ بحصر

الى صحنه وباب(44) الى الشوارع المحملة الدائرة بالطبقة الثانية لكون الارض مرتفعة من تلك الجهة تدخل على البابين الجمال باحمالها مع الارتفاع والاتساع الكبير، فاذا ابصر الرائى ما يدخل منها على الباب الاعلى ودورانها فى تلك الشوارع باقتابها وغرائر الزرع المحملة عليها هاله ذلك وتعجب منه .

ويليه فى الكبر من الفنادق المعدة لسكنى الناس من التجار وغيرهم الفندق المعروف بفندق غانم يشتمل على ثلاث طباق وثمانين بيتا وتسع مصريات وهو قديم البناء اظنه من بناء المرابطين وبابه نسبة لهيكله .

وابدعها صنعة فندق الوهرانى جمع هذا الفندق صنائع الجص والنجارة وعلى بابه عقاب غريب الشكل مفقود النظير وقد بالغنا فى وصفه فى «الاعلام» فانظره هناك وجملة من هذه الفنادق مشتملة على العدد الكثير من سوارى الرخام واعمدته .

وعدد الافران فيما يذكر ايضا اهل سبتة ويدور على السنة الناس كثيرا ثلاثمائة وستون فرنا كالفنادق وشماخة البلد وعظمه يقطع بصحة ذلك اكبرها الفرن الذى باعلى زقاق ابن يربوع وهو من بناء بنى العزفى متسع الساحة كبير البيت مع حسن البناء ونظافته .

وعدد السقايات خمس وعشرون سقاية ابدعها صنعة ووضعا السقاية التى بطرف العطارين واول سماط العدول وبازاء باب الشواشين من ابواب الجامع ذات الانابيب النحاسية والالواح الرخامية والزخرفة والتنميق وقد مضى وصفها فى «الاعلام» .

ومن السقايات المعدة لسقى الدواب من الخيل وغيرها سقاية جب الميناء العظيم الهيكل المشهور الذى ابتناه الفقيه الرئيس ابو القاسم العزفى المذكور وخلده اثرا (45) غريبا بعده رحمه (46) الله صهريجان مشتركان يمد احدهما الآخر قد احكم الاسفل والاعلى منهما فرشا (47) بالواح الصخر المنجور اتم احكام واكمله .

ومن ذلك سقاية القبة بالربض البرانى صهريج مستطيل متصل ببير معينة قريبة التناول طيبة الماء عليها قبة على اربعة اعمدة والى جانبها آبار متعددة (48) للسبيل وربما تبلغ الثمانين .

44) فى المنشور : والاخر
45) فى المنشور : امرا غريبا
46) بنونة : رحمه الله تعالى
47) بنونة : فرش بالواح
48) فى المنشور : معددة

وعدد الميضات اثنا عشر ميضاة منها الميضاة الكبرى مضاة الجامع الاعظم بازاء باب الزلاقة احد ابواب بحر ابى السول بها عدة بيوت وبوسطها صهريج كبير وابدعها صناعة واحكمها بناء ميضاة المدرسة الجديدة تحتوى على بيوت ثمانية ومطهرة كبيرة وفى كل منها نقير من الرخام يصب فيه ميزاب من النحاس وفرش الجميع ألواح منجورة من الصخر وبوسطها صهريج مفروش بالزليج الملون وقبتها (49) مولفة ومن بعض صنائعها نور البابونج يخاله الناظر اليه خلقة من احكام الصناعة يجلب الماء الى ذلك كله بالدواليب

وعدد ديار الاشراف اربعة، دار الاشراف على عمالة الديوان امام فنادق تجار النصارى حيث الرحبة العظمى وفنادقهم سبعة، اربعة على صف واحد وثلاثة مفترقة ودار الاشراف على البناء والتجارة وما يرجع اليها (50) ودار الاشراف على شد (51) الامتعة وحلها وهى المعروفة بالقاعة (52) حيث تجارة العطر ودار الاشراف على سكة المسلمين بقصبة المدينة .

وعدد المطامير اربعون الفا مفترقة بالديار وببعض الحوانيت ما عدا مخازن الفندق الكبير المتقدم الذكر والاهراء التى بالقصبة يمكث الزرع فى هذه المطامير الستين سنة والسبعين سنة ولا يلحقه تغيير لطيب البقعة واعتدال الهواء وكونها جبلية فسبتة فى ذلك شبيهة بقاعدة طليطلة من بر الاندلس اعادهما الله للاسلام واحسنها ما كان فى اعالى البلد كطالعة الميناء وفى اسفاد الربى (الاولى منها ربوة ظهر الغدير حذاء مسمع الطير والسابعة جنة اليانشتى شرقى العرقوب وهى) (53) سبعة من جهة الجنوب.

وعدد الطواحين مائة وثلاث من اعظمها الطاحونة التى بالمسامريين ضخمة الابنية واسعة الافنية كثيرة المدارات تحتوى على مخازن وقاعات ومساكن وثليها فى الكبر طاحونة ابى سعيد (54) الحضرمى رحمه الله وطاحونة مقبرة زكلو وطاحونة ابى الحسن الشماع، وبغربى البلد طاحونة الزياتين وطاحونة الحلفاويين وطاحونة الكمادين وجميع هذه الطواحين بمياهها فيها (55) لا تفتقر (56) الى شراء ماء من سقاء ولا من غيره اصلا

49) ليفى : وقبته

50) فى المخطوط : «البهماء»، وفى نسخة ليفى وقع ذكر هذه الدار بعد التى تليها فى المخطوط كما هنا. اما فى نسخة بتونة فلم يرد ذكر لهذه الدار مع اوصافها .

51) ليفى : لشد الامتعة

52) لا وجود لهذه الكلمة فى نسخة بتونة .

53) ما بين القوسين لا يوجد فى المنشور من النسختين، بل فى ليفى : «الربى السبعة من جهة..» وفى بتونة : «الربى من جهة..»

54) بتونة : «ابى السعد»، وسقط من العبارة جملة الدعاء

55) «فيها» ساقطة فى ليفى، وفى بتونة ساقط «بمياهها فيها»

56) ليفى : لا تفتقر ولا تحتاج

وكذا جميع مساكن سبتة حيثما كانت بأقطار المدينة حتى ان ذلك موجود فى المصريات والعليات المحملة، وقد اشرنا الى ذلك فى «الاعلام».

وعدد الارباض فى الحقيقة ستة، الثلاثة العامرة المتصلة بالبلد والربض البرانى حيث الحارة والكسابين (57) الذى هدم سوره السلطان ابو سعيد المرينى (58) من حافة الغدار الى مضرب الشبكة وافراك المدينة المحاذية له حيث القصر الملوكى الذى اعده ملوك بنى مرين هنالك لنزولهم والميناء من الجانب الشرقى دورها ستة اميال كل ذلك تحت اسوار وابراج الا ما كان لغير الشرقى (59) امام المجرى الزقاقية لاجل تلك الصفوف التى هناك يسكنها اهل الزمام وبها زوايا وجنات وشعارى ومجاشر وغير ذلك ومنها يحتطب اهل سبتة حال الاضطراب والنزال.

وعدد الابواب خمسون بابا، منها الباب الاعظم الشهير الضخم الهيكل الذى لا يلفى له نظير المعروف بالباب الجديد وهذا الباب من مفردات سبتة من آثار الملوك بها اكتنفته قلهرة عظيمة البناء هائلة المنظر سامية فى الجو قد استقلت على عشر قباب واربعة عشر قوسا وبابه الاوسط بين قلهرتين اثنتين بارزتين من القاهرة العظمى والباب فى السعة والارتفاع قد اربى على الغاية وجاوز الحد والنهاية وقوسه وفياصله قد احكم بناء (60) بالكدان باعجب صنعة وابدع اتقان ويذكر انه على شكل باب مدينة همدان وقد استوفينا وصفه فى «الاعلام».

وعدد ابواب الغدر والخنزيرات وابواب الستارات ومسالك السلوقيات ستة عشر بابا وابواب الربض البرانى الذى هدم سوره ابو سعيد(61) المتقدم الذكر خمسة وابواب افراك ثلاثة اكبرها باب فاس الذى (62) وضعه السلطان ابو الحسن المرينى (63) بانيه على شكل باب السبع من البلد الجديد (64) كرسى مملكته وعلى مثاله رحمه الله. جملة ذلك اربعة وسبعون بابا وجميعها ملبس بالحديد الا اليسير.

وعدد الحفائر اربعة، الحفير الكبير المحيط بالربض البرانى المذكور والحفير الفاصل بينه وبين الارباض الثلاثة من الشطابين الى مضرب الشبكة والحفير الهائل المعروف بالسهاج حسبما نص عليه البكرى الفاصل بين

---

57) فى المنشور : والكناسون
58) فى المنشور: «هده» بدل هدم ولا ذكر لكلمة «المرينى» فى المخطوط
59) ليفى : «والاماكن لغير الشرقى» وبنونة : «الا ما كان لعين الشرف»
60) ليفى : بناؤها
61) فى المنشور «هده» بدل هدم، وفى المخطوط : «ابو سعيد المذكور المتقدم الذكر»
62) «الذى» لا توجد فى المخطوط وبنونة
63) لا وجود للكلمة فى المخطوط
64) فى المنشور : من فاس الجديد

الارباض والمدينة وهو الذى عليه القنطرتان قنطرة بـاب المشاطيـن وقنطرة باب الفرج، الرابع الحفير الفاصل بين جنة اليانشتى من الميناء وبين ما يلى من البلد من العرقوب الى باب الحلويين .

وعدد المصلات ستة اشرفهـا واسناهـا المصلـى الكبـرى (65) مصلى المدينة. ومما اتصفت به هذه المصلى كونها خارجة عن المدينـة داخلـة فـى حكمها فوجه خروجها انها خلف السور فى براح متصل بأرض عظيمة الاتساع مشتملة على جنـات ودمـن ومجـاشر وجبال وخنادق وشعارى وسوى ذلك دون الجميع ستة اميال فصارت المصلى فى حكم الصحرا على السنة فى ذلك ووجه دخولها هو ان البراح الموصوف بما اتصل به منقطع فى وسط البحـر فلا يلحق احدا فى هذه المصلى خوف من عدو عاد ولا تتعطل من اقامة الصلاة ايام الفتن والقتال ولا فى حالة الحصر والنزال بخلاف غيرها .

ومنها باعلى حافة الغدار والمصلى الملوكيـة المتسعـة المستوية الارض المشرفة على البحر هنالك المختصة بسكان افـراك مـن الامـراء والاجنـاد وغيرهم وبها كان يصلى السلطان ابو الحسن المرينى (63) بجيشه رحمه الله

وباقيها لاهل الارباض والقصبة ولمن بربوة ابى الفضل احـدى ربـى المنارة من الزماميين الحارسين بها نهارا .

وعدد المرامى المعبر عنها بالجلسات واماكـن السبـق المعلومات للرماة اربعة واربعون مرمى بالميناء تسع جلسات، جلسة الحفيـر المتواريـة (66) بازاء باب الحلويين المتقدم الذكر المخصوصة بالقاضى وصـدور الفقهاء مـن العدول وغيرهم اذ المرمى طبع لاهل سبتة طبعوا عليه فلا تلفي منهم شريفـا ولا مشروفا ولا كبيرا ولا صغيرا الا وله بصر فى الرمى وتقدم فيه. ومعظم رميهم بالقوس العقارة وهو من جملة الاشياء التى تميزوا بها ومن هذه الجلسة الى الهدف مجال للرماة من مائة وعشرين خطـوة وهـو القـدر المتـوسط يعبر عـن الخطـوة بالباع ومقدار ذلك فى اصطلاحهم ثلاثة اقدام ومن ذلك جلسة مدا رميها(67) من اربعمائة خطوة وجلسة من اربعمائة وخمسين وجلسة من سبعمائة وهى من ابعد المرامى على حسب القوس فى الشدة والليـن . ومرمى عاشر بوسط المصلى وهو بانفراده للقوس العربية وبالمنارة من داخل البلد اثنا عشر(68) منها سبعة من الفـوسبعمائة خطوة وهى الغاية ومن الجلسات جلسة من اربعمائة وعشرين وجلسة اخرى من اربعمائة. ومن ابدعها جلسة

65) يذكر المصلى مؤنثا فيعيد الضمائر عليه مؤنثة الى غير ذلك بناء على هذا الاعتبار .

66) لا ذكر لكلمة المتوارية فى «المنشور»

67) لبفـى : «مـدار رميها»

68) فى المنشور : «اثنتا عشرة»

بظهر خارج(69) الملعب يرمى منها الى ثلاث نواح، ناحية مدارها ثمانون خطوة واخرى مائة وخمسون واخرى مائة وتسعون. واربعة مرامى خاصة بالقوس العربية ايضا. فجملة ما يلى (70) المنارة اذاً ستة عشر مرمى، بالقصبة جلسة واحدة برحبة الزجاج منها من ثمانين خطوة وبالارباض الثلاثة سبع جلسات وسبقة من ثلاثمائة وخمس وسبعين، وبخندق القمل (71) خارج الباب الاحمر جلستان اثنتان وسبقة من الف باع ومائتين وبجوف افراك جلسة من اربعمائة فى ارض مستوية، بخارج باب فاس من ابواب افراك المذكور سبقتان، سبقة من الف باع ومائتين كذلك وسبقة اخرى من الف باع. وقد مضى فى الاعلام وصف اماكن هذه المرامى ومن اين يبتدأ بالرمى والى حيث ينتهى فيه، وذكر المنجرات قد تقدم .

وعدد المقاصر خمسة وعشرون مقصرا وكلها تحت الاسوار الابراج والابواب (72) منها بالميناء ستة عشر واحد بجانب القبلة وهو مقصر عش الغراب، وخمسة عشر بالجانب الجوفى من قالة الرصيف (73) الى الموضع المعروف بماء يقطر، وهى من احسن المقاصر واعجبها اتساعا وامدا وقلة لازم كل مقصر منها يحتوى على مقصرين اثنين مقصر داخل السور ومقصر خارج عنه لكل مقصر برج من ابراج السور خاص به تحاط به الامتعة ليلا وتنشد (74) نهارا الى ان تتم قصارتها وتتخلص فلا يخاف عليها طول تلك المدة من لص ولا تكلف فى حملها بالغداة والعشى مئونة كما فى سائر البلاد. ومنها بساحة الحافة من داخل المدينة ستة مقاصر لها ايضا ابراج (لصيانة الامتعة على نحو ما تقدم. وبالارباض ثلاثة مقاصر خاصة بأهلها، وكان بقريتنا بزبيح مقصر كبير خارج) (75) من العدد على ساحل من سواحلها حصباؤها (76) كالدر نصوعا وبريقا.

وعدد المقاصر الغزلية تسعة عشر مقصرا متصلة بمقاصر الحافة المذكورة من جهة الشرق والغرب، واماكنها ستة من جملتها قالة البسابس وقالة الصندل وقالة العين حيث قبور الشهداء هنالك .

69) بنونة : «بظهر الملعب»
70) فى المنشور : «ما بالمنارة»
71) بنونة : «المنهل»، وليفى : «اهل»
72) لا توجد الكلمة بالمخطوط
73) على هامش نسخة ليفى : فى الطرة : القالة داخل المدينة، وفى بعض النسخ «الرنيف» و «الزليف» وفى نسخة بنونة : الزبيب
74) فى المنشور : وتنشر
75) ما بين القوسين لا يوجد بالمخطوط .
76) بنونة : حصباؤه

وعدد المقبرات بداخل المدينة وخارجها ثلاث عشرة مقبرة، مقبرة التوتة شرقى الميناء، مقبرة الميناء (77) بسفح الجبل، مقبرة المنارة (78) تحتوى على ست مقبرات اولها مقبرة ظهر الملعب وآخرها مقبرة بئر النقطة فى مدى طويل، مقبرة ابن الرامى، مقبرة الخوائم، مقبرة زكلو، مقبرة مسجد المحلة، مقبرة البلد القديم الذى اختطه سبت، مقبرة الشريعة من الربض الاوسط، مقبرة الحارة، مقبرة مضرب الشبكة مقبرة مضرب الشبكة الثانية، مقبرة احجار السودان الاولى والثانية (79) .

وعدد المراسى من طرف قب منت شرق جون فراطة من البحر الجنوبى المعروف ببحر ابى السول الى حجر الطفل القريب من قصر الجواز من البحر الشمالى المعروف ببحر الرملة ثلاثون مرسى منها مرسى المدينة المعروفة بحفرة مختار من بحر الرملة المذكور، وهى من المراسى الجيدة بالليج (80) والغرب الجرح. ويخاف فيها من (81) البرانى سيما عند دار الصناعة حيث مضرب الشبكة الا اذا وافق الراس (82) الحفرة المذكورة وهى امام باب الحلفاويين، وعلم الاهتداء (83) انه يسامت مجاز جزيرة الرملة وينفتح له دون ساتر يستره فاذا كان كذلك فقد وافقها. والقاع منها اذاك على ثمان قامات رمل كله (84) فذلك الموضع مرسى بكل هواء برانيا كان او غيره وهو من اشرف مراسى المدينة فاعلم ذلك. وباقى المراسى مفسر فى الاعلام .

وعدد المضارب المعلومة بحوت الجرى (85) وغيره بالبحرين معا تسعة مضارب اعظمها فائدة مضرب اويات وكلها مفيدة ومنها ما هو بداخل المدينة ومنها ما هو خارج عنها .

وعدد ما وقفنا عليه من المصائد سوى ما لم نقف عليه مائتان اثنتان وتسعة وتسعون مصيدا مفترقة من طرف قب منت من بحر ابى السول المذكور الى مرسى موسى بل الى مجشر فرديوة من ارض مصمودة من بحر الرملة المشار اليه. وقد بينا فى الاعلام ما يقع الانتفاع به منها من ذكر العلامات والمياه، وعلى كم يصاد فى كل مصيد منها فقف على ذلك فانه حسن فى بابه انتهى .

77) لا ذكر لهذه المقبرة فى ليفى
78) لا ذكر لهذه المقبرة فى المخطوط .
79) فى المخطوط : «مضرب الشبكة الثانى، مقبرة احجار السودان الاول والثانى» .
80) بنونة : باللبيج والغربى والجرج، وفى ليفى : باللبح
81) ليفى : من الريح البرانى
82) بنونة : الرامى» وفى المخطوط : اذا وصلوا الحفرة
83) بنونة : وعلم الاهتداء ان يسامت بحار، وفى المخطوط : وعلم الان انه
84) ليفى : ترمل كلا
85) بنونة : «الحوت البحر تسعة مضارب».

ولنذكر الآن ما جمعته قرية بنيونش المشهورة في الآفاق التى اربت على القرى وفاقت شعب بوان من اقصى العراق، فعدد العيون والانهار التى بها ستة وثمانون وارفعها قدرا واشهرها فى النفع ذكرا نهر «امزار وعدد الحمامات بالاربعة المبرزة للناس مائة وستة وعشرون حماما منها خمسة وعشرون بخندق رحمة بالقرية المتصلة بها المنسحب عليها ذيل حرمتها فى رفع الوظيف والتحرير من المغرم، وعدد الارحى الطاحنة بمياه تلك الانهار خمسون وعدد بيوتها تسعة وثلاثون منها احد عشر بيتا فى كل موضع(86) بيت رحيان اثنتان فجاء من ذلك العدد المذكور(87) وعدد المنازل خمسة(88) وعشرون اشرفها المنزل المعروف بمقبرة الشيوخ المحتوى على الجنات والبساتين النبيهة القدر الملوكية، وعدد المساجد تسعة عشر، اربعة بخندق رحمة المذكور وباقى العدد بالقرية من جملتها المسجد الذى تجمع فيه صلاة الجمعة بلاطات هذا الجامع ثلاثة وله صحنان اثنان ومنبره حسن الصنعة ومراقيه ستة وتاريخ بنائه منقوش فى لوح من الرخام الابيض بازاء بابه الشرقى وجرية نهر عنصر اللوز وهو من الانهار المعدودة فى انهار القرية الى جانب الجامع مما يلى قبلته وعدد الحوانيت خمسة وعشرون حانوتا، ويذكر انها كانت اكثر من هذه العدة والله تعالى اعلم وعدد الافران ستة عشر فرنا مفترقة فى ازقة المنازل (89) وليس فيها من الفنادق الا فندق واحد بساحل القطارة(90) خارج السور هناك واليه تنتهى جرية نهر «امزار المذكور ثم يفترق ذات اليمين وذات الشمال وبالقرية مصانع ملوكية (91) وابراج هائلة ابوابها مصفحة بالحديد وقباب وطيافير رخامية ومحنشات وصهاريج ومياه خلال ذلك تطرد (92) ومن اعظم ذلك واهوله برج السويحلة المشهور الغريب الشكل والنظير فى اعلاه قصر يصعد الماء اليه بالحيل الهندسية حتى يعمه ومسالكها وطرقها تحت اسوار وابراج وابواب منها بجهة البحر اربعة ابواب وبالبرباب(93) ومسلكان احد المسلكين بين الجبلين والاخر على العين الحمراء لا بناء عليهما لمنعتهما. والقرية فى كثرة الفواكه الصيفية والخريفية واختلاف اصنافها

---

86) هذه الكلمة لا توجد فى المنشور

87) فى طرة بنسخة ليفى : رحى تحت الماء المحفور جددها السلطان المرحوم سيدى محمد بن عبد الرحمن ولم تكمل وبنواحى اوبات لا زال اثره ارحا، منها اربعة اثنان فى كل بيت

88) فى المنشور من النسختين : اربعة وعشرون

89) فى نسخة ليفى بالطرة : لا زال اثر فرنين بها.

90) فى نسخة ليفى بالطرة : لا زال اثر الفندق (اما ساحل القطارة فانه) يسمى الان ساحل الحجارة، وسور الفندق لا زال قائما .

91) فى طرة بنسخة ليفى : بقربها ما يعرف بالابراج، برج القطارين على البحر وبرج الجوف تحت القصارين بجمعة بليونش

92) لا توجد هذه الكلمة بالمخطوط

93) فى المخطوط : باب البابة، وفى المنشور: «منها لجهة البحر اربعة ابواب وللبرباب»

وتعدد ارهاطها وانواعها بحيث توسق منها الاجفان وتسافر (94) الى المغرب وبلاد الاندلس فمن الخرفية العنب انتهى الى خمسة وستين بين رهط ونوع. التين انتهى الى ثمانية وعشرين نوعا. التفاح انتهى الى خمسة عشر نوعا. الخوخ انواعه ستة، السفرجل انواعه اربعة، المشتهى نوع واحد، وليس بالمغرب منها شيء، العناب نوعان، الرمان انتهى الى ستة عشر نوعا، اللوز انواعه اربعة احدها المر وفى اتخاذ العصى من خشبه خواص، الجوز انواعه بهذه القرية المباركة(95) وبغيرها من قرى سبتة تسعة انواع وهو من الغلات العظيمة الفائد الجلوز نوع واحد والموجود منه فى حيز الغلة الشاه بلوط وهو القسطل هذا الصنف اخو الجوز فى عظيم الفائد وكثرته وهو فى سائر القرى اكثر من ان يوصف او ينتهى فيه الى غاية وانواعه متعددة اعرف منها ثمانية عشر نوعا لكثرته باملاكنا من قريتنا بزبج الزيتون انواعه ثلاثة (وليس بالكثير الخروب نوعان : طيب وردي، الصنوبر انواعه ثلاثة) (96) وربما ترجع الى نوعين، النخل موجود وليس بصالح فى هذه الاوطان الجوفية، ومن الصيفية المشماش انتهى الى سبعة عشر نوعا وهو اقصى ما يوجد فى هذا الصنف عيون البقر انتهت الى اربعة عشر نوعا. الاجاص (يعنى الكمثرى (97) انتهى الى ستة (98) وثلاثين ما بين رهط ونوع، التوت نوعان اسود وابيض، والابيض قليل ولا يوجد بسبتة ولا بنظرها الا بالرياض المتصل بمنزل الامير ابى طالب العزفى من داخل المدينة دون غيره، باكور التين وهو الباكور عند الناس، وانواع التين قد تقدمت القراسيا وهى حب الملوك انواعه ثلاثة وهو قليل ولا اعتناء لاهل سبتة بغرسه اذ عندهم ما هو اعظم فائدة منه ومما يجيء فى فصل الشتاء الاترج (99) وهو نوعان حلو وحامض والحلو كثير بهذه القرية وبغيرها والحامض غير موجود بسبتة (وليس يحوزها منه الا شيء يسير بارض مجكسة) (100) وفيه خاصية تحل الجوهر وتصيره كالمنى، ومن الحوامض الليم وفيه نوعان ويحمل بطنين. الليمون نوع مفرد، النارنج انواع. الزنبوع نوع واحد وكل ذلك كثير موجود بالقرية وسواها من القرى ذات الاودية والانهار وقصب السكر خاص بقرية متنان وفيه (101) انواع ثلاثة والموز كثير بداخل المدينة ولا يختص بفصل ومن المشموم الريحان

---

94) بنونة : وتسفر، وفى ليفى: وتسير
95) فى المنشور : القرية البنيونشية
96) ما بين القوسين ساقط من المخطوط
97) ما بين القوسين لا يوجد فى ليفى، وفى بنونة : ولعنى الكمثرى
98) فى المخطوط : انتهى الى ثلاثين
99) فى المخطوط : الترنج
100) ما بين القوسين لا يوجد فى المخطوط .
101) فى المخطوط : قرية بنيونش انواع

ثلاثة انواع مشرقي وصعتري وجبلي، الياسمين نوع واحد (102) مفرد، النسرين كذلك، (الخيرى خمسة انواع) (103) البهار نوعان، السوسان نوع واحد، الورد ثلاثة انواع (النوار القرنفلي نوعان، البنفسج نوعان. النعنع نوعان، الترنجان نوع واحد (104). المرددوش نوع واحد، زهر النارنج كذلك.

والقرية مرتفعة محجوبة من جانب الجنوب بجبال مفتوحة للبحر تهب عليها منه ريح الشمال قد وافقت قول الاطباء في طيب الهواء والماء والاعتدال

هذا وبالقطر قرى متعددة عظيمة الخصب جمة الفائد المشهور منها بالغلة الخريفية وان كان جميع ما تقدم ذكره من الاصناف والانواع موجودا فيه قرية ابي قورس (105) وقرية اويات، وقرية بني مصالة ووادي عين القشر، ووادي عليان، ووادي فراس (106)، وما اشبه ذلك من القرى الوادية والمشهورة بالغلة الصيفية المتناهية في الكثرة قريتنا البزبجية (107) وشبهها من قرى الساحل والارحى الطاحنة بهذه القرى للمدينة ثلاث واربعون رحى. منها بقرية اويات اثنان وعشرون (108)، وبقرية بني مصالة اثنا عشر، وبوادي عليان رحى واحدة، وبمرسى موسى القرية المشهورة بكثرة التين الطيب النادر في رقة القشر ولذاذ المطعم وتخير النوع سبعة ارحى على نهر هنالك (109).

ومن هناك اجتاز موسى بن نصير، وبوادي المقصرة من القرية البزبجية واحدة.

ولا يلق بالاختصار ان نطول بذكر المحارث والمزارع والمجاشر والعمائر المتصلة من هذه القرى الى اقصى الريف شرقا والى اقصى كتامة اول بلاد الهبط غربا.

وبها هناك من المواشي والسمن والعسل والشمع والفواكه اخضرها ويابسها وما يتخلل تلك الاماكن من الاودية والانهار وضروب الشجر وشعارى الارز والبلوط والطخشن والبقس وما اشبهه من مكارم الخشب وانواعه ومعادن الحديد والقار وسوى ذلك مما يعود نفعه على الثغر ويستعان به على

---

102) في المنشور : نوع مفرد

103) ما بين القوسين لا يوجد في المخطوط .

104) ما بين القوسين لا يوجد في المخطوط .

105) في المنشور : كورس

106) في المخطوط : وايسم

107) هكذا يرد هذا الاسم في المخطوط وفي نسخة بنونة، وفي ليفي يرد اسم القرية بالزاي : بزبج

108) في المنشور : اثنان وعشرون رحى

109) هنا ينتهي ما وجد في المخطوط، وفي نسخة بنونة ياتي بعد لذاذ الطعم : ومن هناك اجتاز موسى .. الخ في نسخة ليفي ياتي ذلك بعد : وتخير النوع

الانشاء وما يرجع الى الامور الجهادية وكل ذلك فى حوزه وراجع اليه وقل ان يوجد هذا مجتمعا فى قطر سواه .

فانظر ما كان عليه هذا الثغر الشامخ وما اصيب به المسلمون، فانا لله وانا اليه راجعون، وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون، والله اسأل ان يمن بارتجاعه ويعيده كما كان ويمكن من نحور اعدائه الذابل والسنان بمنه وفضله وكرمه وطوله انه منعم منان .

انتهى الغرض المقصود والحمد لله مقرب كل نازح ومنيل كل مرغوب ومسؤول (١١٠) (وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبى المصطفى الرسول (١١١) وعلى آله وصحابته ما اختلف الاشراق والافول.

وفرغ من جمعه ضحى يوم الاثنين غرة شهر ربيع الاول المبارك من عام خمسة وعشرين وثمانى مائة (١١٢) .

---

١١٠) بتونة رسول

١١١) ما بين القوسين ساقط فى نسخة بتونة

١١٢) فى نسخة بتونة هذه الزيادة : صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

محمد المنوني

معرض المخطوطات العربية بمكناس

18 ـ 1377/8/25 = 10 ـ 1958/3/16

اقيم بالمعهد الموسيقى بمكناس معرض للمخطوطات العربية الاثرية استمر من 10 حتى 16 مارس 1958 وعرض فيه ما ينيف على مائة مخطوط مختارة من الخزائن التابعة لوزارة التربية الوطنية ووزارة الاوقاف :

الخزانة الوطنية بالرباط ـ خزانة كلية القرويين العامة بفاس ـ خزانة كلية ابن يوسف بمراكش ـ خزانة الجامع الكبير بمكناس ـ خزانة الجامع الكبير بآسفى ـ خزانة الزاوية العلمية بمكناس، هذا زيادة على بعض الكتب والوثائق المقدمة من المكتبة الزيدانية بمكناس .

وقد كانت هذه المعروضات تتوج بمصاحف كريمة اثرية يوجد الى جانبها كتب قيمة ـ وبعضها نادر جدا ـ فى الحديث، والفقه، واللغة، وتاريخ المغرب والاندلس، والادب، والطب، كما كان يوجد بينها قطع من اناجيل لوقا، ومرقس، ويوحنا المكتوبة فى الرق والمحفوظة فى خزانة القرويين.

وضمن هذه المعروضات مخطوطات كتبها ـ فى الرق او الورق ـ اعلام كبار ومشاهير الخطاطين الذين زينوا منتسخاتهم بلوحات فنية رائعة

وخلال ايام هذا المعرض استطعت ان القى نظرات ـ ولو خاطفة ـ على بعض روائع المعرض ونوادره، وقد تناولت هذه النظرات خمسة عشر مخطوطا هى التى اقدمها فيما يلى :

1 ـ شذرات من مصحف موحدى

نسخها ـ عمر المرتضى آخر ملوك الموحدين ـ بخط غليظ مبسوط مكتوب بحبر يميل للسواد، ومشكول بلونين : احمر، ووردى، ويوجد عند رأس كل آية دوائر مزخرفة بالذهب، كما يشاهد بهامش كل صحيفة ترجمتان ذهبيتان صغيرتان، وخاتمة اجزائه ـ المعروض نموذجان منها ـ مكتوبة بالذهب المصور بالمداد، ومجدولة بالمداد المصور بالذهب، وحسب ما يفيد النموذجان المعروضان فان هذا المصحف مجزأ الى عشرة اجزاء فى كل جزء ستة احزاب وقد جاء فى آخر النموذج الاول ما يلى :

«كمل العشر] الاول من الكتاب العزيز بحمد الله تعالى ... نفع الله تعالى [بـه] وتقبلـه، [علـى] يدى عبد ا [لله تعالى] عمر امير المؤ[منين]

المومن بالله تعالى اجره الله... نار جهنم برحمته، وكمل فى الموفى [عشـ]رين لجمادى الثانية عام اربعة وخمسين وستمائة بحضرة مراكش امنها الله تعالى واهلها، والحمد لله وحده».

وهذا ما ختم به النموذج الثانـي :

«كمل العشر الثالث من الكتاب العزيـز.. جـل الله تعالى، وذلك يوم الاحد السادس لرجب الفرد الابر عام اربعة وخمسين وستمائة على يدى العبد المقر بذنبه، الراجي رحمة ربه، عبد الله تعالى اللائذ به، عمر امير المومنين، المومن بالله تعالى نفعه الله سبحانه واجاره.. النار وعـذاب القبـر برحمته وعزته، وصلى ا[لله على سيـ]دنا ومولانا محمد... وصحبه»

رقم هذه الشذرات 158 فى الفهرس العـام لمكتبـة ابن يوسف التى كانت تحتفظ بالمصحف الموحدى بتمامه الى عام 1149 .

وتتميما للحديث عن هذا المصحف اسجل انه يوجد جزءان منه بمتحف الاوداية بالربـاط رأيتهمـا معروضيـن هناك منذ ما يزيد على عشرة اعوام، وخلال عام 1374 = 1955 استطعت ان اتصل بأحد الجزءين : العشر الرابـع، وهو يبتدىء من اول حزب : «واعلموا انما غنمتم من شيء...» سورة الانفال ويقف على حزب : «وما ابرئ نفسي» سورة يوسف، وكتابتـه وزخرفتـه على نحو ما رأينا فى الشذرات المراكشية، وقد ذيل بالخاتمة التالية :

«كمل العشر الرابع من الكتاب العزيز بحمد الله العلى الاعلى ومعونته وذلك يوم الاحد الثالث عشر لرجـب المبرور عام اربعة وخمسين وستمائة بحضرة مراكش حرسها الله تعالى واهلها، وكتبه بخط يمينه الفانية عبد الله تعالى المقر بذنبه، الراجى رحمة ربه عمر امير المومنين المومن بالله عز وجل»

وعلى ظهر الورقة الاخيرة من هذا الجزء كتبت وثيقة تتخللها مواضيع كثيـرة لا تقـرأ ويستفـاد مـن الباقى من هـذه الوثيقـة ان الامـر يتعلق بتحبيس الربعة الموصوفة فى هذا العقـد والمشتملـة على اجـزاء المصحف العشرة : على جامع السقاية الذى بناه... بمراكش، وقد ذيلت الوثيقة بعدة امضاءات يقرأ منها اسماء عبد الواحد بن مخلوف بن موسى، وعلى بن محمد الرعيني، وعبد الله بن على بن عبد الله بن قطرال.

2 ـ مصحـف المكتبـة الزيدانيـة بمكنـاس

تبرز اهمية هذا المصحف فى الحجم الكبير الذى كتب فيه كل جزء من اجزائه الاثنى عشر، وفى الشكل الذى خط به، فقد كتـب بخـط عـريض وحروف بارزة مبسوطة بين كلمتين واربعة فى السطر، وان عرض خطه فى

اكثر الاجزاء ليبلغ نصف سنتيم، وذلك ابتداء من الجزء الخامس المبتدىء من حزب : «انما السبيل...» سورة الانفال حتى نهاية المصحف الذى يشتمل كل جزء من اجزائه الاثنى عشر على خمسة احزاب .

وفي نهايته توجد خاتمة طويلة يتخللها اسم المكتوب برسمه هذا المصحف ، وهو السفير المغربى الحاج ادريس بن الوزير الشهير محمد بن ادريس هو اسم كاتبه وهو محمد بن ابى القاسم القندوسى، واخيرا تاريخ الفراغ من الكتابة الذى هو يوم الجمعة آخر شوال عام ستة وستين ومائتين والف .

ولهذا الناسخ ترجمه فى «السلوة» ج. 3 ص. 40 ـ 41 وصفه فيها بأوصاف سنية، وذكر انتساخه لهذا المصحف وغيره، وهذا بعض ما جاء فى ترجمته :

«وكان له خط حسن جيد كتب به عدة من الدلائل، واخبرت انه كتب مصحفا فى اثنى عشر مجلدا قل ان يوجد نظيره فى الدنيا، وهو الذى كتب اسم الجلالة البديع الشكل والخط الكبير الجرم والقدر الذى بجامع الضريح الادريسى... توفى ـ رحمه الله ـ ضحوة يوم السبت ثانى عشر جمادى الاولى عام ثمانية وسبعين ومائتين والف...»

3 ـ نسخة من صحيح البخارى فى مجلد

هذه النسخة ـ التى تقع فى مجلد واحد فقط ـ مكتوبة بخط مغربى دقيق، فائق الجمال، ملون مذهب مجدول، وقد زين اولها بلوحتين فنيتين سطر فيهما فهرس ابواب الصحيح وسط زخرفة فائقة ملونة مذهبة ـ وقريب من هذه الزخرفة حلى بها الصحيفتان الاولى والآخرة من الكتاب، وجاء فى آخر هذه النسخة :

«كمل الجامع الصحيح لامام المحدثين، ورأس الجهابذة الحفاظ المتقنين، ابى عبد الله سيدى محمد بن اسماعيل البخارى رضى الله عنه وارضاه، على يد العبد الفقير، الى رحمة العلى الكبير : عبد العزيز بن محمد الحلو، حلاه الله بتقواه، وجعل الجنة مأواه، فى اربعة وعشرين جمادى الاولى عام سبعة ومائتين والف» .

عدد اوراق هذه النسخة 226 فى حجم كبير، ورقمها بالفهرس العام للمكتبة الوطنية بالرباط 1587. اما كاتبها فقد عثرت على ترجمته فى كناشة لولده عبد الرحمن الذى ذكر انه كان مولعا بنسخ كتب الحديث ودلائل الخيرات خصوصا البخارى الذى كتب منه عدة نسخ من بينها نسختان كتبهما بقلم واحد، احداهما فى خمسة اجزاء، والاخرى فى جزء

واحد «وهي المتحدث عنها»، مع اتقان وحسن خط واجادة صناعة التزويق والتسفير، ولد في عشري صفر الخير عام 1160 وتوفي عشية يوم السبت خامس شوال عام 1233 (1) .

4 – جزء من الموطأ

متوسط الحجم، اندلسي الخط، مكتوب بالمسواك على رق الغزال، وقد ثبت عنوانه على الورقة الاولى هكذا :

«الجزء السادس من كتاب الصلاة من موطأ مالك بن انس الاصبحي رواية يحيى بن يحيى الليثي مما كتبه – لخزانة امير المسلمين وناصر الدين، علي بن يوسف بن تاشفين، ادام الله تأييده ونصره : – يحيى بن محمد بن عباد اللخمي» .

«عدد اوراقه 24 وهو من تحبيس ابي عنان المريني على خزانة القرويين التي يحمل في فهرسها العام رقم : ل 40 – 605

5 – البيان والتحصيل لابن رشد

ان اول ما يلفت النظر في هذا المخطوط أنه كتب في مجلد واحد على ضخامته وتعدد اجزائه، وهو مكتوب كله على الرق بخط دقيق مليح، ومزين اوله بلوحتين مزخرفتين مذهبتين، وجاء في خاتمته ما نصه :

«تم الجزء التاسع من الجامع من كتاب البيان والتحصيل، والشرح والتوجيه والتعليل، وبتمامه تم جميع الديوان والحمد لله رب العالمين حق حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه وعبده، وكان الفراغ من نسخه يوم الاثنين السادس والعشرين لشهر رجب الفرد الذي من عام عشرين وسبعمائة، وعلى يد العبد المعترف بذنبه، الراجي عفو ربه، احمد ابن علي بن احمد الصنهاجي ه. والصلاة الكاملة على سيدنا ومولانا محمد خاتم

---

1) عائلة «الحلو» الوطاسيون : نبغ فيهم خطاطون مشاهير، منهم – زيادة على المذكور – محمد بن عبد السلام الحلو، رأيت بخطه نسخة من «الشفاء» للقاضي عياض في مجلد وخطها مليح، والصحيفة الثانية منها مع الكلمة الختامية : الكل مزخرف مذهب، فرغ من انتساخها ثامن ربيع الثاني عام 1148 ه. توجد هذه النسخة بالمكتبة الزيدانية بمكناس، وتحمل رقم 219 ج. ومنهم عبد السلام بن احمد الحلو المتوفي عام 1241 ه. كان كاتبا مع السلطان المولى سليمان، وكان له خط بارع ولا يزال اثر جودة الخط ظاهرا في متاخريهم مثل الحاج محمد بن عبد السلام الحلو التاجر الشهير، نسخ بخطه كتبا عديدة «بيوتات فاس» للمؤرخ البحاثة المؤلف ابي خليل عبد السلام ابن سودة المندي، وكانت وفاة الحاج محمد بن عبد السلام الحلو بعد زوال يوم السبت تاسع قعدة عام 1373 = 10 يوليوز 1954 حسب اخبار بعض الصحف الصادرة بالمغرب اذ ذاك

النبيئين وامـام المرسليـن، وعلـى آله واصحابه وازواجه وذريته الطيبين الطاهرين، وسلـم تسليمـا كثيـرا اثيـرا الى يـوم الدين، والحمد لله رب العالميـن »

وقد كتـب علـى هذه النسخة انهـا من وقف السلطـان ابى الحسن المرينى على مدرستـه السعيـدة بعـدوة الاندلس مـن فاس بتاريخ العشر الوسط مـن ربيع الاول عـام 728 هـ، ورقمهـا فـى الفهرس العام بخزانـة القروييـن ك 2 .

6 ـ دليـل الخيـرات للجـزولـى

نسخة خزائنية مكتوبة بخط مغربى مبسوط جميل على ورق اخضر، وبمداد ابيض، مزخرفـة بالحمرة فـى اولها وربعها ونصفها وثلاثة ارباعها ونهايتها، وهى مذيلة ببردة البوصيرى المكتوبة على شكل كتابة الدليـل وفى آخر هذا المنتسخ :

«كمل بحمد الله تعالى وحسن عونـه، انتسخ هذا الكتـاب المبـارك برسـم وصيف الدار العلية بـالله وحاجب ابوابها السعيدة، يا جوهر الكبير البرناوى، تقبل الله عمله، وبلغه فى الدارين سؤله واملـه، بتاريخ شهر رجب الفرد عام ستة وثلاين ومائة والف، على يد عبد الله تعلى : «شكـل عدلـى لا يقرأ» يوجد هذا المخطوط بالمكتبة الزيدانية بمكناس .

وان هذا المخطوط هو آخر المعروضات التـى امكننـى ـ خلال ايـام المعرض ـ ان لـم بوصفهـا، وهناك مخطوطات استطعت ان التقط ما عليها او فيها من كتابات مفيدة (1) من غير ان تمكن من وصفها وهى التى استعرضها فيمـا يلـى :

7 ـ الاول من كتاب المختار الجامع بين المنتقى والاستذكـار

يوجد على الصحيفة الاولى منه اسفل عنوان الكتاب : الفقرات التالية فى التعريف بمؤلف الكتاب :

«يقول كاتب اصله : سالـت شيخى الفقيه الاجـل، قاضـى الجماعة الاعدل، العالم العلم الفذ، القدوة المقدم أبا عبد الله محمد بن الشيخ الاجـل الفقيه الصالح المقدس المرحـوم ابـى عبد الله محمد بن عبد الملك الانصارى بداره من مدينة اغمات وريكة فى سابع ذى قعدة من عـام اثنين وسبعمائـة عن اسم مؤلف هذا الكتاب المسمى بالمختار، الجامع بين المنتقى والاستذكار،

(1) هذا النوع من الكتابات مهم جدا، وقد خصـه بالتصنيف جمال الدين ابو الحسن على ابن يـوسف القفطى فى تاليف سماه : «نهزة الخاطـر ونـزهة الناظر» فى احسـن ما نقـل من ظهـور الكتب نسبه له ياقوت فى «معجم الادباء» ج 15 ص 187.

فقال لي : هو محمد بن عبد الحق بن سليمن اليفرني وقيل البطوئي، ندرومي الدار، سكن تلمسان واستقضى بها مرتين، مدة(1) سنة ست او سبع وثلاثين وخمسمائة، وتوفي - رحمه الله - سنة خمس وعشرين وستمائة، وكان فقيها فاضلا...»

وهذا المخطوط من محفوظات خزانة القرويين رقم : ل 40 - 174

8 - الجامع الصحيح الاسانيد المستخرج من ستة مسانيد

تاليف السلطان العلوى سيدى محمد بن عبد الله، المعروض منه الجزء الثانى الوحيد بخزانة القرويين تحت رقم ل 40 - 747، كتب على اول صحيفة منه تحبيسه على الخزانة العلمية الجديدة بجامع الرصف حيث حازه قيم الخزانة الشريف الفقيه العدل مولاى الطيب بن الفقيه مولاى عبد السلام القادرى الحسنى، وتاريخ التحبيس ثامن عشر محرم عام خمسة وخمسين ومائتين والف .

9 - طبق الارطاب، فيما اقتطفناه من مساند الائمة وكتب مشاهير ائمة المالكية والامام الحطاب

وهو تاليف آخر للسلطان سيدى محمد بن عبد الله، وقد كتب على ظهره تحبيسه على خزانة مسجد الرصيف الجديدة البناء ، رقمه فى خزانة القرويين ل 40 - 746

10 - مسند عبد بن حميد الكشى

من نوادر خزانة القرويين، ومن سوء الحظ ان يكون مبتور الاول والآخر، حبسه على هذه الخزانة الوزير ابو الحسن على بن ابى الحجاج يوسف بن زيان الوطاسى فى عاشر ربيع الثانى عام 855 ، رقمه فى خزانة القرويين ل 80 - 159

11 - اصل ابن خير من صحيح مسلم

عرف بقيمة هذه النسخة فى المرآة ص 50 وفهرس الفهارس ج 1 ص 286 - 287 ، ويهم هنا ان اسجل خلاصة وثيقتين مكتوبتين على ظهر هذه النسخة: مضمن الاولى انه بحسب النيابة عن الخليفة الفقيه العالم

---

1) لعل اصل التعبير مولده، على ان الذى فى ترجمته من التكملة رقم 2137 : انه لما توفى كان قد نيف على الثمانين، وقد ذكر عن كتابه هذا انه يقع فى عشرين سفرا فى نحو ثلاثة آلاف ورقة .

مولاى [على] بن السلطان سيدى محمد بن عبد الله الحسنى اشترى سيدى محمد بن الفقيه المرحوم سيدى مومن اليحمدى مـن البائع له المكـرم السيد بوسلهام بن على الملوانى من اولاد سيدى بو يعقوب... جميع هذه النسخة بثمن قدره تسعون اوقية دراهم قديمة .

واثر هذا وثيقة بتحبيس المولى علي المذكور هذه النسخة على خزانة القرويين بتاريخ ... جمدى الاولى عام احد وثمانين ومائة والف .

رقم هذه النسخة ل 40 ـ 148

12 ـ كتـاب التهذيـب لمسائـل المدونة للبرادعى

من تحبيس السلطان زيدان السعدى على خزانتهم الجديدة بالقرويين، ويحفظ الآن بها تحت رقم ل 40 ـ 320 .

13 ـ نسخـة عتيقـة مـن مقامـات الحـريـرى

مكتوبة بخط مهذب بن الحسن بن بركات المهلبى بتاريخ 8 ربيع الاول سنة 574، وهى من محتويات المكتبة الوطنية بالرباط رقم 983 .

14 ـ التـاريـخ الكبيـر لابـن عسـاكـر

المعروض منه الجـزء السادس المكتـوب بخط شرقى، وتذكر ورقـة التعريف بهذا الكتاب أنـه يوجد منـه بمكتبة ابن يوسف بمراكش الاجزاء الـتـاليـة : 1. 2. 3. 4. 5. 6. 8. 9. 10. 12. 13. 14. 15. 16. 17. 18. 19. 21. 22. 23. 28. 29. 30. 31.

رقمه فى الفهرس العام لهذه المكتبة 28

15 ـ مـوالاة السلطـان المولـى اسماعيل بين ولديه

وهى عبارة عن لوحة من معلقات المكتبة الزيدانية بمكناس كتب فيها عقد موالاة بين الاميرين المولى احمد والمولى زيدان ابنى السلطـان المولى اسماعيل بتاريخ منتصف رمضان عام 1137، وشهود الموالاة هم :

الشريف بن احمد بن محمد بن عمـر الحسنـى ـ احمد بـن سعيـد العميرى ـ محمد بن زكرى ـ ابو القاسم بن سعيد العميرى ـ على بن سعيد العميرى ـ محمد بن الشرقى ـ احمد بـن عبـد السلام الرهونـى ـ اربعة اشكال ـ الطاهر بن القاسم الحسنى ـ شكلان ـ محمد بن ابراهيم... بـن ابى بكر الصوصى الحسنـى ـ ثلاثـة اشكـال ـ ثلاثـة اشكال ـ عبد الله الشرقى ـ أداء القاضى .

16 ـ 101 ـ بقية المخطوطات المعروضة

الآن ـ وقد القت هذه العجالة نظرات على 15 مخطوطا من مخطوطات معرض مكناس ـ يكون من المفيد ان اقفي على ذلك بسرد اسماء بقية المخطوطات المعروضة نقلا عن نشرة المكتبة الوطنية بالرباط .

مخطوطات الرباط

16 ـ اعتاب الكتاب وتشفيع الآداب لابن الابار

17 ـ نبذة العصر، في اخبار ملوك بني نصر لابن الخطيب السلماني

18 ـ المقصد الشريف، والمنزع اللطيف، في ذكر صلحاء الريف، لابن الخضر البادسي .

19 ـ كتاب السحر والشعر لابن الخطيب السلماني .

20 ـ الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالاندلس من شعراء المائة الثامنة لابن الخطيب السلماني .

21 ـ مجموع نادر يحتوى على طائفة مختارة من القصائد والرسائل العلمية والادبية

22 ـ مجموع يحتوى على طائفة من المختارات الادبية والعلمية.

23 ـ الروضة الغناء في اصول الغنا، مجهول المؤلف.

24 ـ البدور الضاوية، في التعريف بالسادات اهل الزاوية الدلائية لابي الربيع سليمان الحوات .

25 ـ التنبيه في آداب ابيات الحماسة المشكلة الاعراب لابن جني

26 ـ النهاية والتمام، في معرفة الوثائق والاحكام لابي الحسن على المتيطي :

27 ـ الارتفاق بمسائل من الاستحقاق لابن رحال المعداني

28 ـ جامع اسرار الطب لابن زهر الاشبيلي

29 ـ المعزى في مناقب ابي يعزى لاحمد الهروى التادلي

30 ـ تحفة العروس ونزهة النفوس لمحمد التيجاني

31 ـ منتهى النقول ومشتهى العقول لابي الحسن السملالي.

32 ـ كامل الصناعة الطبية المعروف بالملكي لابي الحسن المجوسي.

33 ـ مسند ابن ابي شيبة، الجزء الثاني فقط .

34 ـ كتاب الوصول لحفظ الصحة في الفصول لابن الخطيب السلماني

35 ـ الترجمانة الكبرى التي جمعت اخبار العالم برا وبحرا لابي القاسم الزياني.

36 ـ معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار لابن الخطيب السلمانى

37 ـ رى الاوام، ومرعى السوام، فى نكت الخواص والعوام، لابى يحيى الزجالى .

38 ـ سفينة الصالحى الكبرى تاليف محمد الصالحى الهلالى الدمشقى

38 ـ رحلة ابى عبد الله العبدرى

40 ـ مفاخر البربر مؤلفه غير مذكور.

41 ـ لمح الشحر من روح الشعر وروح السحر لابى عثمان سعيد التجيبى (1)

42 ـ تقويم الادوية، فيما اشتهر من الاعشاب والعقاقير والاغذية لابراهيم العلائبى .

43 ـ المنتقى المقصور، على مآثر الخليفة المنصور لابن القاضى

44 ـ شرح المقامات الحريرية لابى جعفر الجذامى

45 ـ الروضة السليمانية، فى ملوك الدولة الاسماعيلية، ومن تقدمها من الدول الاسلامية، لابى القاسم الزيانى.

46 ـ خمسة احزاب من القرآن الكريم اولها «كهيعص» .

47 ـ صحيح البخارى نسخة ابن سعادة المعروفة بالشيخة ـ الجزء الخامس .

48 ـ الروض المكنون فى شرح رجز ابن عزرون لابى القاسم الوزير الغسانى .

49 ـ شرح قلائد العقيان فى محاسن الاعيان للفتح ابن خاقان : لابى عبد الله ابن زاكور الفاسى.

50 ـ الفوائد الجمة، فى اسناد علوم الامة لابى زيد عبد الرحمان التمنارتى .

51 ـ التشوف الى رجال التصوف لابى الحجاج يوسف ابن الزيات

52 ـ البستان الظريف فى اخبار دولة اولاد مولاى على الشريف، لابى القاسم الزيانى .

53 ـ الدر المنضد الفاخر فيما لابناء مولانا على الشريف من المحاسن والمفاخر، لابى عبد الله محمد بن عبد القادر الكردودى.

---

1) هو المعروف بابن ليون، وتاليفه هذا ذكر فى اوله انه استخلصه من كتاب روح الشعر لابى عبد الله محمد ابن احمد بن محمد الجلاب الفهرى الشهيد المحدث الاديب الحافظ المجتهد، الحسن الخط والضبط والتاليف قال ابن ليون : وهو اندلسى خرج عن مشيخة الاندلسيين اربعين حديثا فرغ من جمعها بمترقة فى ذى القعدة سنة 655، ثم قال : وذكره الفقيه ابو القاسم عبد الرحمن بن ابى طالب العزفى فى كتابه المسمى : بذكر الفئة المرتسمة فى شعراء المائة المنصرمة» الذى عارض به تحفة القادم للفقيه ابى عبد الله بن الابار القضاعى

54 ــ طرد السبع في سرد السبع لخليل بن ايبك الصفدي

55 ــ حديقة الازهار في شرح ماهية العشب والعقار لابي القاسم الــوزيــر الغسانــي .

56 ــ بغية السالك في اشراف المسالك لابراهيم الساحلي .

57 ــ تاريخ الضعيف لمحمد بن عبد السلام الضعيف .

58 ــ السير والمغازي لمحمد بن اسحاق المطلبي .

59 ــ الغنية للقاضي عياض.

60 ــ تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلــى الله عليه وسلم مــن الحــرف والصنائع والعمالات الشرعية لابي الحسن على الــخــزاعــى .

مخطوطات خزانــة كلية القرويين العامــة بفــاس

61 ــ تنبيه الانام، في بيان علو مقام نبينا محمد عليه افضــل الصلاة والسلام لابن عظوم المرادي .

62 ــ القرآن العظيم : **مصحف جيد جدا** (1) من تحبيس احمد المنصور الذهبي على خزانة القرويين .

63 ــ اخلاق نيقوماخيا تاليف ارسطــو

64 ــ صحيح مسلم بخط العلامة سيدي عبد القادر الفاسي وهو في ستــة اجــزاء .

65 ــ المهد الكبير : في شرح موطــأ الامــام مالــك لابــى الزهــراء الــورياغلــى (2) .

66 ــ كتاب الزهد والرقائق لابي عبد الرحمن عبد الله بن مبارك.

---

1) كتب عام 976 هـ.

2) المعروض السفــر الخمسون، وهو مع السفر 41: الموجودان بخزانة القرويين مع أوراق منه غير مرتبة، ويوجد منه بمكتبة الجامع الكبير بمكناس ورقة واحدة مكتوبة من وجه واحد وقد كتب عليها ما يلي :

«السفــر السادس عشر مــن كتاب «المهد الكبيــر» الجــامع لمعانــي السنن والاحكام، وما تضمنــه موطــا مالــك من الفقه والاثــار، وذكر الــرواة البــررة الاخيار، وكل ذلك على سبيل الايجــاز والاختصــار» تاليف عمر بن على بــن يوسف بــن يحيــى بن هاد العثماني ثم من بن عمران رحمهم الله والحمد لله رب العالمين.

وهــذا الديــوان هو احدى وخمســون سفرا صنفــه عمــر بن علــى في خمس ستين وسبعة اشهر والحمد لله رب العالمين.

وفي هذا الديوان من الاجزاء، ثلاث مائة جزء عــن اربعــة اجزاء، منها فــي هذا السفر سبعة اجــزاء، والحمد لله

هذا نــص الموجود على تلك الورقة، ولا يبعد ان يكون مكتوبا بخط المؤلف

67 ـ المدونة الكبرى للامام مالك بن انس

68 ـ كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر، وهو من تحبيس مؤلفه ابن خلدون على خزانة كلية القرويين (1).

69 ـ كتاب المحكم والمحيط الاعظم، لابن سيده

70 ـ كتاب الفصوص (2) لابى العلاء صاعد الموصلى.

71 ـ كتاب الموطأ للامام مالك بن انس .

72 ـ الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، لابى عبد الله محمد ابن عبد الملك المراكشى.

73 ـ كتاب التاج لابى عثمان الجاحظ .

74 ـ شذرات من كتاب فى علم التنجيم والفلك مؤلفه غير مذكور .

75 ـ شذرات مهمة من انجيل لوقا، وانجيل يوحنا، وانجيل مرقس.

76 ـ الواضحة فى السنن والفقه لعبد الملك بن حبيب السلمى.

77 ـ مختصر ابى مصعب احمد بن ابى بكر الزهرى.

78 ـ المختصر فى الفقه لعبد الله بن عبد الحكم .

79 ـ مختصر ابى مصعب احمد بن ابى بكر الزهرى.

مخطوطات خزانة الجامع الكبير بمكناس

80 ـ زوائد مسند الامام احمد بن حنبل.

81 ـ اللباب فى علوم الكتاب، للامام ابن عادل الحنبلى .

82 ـ الفتح القريب، فى سيرة الحبيب للامام فتح الدين ابن الشهيد.

83 ـ الجامع الكبير لجلال الدين السيوطى .

84 ـ فضل الجهاد لابى العباس احمد بن ابراهيم الدمشقى.

85 ـ مشكلات الصحيحين لابى الفرج عبد الرحمان ابن الجوزى.

86 ـ المورد الاحلى، فى اختصار المحلى مجهول المؤلف (3)

87 ـ كتاب البدائع والاسرار، فى حقيقة الرد والانتصار، وغوامض ما اجتمعت عليه الرماة بالامصار، لابى بكر محمد بن عبد الله بن اصبغ الهروى.

88 ـ كتاب الاشراف على معرفة الاطراف (4) لابى القاسم على ابن عساكر الدمشقى .

---

1) الموجود منه بهذه الخزانة ثلاثة اجزاء

2) يعود تاريخ نسخ هذا الكتاب لعام 969هـ. على يد عبد الله بن عمر بن عثمان بن عبد الواحد بن عمر ابن داود التدلى، كتبه للمولى محمد بن المنصور المؤيد مولاى عبد الله بن محمد بن محمد، وهو من تحبيس المنصور السعدى على خزانة القرويين

3) الموجود منه المجلد الاول

4) الموجود منه ثلاث مجلدات

89 – اسماء الرواة تاليف الوزير الغساني (1)

90 – المفهم في شرح تلخيص كتاب مسلم لابي عبد الله محمد الانصاري القرطبي .

91 – مختصر كتاب العين المنسوب للخليل بن احمد الفراهيدي، لابي بكر محمد بن مذحج الزبيدي .

92 – الموضوعات من الاحاديث المرفوعات لابي الفرج عبد الرحمان ابن الجوزي .

93 – المحكم والمحيط الاعظم في اللغة لابي الحسن علي بن اسماعيل ابن سيده النحوي .

94 – شرح الاحكام الصغرى لابي محمد عبد الحق الازدي المعروف بابن الخراط .

مخطوطات خزانة الجامع الكبير باسفي

95 – كتاب مفاخر الاسلام، وانتشار امر النبي عليه السلام، تاليف الامام ابي الحسن علي بن مخلوف.

مخطوطات خزانة كلية ابن يوسف بمراكش

96 – رد العقول الطائشة، فيما اختصت به خديجة وعائشة للشيخ عبد القادر المازني الشهير بالمؤذن المالكي .

97 – ثلاثة احزاب من القرآن الكريم من «فنبذناه» الى «ويا قوم».

98 – مصحف عتيق.

99 – الدلالات السمعية في العمالات الشرعية للحافظ ابن مسعود

100 – عدة احزاب من مصحف كريم على رق الغزال

101 – نسخة من صحيح البخاري في خمسة اجزاء مكتوبة بتاريخ 8 ربيع النبوي عام 1344 وهي من احباس الزاوية العلمية بمكناس، وغير مدرجة بنشرة المكتبة الوطنية عن مخطوطات المعرض .

---

1) ليس للوزير الغساني، ومؤلفه هو ابو علي حسين بن محمد بن احمد الغساني المعروف بالجياني، ترجمه تلميذه القاضي عياض في «الغنية» وذكر انه الف كتابه على الصحيحين المسمى : «تقييد المهمل، وتمييز المشكل» وهو هذا، وهو مبتور الاول في هذه النسخة المكتوبة بخط شرقي بتاريخ 26 رمضان عام 824 هـ.

ماريانو ارياس بـالاو

رسائل عربية حـول المغـرب فـى عهد مـولاى اليزيد

(1204 ــ 1206 هـ. = 1790 ــ 1792 م)

(موجز الاطروحة المقدمة الى جامعـة برشلونة يوم 7 اكتوبـر 1959 لنيل الدكتوراه والتـى فـازت برتبة الامتيـاز)

مـدخـل

اذا كنا نعرف العلاقات التى قامت بين «كارلوس الثالث» ملك اسبانيا والسلطان مولاى محمد بن عبد الله معرفة جيدة (1) فان العلاقات التى كانت بين «كارلوس الـرابع» ومولاى اليزيد لم تكن موضوع دراسة مستوفية (2) .

وقد رغبت فى دراسة السنتين (ابريل 1790 ــ فبراير 1792) دراسة عميقة حيث كان السلطان مولاى اليزيد يحكم المغرب فبحثت الوثائق التى لها علاقة بتلك الفترة والمحفوظة فى «قسم الدولة» بالارشيف التاريخى الوطنى

---

1) قـام السيـد « فيثينطى رودريغيث كاسـادو » بدراسـة هـذه العلاقـات فى مؤلفه «السياسـة المغربيـة لكارلوس الرابع» الصـادر بمدريـد سنـة 1946 ــ وتجـب مراجعـة كتاب «مانويـل كونـروطى» المعنون «اسبانيا والاقطار الاسلامية اثناء وزارة فلوريدا بلانكا» الذى صدر بمدريد سنة 1909 .

2) يظهر ان عهد السلطان مولاى اليزيد لم يكـن موضوع دراسة وصفية خاصة. فنحـن نعرف عن هذا العهد ما ورد فى التواريخ العامة ككتـاب «الترجمـان» لصاحبه الزيانى فى طبعته المختصـرة المترجمـة مـن طـرف «او. هوداس» بعنوان «المغـرب بيـن سنتـى 1631 و 1812» الصـادرة بباريس سنة 1886 فى الصفحة 86 والصفحـات التـى تليها فى النص العربى وفى الصفحة 157 والصفحات التى تليها من الترجمة. وككتـاب «الاستقصـاء» لصاحبه احمد بـن خالد الناصـرى السلاوى فى الجزء الثامن من طبعة الدار البيضاء سنة 1956 (الطبعة التى قام عليها ولدا المؤلف السيـد جعفـر والسيـد محمد) فى الصفحـة 72 والصفحـات التـى تليهـا والتـى ترجمها السيد «فومي» فى «السجلات المغربية» الجزء التاسع من طبعة باريس سنة 1906 فـى الصفحات 364 التى تليها .

اما السيـد «رودريغيث كاسادو» فى كتابه «السياسة المغربية ..» السالف الذكر فقد افرد فصلا قصيرا لمولاى اليزيد فى الصفحات 376 ــ 381. كمـا اهتـم السيـد «كونروطى» بعلاقات اسبانيـا بمـولاى اليزيد فـى كتابـه «اسبانيا والاقطار الاسلاميـة..» فيما بيـن الصفحتيـن 273 ــ 290

غير انه توجد دراسة حول السنوات التـى قضاها مـولاى اليزيد فى المنفى قبل أن يولى عـرش المغـرب. وصاحـب الكتـاب هو السيد «هنـرى باسيـه» وعنوانـه «سنوات نفى مولاى اليـزيـد» (1784 ــ 1789) المنشور فى «نشرة التعليـم الابتـدائـى بالمغـرب» سنة 1923 فى الصفحات 339 ــ 349 . وقد تمكنت من الوقوف على هـذا المقال القيم بفضل مسيو «لويس دى جاكومو» الذى اعبر له عن شكرى لتلطفه وتقديمه الى صورة مصغرة على الشريط من ذلك المقال .

بمدريد (3) فعثرت على مادة وخيرة من بينها عدة رسائل عربية لها من الاهمية ما يستوجب دراسة خاصة. اما عدد الرسائل التى جمعتها فاربع وثلاثون كلها اصلية. اما الرسائل الاخيرة الموضوعة بين رقم 21 والنهاية فقد كتبت بعد وفاة مولاى اليزيد. غير انها تتعلق به.

اما قراءة النص العربى لهذه الرسائل ففيها بعض الصعوبة. فجميع النصوص قد استعمل فيها الخط المغربى. ثم ان شكل الحروف غير منتظم فبعض النصوص نجدها فقيرة فيما يتعلق بالشكل الذى يكثر فى بعض النصوص الاخرى بصفة منفردة. اما النص فمكتوب بكيفية عادية تماما ولا اثر فيها لعناية خاصة بالاسلوب. ونحن نعثر فى بعض الاحيان على فقرات مسجوعة. كما نعثر فى بعض الرسائل على كلمات تقطع عند نهاية السطر وتنهى فى السطر الذى يليه. ويلاحظ ايضا ان بعض الكلمات قد كتبت بكيفية غير صائبة .

والظاهرة البارزة فى هذه الرسائل هى الحاق اسماء واعلام مقتبسة من لغات اوربية ومن الاسبانية بصورة تكاد تكون تامة بتلك النصوص العربية. اما الكلمات الاوربية المستعملة منقولة الى العربية فهى التالية :

انضواكة، انطونيوا، اراندة، برض، قالص، كارلوس، قرطجنة، قشتالة، قمانضت، كندى، قونصوا، كرون، كورطى، د، طزازن، دمينك، دون، باشدور، البلادور، اسكريال، اصبانية، اصبنيول، اسلنطسم، فلريدة بلانكة، فرتونة، فركاطة، فرشيشك، فرينسية، جنويز، كمس، كنجالس، كيرة، انجليز، خواكن، يوسف، لاص، ليون، مادريد، منويل، منضوصة، اوكانية، بثك، بصبرط، بطرون، فريشك، راى، الزدركس، صاكة، سلمون، سنيور، مليون، وجبل الطر .

التحليل الدبلوماسى

اما الرسائل الاربع والثلاثون التى جمعتها فقد صدرت ثلاث عشرة منها عن السلاطين او المطالبين بالعرش واحدى عشرة رسالة عن السفراء وسبع رسائل عن العمال والثلاث الباقية عن اشخاص تختلف حيثياتهم .

اما العناصر الدبلوماسية التى تتكون منها هذه الرسائل فهى التالية ديباجة الاستهلال التى تتالف من الدعاء والعنوان والتحية، ثم النص فالديباجة الاخيرة التى تتكون من ذكر المكان والتاريخ والامضاء والخاتم. وقد حدث فى بعض المناسبات اثبات ملحق عقب التاريخ باعتباره عنصرا نهائيا

(3) ان الملفات التى توجد فى «قسم الدولة» والتى تتضمن القسم الهام الوفير من المراسلة خلال هذه السنوات هى بارقام 4322 الى 4329 و 5818 وهذا الاخير يشمل كل ما يتعلق بسفارة السيد محمد بن عثمان. غير انى راجعت الملفات الاخرى ايضا بقسم الدولة والتى تتضمن الوثائق المتعلقة بالمغرب .

دراسة تاريخية

شارك مولاى اليزيد ايام شبابه فى عدة ثورات مشاركة جعلت والده السلطان مولاى محمد بن عبد الله يوفده الى مكة بقصد الحج فى مواسم متتابعة متفاديا بذلك رجوعه الى المغرب، ومع ذلك فقد كان سعى مولاى اليزيد سعيا سيئا اضطر اباه الى اقصائه واصدار اللعنة عليه (4). غير انه عاد فى النهاية الى المغرب بعد ان التحق بقافلة الحجاج من اقليم تافيلالت وانفصل عنها ليلتجىء بضريح مولاى عبد السلام بن مشيش بجبل العلم. وقد ارسل مولاى محمد بن عبد الله قوات مسلحة فحاصرت مولاى اليزيد فى المكان الذى التجأ اليه واقام فيه حتى توفى والده (5).

وقد توفى السلطان مولاى محمد بن عبد الله يوم حادى عشر ابريل 1790 فبويع مولاى اليزيد فى الحين خليفة له (6).

وقوبلت بيعة السلطان الجديد فى كافة اطراف المغرب دون ان تلقى اية معارضة. وقد اقتبل قناصل الدولة الاوربية المعتمدين بطنجة فى مكان قريب من مدينة تطوان فحضر المقابلة باسم اسبانيا السنيور «انطونيو كونثاليث سالمون» خليفة قنصلها.

اما المقابلة فقد جرت يوم 20 ابريل حيث نطق مولاى اليزيد بكلام جاف مفصحا بأنه يعتبر نفسه فى حالة حرب مع كافة الدول باستثناء انجلترا و «راغوسا». وفى نفس هذه المقابلة مع القناصل اجل مولاى اليزيد اجل اربعة شهور لاعادة ما قد يتعين ارجاعه بين المتخاصمين.

4) يمكننا الوقوف على النشاط والاعمال التى قام بها مولاى اليزيد قبل ارتقائه عرش المغرب فى الكتاب المذكور للناصرى السلاوى فى الصفحات 26 و 39 و 45 و 46 و 51 و 57 و 58 و 73 و 74 و 75 من الجزء الثامن وفى الصفحات 302 و 319 و 327 و 329 و 336 و 343 و 344 و 365 – 369 من ترجمة «فومى». كما نعثر عليها فى الصفحات 80 – 81 و 83 و 84 من النص العربى لكتاب الزيانى المذكور، وفى الصفحات 146 – 148 و 153 – 155 من ترجمته وكذلك فى الصفحات 339 – 344 و 346 – 348 من المقال المذكور لصاحبه «باسيه» وفى الصفحات 303 – 305 من الجزء الثانى من كتاب «تاريخ المغرب» لصاحبه هنرى تيراس المطبوع بالدار البيضاء سنة 1949 – 1950

وقد قام صديقى عبد الرحيم جبور بنشر النص العربى الاصلى للعنة مولاى محمد مع ترجمته ودراسة حوله فى الصفحة 134 والصفحات التى تليها من الجزء الثانى من مجلة «تمودة» الصادر سنة 1954

5) انظر الصفحتين 64 – 65 من الجزء الثامن من كتاب الناصرى السلاوى المذكور والصفحات 351 – 353 من ترجمة السيد «فومى» – وكذلك المقال المذكور للسيد باسيه فى الصفحة 349 والصفحة 305 من الجزء الثانى من كتاب هنرى تيراس السالف الذكر ايضا.

6) انظر الصفحتين 65 و 76 من الجزء الثامن من كتاب الناصرى السلاوى والصفحتين 353 و 369 من ترجمة السيد «فومى» وكذلك الصفحة رقم 86 من النص العربى لكتاب الزيانى والصفحتين 157 – 158 من ترجمته.

وقابل السلطان الجديد خليفة قنصل اسبانيا مقابلة خاصة فوعد المندوب الاسباني بأنه سيحافظ على السلم وطلب منه ان تبعث اسبانيا سفيرا لها الى المغرب ليصادق على المعاهدات لانه يعتزم مساعدة الاسبانيين وايثارهم بالمنافع اكثر مما فعل ابوه .

وبعث حاكم سبتة ثلاثة ضباط لتحية مولاى اليزيد والسلام عليه اثناء مقامه بتطوان فاقتبلهم السلطان واخبرهم بأنه يؤجل اسبانيا اجلا مدته اربعة شهور سيعتبر نفسه فى حالة حرب معها بعد انصرام ذلك الاجل .

وسعى هؤلاء الضباط الثلاثة الى جانب القيام بالمهمة المسندة اليهم فى الحصول من مولاى اليزيد على كتاب توصية يوجهه الى كارلوس الرابع. وفعلا قدم اليهم السلطان كتاب التوصية، غير انه لم يرد فى ذلك الكتاب الا اسم منضوصة اى الترجمان «خوان بارثيلار منضوصة»، وقد جعلت رقم 1 على هذه الرسالة بين الرسائل التى جمعتها (7) .

ووصل مولاى اليزيد يوم 25 ابريل الى طنجة فاقتبل فى اليوم التالى المندوبين الاوربيين وامارات السرور بادية عليه فعبر لهم عن رغبته فى الاستمرار مسالما لجميع الدول كما فعل والده، وفى اليوم الثامن والعشرين قابل السلطان «انطونيو گونثالث سالمون» مقابلة اخرى عبر فيها مولاى اليزيد عن نيته فى الاحتفاظ بالعلاقات الطيبة مع اسبانيا ووعد بكتابة خطاب الى كارلوس الرابع يخبره فيه بوفاة مولاى محمد بن عبد الله واعتلائه عرش المغرب ويطلب منه فيه ايفاد سفير للتصديق على الاوفاق المتفق فى شانها مع والده .

وكتب مولاى اليزيد كتابه الموعود يوم فاتح ماى وبعثه الى نائب قنصل اسبانيا بطنجة الذى ارسله فى اليوم التالى الى «الكوندى ذى فلوريدا بلانكا»

وتوجد هذه الرسالة مثبوتة تحت رقم 2 ضمن هذه المجموعة. وهى تشمل الآراء التى ابان عنها السلطان وترخيصه للاسبانيين بتصدير الخمور عبر موانىء العرائش وطنجة وتطوان (8) .

7) وصف السيد ويليام لامبريير استقبال القناصل بتطوان فى كتابه «رحلة فى ايالة المغرب ومملكة فاس سنتى 1790 و 1791» فى الصفحة رقم 372 من ترجمة السيد سانت سوزان الصادرة بباريس سنة 1801ـ وقد اخبر انطونيو غونثالث سالمون الكوندى دى فلوريدا بلانكا بهذا الاستقبال فى الرسالة رقم 31 المؤرخة بخامس وعشرى ابريل (الملف رقم 4322 بالارشيف الوطنى التاريخى للدولة) اما ضباط سبتة فقد حرروا تقريرا حول كيفية نهوضهم بالمهمة المسندة اليهم. وقد بعث هذا التقرير الى حاكم سبتة العام وهو محفوظ فى الملف رقم 5827 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة .

8) رسالة انطونيو غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 33 وتاريخ 2 ماى 1790 (الملف رقم 4322 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة) .

وبعد ايام معدودة انتهت الى ايدى السنيور «انطونيو كونثالث سالمون» قائمة مفصلة ببعض الحوادث التى جرت بالدار البيضاء عند ما علم خبر وفاة مولاى محمد بن عبد الله. اما الفتن فقد صدرت عن القبائل المجاورة للمدينة وهجومها عليها. وقد ساهمت الشركة التجارية الاسبانية المستقرة بها مساهمة قيمة فى الدفاع عن المدينة (9) .

وبسرعة علم مولاى اليزيد بهذه الحوادث فعاقب القبائل التى هاجمت مدينة الدار البيضاء عقابا شديدا. ورغب السلطان فى الاعراب عن شكره للاسبانيين على مشاركتهم فى الدفاع عن المدينة فوجه كتابا الى نائب قنصل اسبانيا بالدار البيضاء وكتابا آخر الى زميله بطنجة، وقد جعلت الرسالتين تحت رقم 3 و 5 على التتالى ضمن المجموعة .

وبعد مدة قصيرة بعث مولاى اليزيد الى نائب قنصل اسبانيا بطنجة نمرا واسدا هدية منه الى ملك اسبانيا. وقد سيق النمر والاسد من مكناس الى طنجة يخفرهما ثلاثة قواد وثلاثون جنديا فارسا فدفعا الى «انطونيو كونثالث سالمون» مع كتاب للسلطان اثبت ضمن المجموعة تحت رقم 6 (10)

ووجه عامل طنجة عبد المالك بن محمد كتابا الى نائب قنصل اسبانيا بها. وقد وضع هذا الكتاب تحت رقم 7 ضمن المجموعة. ويقول العامل فيه ان مولاى اليزيد راغب فى الاحتفاظ بالصداقة الطيبة بين المغرب واسبانيا وفى العمل على مضاعفتها وانه يريد لهذه الغاية ان يوفد قنصل اسبانيا بطنجة «خوان كونثالث سالمون» بدرجة سفير الى المغرب. وبعث نائب القنصل هذه الرسالة الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا فى الايام الاولى من شهر يونيه منبها الى انه يكفى ايفاد ضابطين او ثلاثة ضباط من الجيش ليضفى المظهر الخارجى للسفير على اخيه «خوان كونثالث سالمون» (11) .

وبعث عبد المالك بن محمد كتابا آخر الى نائب قنصل اسبانيا بطنجة عملا بأوامر السلطان، وقد جعلنا هذه الرسالة تحت رقم 8 ضمن المجموعة.

---

9) ان الشركة التجارية الاسبانية المستقرة بالدار البيضاء كانت تابعة للشركة «كامبانا – ربسو – باطرون وشركاؤهم» . ويمكن الوقوف فى الصفحات 354 – 359 من كتاب «رودريغيث كاسادو» على ملخص واضح لنشاط هذه الشركة واعمالها .

اما عن حوادث الدار البيضاء فقد حررت الشركة التجارية الاسبانية قائمة الحقت برسالة انطونيو غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 37 وتاريخ 10 ماى 1790 (الملف رقم 4322 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة) وقد تعرض السيد لامبريير بتفصيل لهذه الحوادث ايضا فى الصفحات 365 – 370 من كتابه السالف الذكر

10) بعث انطونيو غونثالث سلمون رسالة السلطان الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا ملحقة بكتابه رقم 43 المؤرخ بخامس يونيه 1790 (الملف رقم 4322 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة)

11) رسالة انطونيو غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 42 وتاريخ 5 يونيه 1790 (الملف رقم 4322 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة)

اما الغرض من هذا الكتاب فطلب تزويد السلطان باربعمائة قنطار من البارود اما اذا اصطدم هذا الطلب بمصاعب فعلى «انطونيو كَونثالث سالمون» ان يعتمد على احد التجار الانجليز او من رعايا جنوة ليشترى تلك الذخيرة ويحملها الى المغرب دون ان يعلم بها احد من الناس. وهو اذا استطاع الحصول على تلك الذخيرة دون استشارة مدريد فان ما صنعه سيدخل السرور على نفس السلطان. اما اذا استحال ارسال البارود فعليه ان يتفق ويعمل لبعث اعتدة حربية اخرى مكان البارود (12) .

وكان «انطونيو كَونثالث سالمون» نائب قنصل اسبانيا بطنجة يقوم بمهام القنصل اخيه «خوان مانويل» الذى كان متغيبا. وقد وصل هذا القنصل الى قالص يوم 14 ماى وكان يستعد للالتحاق بمقر وظيفه فى طنجة ليتوجه منها الى مقابلة مولاى اليزيد اما بقصد التصديق على اوفاق الصلح واما بنية اعداد السفارة. وفى الحين اشعر نائب القنصل فى طنجة بوصوله الى قالص وبعودته قريبا الى طنجة (13). وقد اجابه نائب القنصل فى الحين مبينا له فائدة تأخير سفره الى طنجة مبديا حوله عدة اعتبارات (14) .

وظهر ان هذه الملحوظات كانت فى محلها فظل «خوان مانويل كَونثالث سالمون» فى قالص بينما ظل اخوه «انطونيو» يحاول بواسطة العامل عبد المالك بن محمد عامل طنجة معرفة نظر السلطان حول ذهاب القنصل للسلام عليه باسم الملك والتصديق على معاهدات الصلح .

وبعد استشارة السلطان تبين موقفه فى الرسالة رقم 7 السالفة الذكر والتى هى جواب عبد المالك بن محمد لانطونيو كَونثالث سالمون الذى يتلخص فى النقط التالية :

1 ــ ان مولاى اليزيد يرغب فى الاحتفاظ بنفس الصداقة الطيبة التى كانت لابيه مع اسبانيا بل وفى اقامة صداقة اطيب منها .

2 ــ ان الشخصية المناسبة لتجديد الاتفاقيات هو خوان مانويل كَونثالث سالمون .

3 ــ ان هذا الشخص يجب ان يتوجه الى قصر السلطان بصفة سفير حاملا اوراق الاعتماد الموجهة الى مولاى اليزيد والتى يجب ان ترد فيها التعزية بمناسبة وفاة والده والتهنئة بمناسبة ارتقائه عرش المغرب .

12) ارسل انطونيو غونثالث سالمون هذه الرسالة الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا ملحقة بالرسالة رقم 44 المؤرخة بخامس يوليه 1790 (الملف رقم 4322 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة) .

13) رسالة انطونيو غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرخة بقالص يوم 14 ماى 1790 (الملف رقم 4322 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة) .

14) رسالة انطونيو غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 38 وتاريخ 18 ماى 1790 (الملف رقم 4322 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة) .

4 ـ ان يحمل قيمة رسوم تصدير المركز التجارى الاسبانى بالدار البيضاء للقمح وهدية تتناسب مع صداقة اسبانيا للسلطان الجديد

5 ـ يجب ان يتحادث مع السلطان حول وضعية سبتة، اذ ان مولاى اليزيد يرغب فى ان تعود حدودها الى ما كانت عليه فى عهد السلطان مولاى محمد بن عبد الله، وسيمنح السلطان الاسبانيين كل ما يرغبون فيه بعد تصفية قضية سبتة .

وكان من شأن الموقف الذى اتخذه مولاى اليزيد ان جعل «انطونيو كونثالث سالمون» يوصى بايفاد ضابطين او ثلاثة ضباط من الجيش فى صحبة القنصل حتى يضفى عليه اعتبار السفير وحتى لا يكون هناك فرق بين السفارة الاسبانية وغيرها من السفارات فتتفادى بهذه الطريقة انتقادات من يهمهم النيل من سمعة اسبانيا (15) .

وكان يلاحظ فى تلك الايام موقف تمردى فى المغاربة المجاورين لمليلية فأشعر انطونيو كونثالث سالمون السلطان بذلك وطلب منه معاقبة الثائرين واجبارهم على البرور بالاتفاقيات (16). غير انه علم بعد ذلك بمدة قليلة فى طنجة ان مولاى اليزيد قد شرع يجمع الاعتدة الحربية فى تطوان ليهاجم بها سبتة. وفى هذه الاثناء طلب انطونيو كونثالث سالمون من السلطان ان يفصح بنواياه ازاء اسبانيا لانه لا يمكن التوفيق بين قدوم السفير فى مستقبل قريب وبين الاستعدادات المضادة لسبتة وتهجمات المغاربة المجاورين على مليلية (17)

وكان رد مولاى اليزيد ان وجه الى نائب قنصل اسبانيا الرسالة الموضوعة تحت رقم 9 والتى لا تستمل على جواب تام. غير انه يعبر فيها بوضوح عن كونه يعتبر نفسه فى حالة سلم مع اسبانيا وان جميع القضايا ستسوى بمجرد وصول السفير

اما الفقرة الاخيرة من الرسالة فتتعرض لمقام «الزوين» فى قالص. فقد كان السلطان مولاى محمد بن عبد الله قد بعثه سفيرا الى اسطنبول التى عاد منها على متن البارجة الاسبانية «سوليداد» التى ارست فى «ماهون» ثم فى قرطجنة حيث علم بوفاة مولاى محمد والمناداة بمولاى اليزيد سلطانا.

15) رسالة انطونيو غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 42 وتاريخ 5 يونيه التى سبق ذكرها (الاحالة رقم 11)

16) رسالة انطونيو غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 45 وتاريخ 5 يونيه (الملف رقم 4322 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة) ورسالة اخرى للسيد «لويس دى اونتاغنا» الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا بتاريخ 22 ماى (الملف رقم 4323 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة)

17) رسالة انطونيو غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 47 وتاريخ 16 يونيه والنسخة الملحقة بالرسالة الموجهة من انطونيو غونثالث سالمون الى مولاى اليزيد بتاريخ امسه (الملف رقم 4322 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة)

وقد تخوف محمد بن عبد الله الزوين آنذاك ان لا يحسن السلطان الجديد استقباله فعزم على الذهاب الى مدريد. ولهذه الغاية كتب الرسالة رقم 4 الموجهة الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا. الا ان كارلوس الرابع رأى من الافضل ان يتوجه الزوين الى قالص وينتظر بها الوقت الانسب ليعود الى المغرب (18)

وتوجه محمد بن عبد الله الزوين الى قالص عملا بما اشار به الملك فاعتنى به حاكمها بالاتفاق مع «خوان مانويل كونثالث سالمون». وقد اقترح قنصل اسبانيا بطنجة ان يتوجه الزوين الى طنجة فى نفس الباخرة التى سيسافر هو فيها اليها فوافق الملك على كل مقترحاته (19).

وحدث فى اواخر يونيه ان مل الزوين طول الانتظار فى قالص فاراد التوجه الى الرباط حالا. وقام «خوان مانويل كونثاليث سالمون» باعداد كل ما يلزم حتى يتمكن الزوين من السفر فى احدى البواخر التى ستتجه الى طنجة حاملة الهدايا للسلطان مع الامتعة وقسما من الحاشية (20) .

وغادر محمد بن عبد الله الزوين مدينة قالص يوم 9 يوليه متوجها الى الرباط. وكان قد اضطر اثناء اقامته بها الى اقتراض 3530 بليون من مغربى يدعى «بجة» ولما كان على ظهر الباخرة اخبر سالمون بالدين وطلب منه تسديده بواسطة بطاقة دفعها الى «بجة» نفسه وتوجد ضمن هذه المجموعة تحت رقم 10 وقد سارع سالمون الى أداء الدين فى الحال (21) .

ولما نزل الزوين فى الرباط بعث كتابا الى «خوان مانويل كونثالث سالمون» وهو يحمل رقم 11 فى هذه المجموعة يخبره فيه بوصوله الميمون ويطلعه على بعض الانباء ويرجوه ان يحمل اليه ما أوصاه به. وقد وجه سالمون هذه الرسالة الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا (22) .

18) رسالة الكوندى دى فلوريدا بلانكاالى خوان مانويل غونثالث سالمون المؤرخة بمدريد فى سادس يوليه 1790 الملحقة برسالة سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 17 وتاريخ 13 يوليه (الملف رقم 4316 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة) .

19) رسالة خوان مانويل غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرخة بقالص فى 4 يونيه 1790 ورسالة الكوندى دى فلوريدا بلانكا الى خوان مانويل غونثالث سالمون المؤرخة فى «ارانخويث» يوم 15 يونيه (وكلتا الرسالتين فى الملف رقم 4316 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة) .

20) رسالة خوان مانويل غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرخة فى قالص بتاريخ 29 يونيه 1790 والمحفوظة فى الملفى رقم 4316 و 4322 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة.

21) رسالة خوان مانويل غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرخة فى قالص يوم 13 يوليه 1790 فى الملحق رقم 5 بالرسالة المحررة بنفس التاريخ رقم 17 والمحفوظة فى الملف رقم 4316 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة

22) رسالة خوان مانويل غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا رقم 3 المؤرخة فى قالص يوم 30 يوليه 1790 والمحفوظة فى الملف رقم 4322 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة

وابتداء من هذا الوقت فقدت العلاقات بين اسبانيا والمغرب كل سمة من سمات الود. فقد واصل مولاى اليزيد جمع الاعتدة الحربية فى تطوان بقصد الاغارة على سبتة بالاضافة الى ارتكابه عدة اعمال ماسة بشرف اسبانيا (23) .

ورغم ذلك فقد توجه «خوان مانويل كَونثالث سالمون» الى طنجة على استعداد للقيام بمهمة السفارة المسندة اليه. وفى اليوم الثانى عشر من غشت وصل الى جون طنجة دون ان ينزل بها، وبعد بذل عدة مساع عديمة الجدوى بغية اتخاذ السلطان لموقف واضح انسحب يوم 22 شتنبر من ميناء طنجة مستصحبا كافة الاسبانيين الذين كانوا موجودين بتلك المدينة آنذاك (24)، وفى نفس الوقت اعتقلت بارجة من الاسطول الاسبانى بقرب العرائش قاربين مغربيين من القوارب الشراعية ذات المجاذيف وساقتهما الى اسبانيا (25) .

واغتاظ مولاى اليزيد لانصراف القنصل الاسبانى واعتقال القاربين المغربيين فاتخذ تدابير الانتقام من المقر القنصلى الاسبانى بطنجة وحاول القاء مسؤولية ما حدث ونتائجه المحتملة على الموقف الشخصى الذى اتخذه خوان مانويل كَونثالث سالمون. الا ان كارلوس الرابع تفادى حدوث القطيعة بارساله كتابا الى السلطان يقول فيه ان القنصل الاسبانى لم يزد على تنفيذ الاوامر الصادرة اليه لانه لم يكن منتدبا للتفاوض. وقد استدعى مولاى اليزيد الى

23) رسائل الطونيو غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا بالارقام من 62 الى 65 المؤرخة بتاريخ 25 و 26 و 27 يوليه و 7 غشت المحفوظة فى الملف رقم 4322 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة ورسائل خوان مانويل غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرخة فى قالص ايام 27 و 30 يوليه و 7 غشت وكلها محفوظة فى الملفات رقم 4316 و 4322 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة. انظر كذلك الكتاب المذكور لمؤلفه «مانويل كونروطى» فى الصفحتين 275 و 276 .

24) يرد وصف المساعى التى قام بها خوان مانويل غونثالث سالمون من ميناء طنجة للنهوض بالمهمة المسندة اليه فى الرسائل الموجهة منه الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا ايام 13 و 17 و 19 و 22 و 23 (اربع رسائل) و 27 (ثلاث رسائل) و 30 و 31 غشت و 2 (ثلاث رسائل) و 6 (ثلاث رسائل) و 9 و 13 (اربع رسائل) و 15 (اربع رسائل) و 18 ثلاث رسائل) و 21 و 22 (ثلاث رسائل) من شهر شتنبر 1790 (ملفا رقم 4316 و 4322 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة) ويصف خوان مانويل غونثالث سالمون للكوندى دى فلوريدا بلانكا الاسباب والظروف التى ادت الى انسحابه من ميناء طنجة وذلك فى الرسالة التى وجهها اليه محررة فى قالص بتاريخ 24 شتنبر 1790 (ملفا 4316 و 4322 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة) .

25) يرد وصف اعتقال القاربين فى قائمة البستاليين التى ارسلها حاكم قالص الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا ملحقة برسالته المؤرخة بتاسع نوفمبر 1790 (الملف رقم 4323 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة)

ايفاد سفير كالسيد محمد بن عثمان الى مدريد للاتفاق على الشروط التى سيفرغ الاتفاق الجديد فى قالبها (26) .

وقبل ان يصل كتاب ملك اسبانيا الى يدي مولاى اليزيد دفع مولاى علي بن احمد بن ادريس بن اسمعيل قائد القطاع المجاور لسبتة ظرفا الى حاكمها قال انه كتاب من السلطان الى كارلوس الرابع يحتوى على مقترحات الصلح. وقد بعث حاكم سبتة الكتاب المذكور الى مدريد (27) .

والحقيقة هى ان الرسالة المثبتة تحت رقم 12 فى هذه المجموعة قد كتبها مولاى علي بأمر من مولاى اليزيد. وهو يعرض فيها عمل السفير خوان مانويل گونثالث سالمون ويلقى عليه مسؤولية القطيعة الممكنة .

اما الكوندى دى فلوريدا بلانكا فقد اخبر حاكم سبتة بأنه لن يرسل جواب على رسالة مولاى علي لان الكتاب الذى وجهه كارلوس الرابع الى السلطان قد تضمن الجواب عليها (28) .

وعزم مولاى اليزيد على قبول الاقتراح الذى عرضه عليه كارلوس الرابع بايفاد سفير الى مدريد وعين لهذا المنصب فى الرسالة رقم 13 نفس السيد محمد بن عثمان الذى ذكره الملك فى رسالته .

ومر الوقت دون ان يتمكن محمد بن عثمان من الحصول على اية نتيجة عملية فقرر السلطان تكليف مولاى علي بالمفاوضات مع اسبانيا بقصد الصلح. ولهذه الغاية وجه مولاى اليزيد الى حاكم قالص الرسالة رقم 14 التى يسحب بمقتضاها سلطات السفير من محمد بن عثمان ويسند مهمة المذاكرات حول الصلح الى مولاى علي الذى سلم الرسالة الى حاكم سبتة العام فحسبها هذا موجهة اليه واجاب بانه يوجد فى سبتة ليقاتل لا ليتفاوض حول الصلح وبانه لم تصدر اليه التعليمات ولا فوض اليه الامر لاجراء المفاوضات .

---

26) انظر مختصر سلوك مولاى اليزيدازاء اسبانيا الذى ارسله خوان مانويل غونثالث الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا ملحقا برسالته المؤرخة بيوم 22 اكتوبر 1790 (ملفا رقم 4316 و 4322 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة). انظر كذلك الفقرة الاولى من رسالة سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرخة بيوم 29 اكتوبر 1790 (الملف رقم 4316 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة)

اما نص كتاب كارلوس الرابع الى مولاى اليزيد فيوجد ملحقا برسالة الكوندى دى فلوريدا بلانكا الى حاكم قالص والمؤرخة فى ssان لورينثوه يوم 26 شتنبر 1790 (الملف رقم 4323 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة) كما يوجد ملحقا ايضا برسالة خوان مانويل غونثالث سالمون الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرخة بفاتح اكتوبر (الملف رقم 4316 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة) .

27) انظر رسالة حاكم سبتة الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرخة بمتم شتنبر 1790 والمحفوظة فى الملف رقم 4323 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة .

28) انظر رسالة الكوندى دى فلوريدا بلانكا الى حاكم سبتة المؤرخة فى ssان لورينثوه يوم 12 اكتوبر 1790 (الملف رقم 4323 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة)

واول «لويس دى اوربيناء حاكم سبتة العام مساعي مولاى علي على انها معاذير لتأخير الشروع فى القتال حتى يحين الوقت الانسب للمغاربة وبعث رسالة السلطان وجوابه عليها الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا (29) .

وفى اليوم السابع عشر من غشت دفع «لويس دى اوربيناء رسالتين عربيتين الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا. اما الرسالة الاولى فكانت لمولاى علي الى الكوندى وهى المثبتة تحت رقم 15 فى المجموعة وفحواها شبيه بمضمن الرسالة السابقة. الا ان مولاى علي قد استعمل فيها عبارات اشد من العبارات الواردة فى كتاب مولاى اليزيد.

اما الرسالة الثانية فهى التى جعلت لها رقم 16 والتى يقول فيها مولاى اليزيد بأنه اصدر التعليمات الى محمد بن عثمان ليتفاوض فى الصلح مع اسبانيا على أساس استجابتها للشروط الثلاثة التالية .

1 – ان تغادر اسبانيا المواقع التى تحتلها فوق التراب المغربى.

2 – ان تؤدى جبايات عن تلك المواقع.

3 – ان تستعد للحرب، وقد عرض مولاى اليزيد قضية العلاقات بين اسبانيا والمغرب طبق ما يلى.

فاذا ما دفعت اسبانيا مليونا وقبلت الشروط الثلاثة المذكورة فان السلطان سيسحب قواته والاعتدة الحربية ايضا. اما اذا لم تقبل اسبانيا تلك الشروط ولم تدفع المليون فليس هناك حل الا الحرب. وفى هذه الحالة يوجلها السلطان اجل اربعين يوما .

وقد وصلت هاتان الرسالتان الى مدريد متأخرتين جدا. ففى تاسع عشر غشت اعلن كارلوس الرابع الحرب على مولاى اليزيد. وعلى الساعة الثامنة والنصف ليلا من ذلك اليوم نفسه اطلقت مدينة سبتة النار على القوات المغربية التى كانت تحاصرها (30). ولهذا السبب فقدت الرسالتان كل اهمية واقتصر الكوندى دى فلوريدا بلانكا على الاشعار باستلامهما (31) .

29) انظر رسالة «لويس دى اوربيناء الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرخة فى سبتة يوم 6 غشت 1791 والملحقات بها والمحفوظة كلها فى (الملف رقم 4326 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة)

30) انظر رسالة «لويس دى اوربيناء الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرخة فى سبتة يوم 20 غشت 1791 والتقرير اليومى الملحق بها (الملف رقم 4326 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة). اما نص اعلان الحرب فقد نشره مانويل كونروطى فى الصفحات 417 – 420 من كتابه المذكور – الملحق رقم XLVII

31) انظر رسالة الكوندى دى فلوريدا بلانكا الى حاكم سبتة العام المؤرخة فى عريبال كارطوخا ديل باولاره يوم فاتح شتنبر 1791 (الملف رقم 4326 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة)

وكان محمد بن عثمان قد توجه في تلك الاثناء الى مدريد بوصفه سفيرا فقابله كارلوس الرابع يوم 27 يناير وظل مقيما بمدريد الى اواسط غشت. غير ان مفاوضاته منيت بالفشل التام لان مولاى اليزيد ظل يطمع في سبتة ويناوشها اثناء قيامه بمساعيه في العاصمة. وقفل محمد بن عثمان راجعا الى المغرب لما رأى النتيجة السلبية لمسعاه يوم ثامن عشر غشت غير ان كارلوس الرابع والكوندى دى فلوريدا بلانكا خافا ان يضحى السلطان بسفيره فعملا على ايقافه بقرية «اوكانيا» وارسلا القسم الاكبر من حاشيته الى قالص (32). وهكذا مكث محمد بن عثمان في «اوكانيا» حيث استبقى خمسة من اعضاء وفده، اما الاعضاء العشرة الآخرون فقد تابعوا سفرهم الى قالص يصحبهم «فرانسيسكو باتشيكو». وهكذا ذكره محمد بن عثمان في الرسالة رقم 17. وقد ابحر هؤلاء المغاربة العشرة من قالص الى تطوان يوم 10 شتنبر في سفينة لمملكة جنوة (33) .

وسلم المغاربة ساعة الابحار رسالة عربية الى «فرانسيسكو باتشيكو» وهى موجهة الى الكوندى دى فلوريد بلانكا في شكره على المنافع التى حصلوا عليها ويطلبون فيها مكافاة الجندى الذى صحبهم، وتحمل هذه الرسالة رقم 18 ضمن المجموعة .

وعاد محمد بن عثمان اواخر اكتوبر بصفة شخصية الى مدريد ومكث بعاصمة اسبانيا الى ان انتهى اليه خبر وفاة السلطان مولاى اليزيد .

وحرر السلطان مولاى اليزيد رسالتين بعد اعلان الحرب جعلتهما تحت رقم 19 ورقم 20. اما موضوع الرسالتين فيتضمن الطلب من كارلوس الرابع بايفاد سفير له الى المغرب .

ولم اعثر في السجلات التى رجعت اليها على اية رسالة بعد هذين الكتابين الى ان توفى مولاى اليزيد اواسط فبراير سنة 1792 .

---

32) انظر التقرير الادارى المبعوث الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا يوم 18 غشت 1791 ورسائل الكوندى دى فلوريدا بلانكا الى محمد بن عثمان وحاكم «اوكانيا» والى خوسى بيريث دى نوبروس ورسالة «خوسى دى آندواغا» الى «خوسى بيريث دى نوبروس» المؤرخة يوم 19 غشت 1791 وكلها محفوظة في الملف رقم 5818 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة

33) انظر رسالة حاكم «اوكانيا» الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا ورسالة «خوسى بيريث دى نوبروس» الى «خوسى دى اندواغا» المؤرختين في «اوكانيا» يوم 20 غشت وكذلك رسالة «خوسى بيريث دى نوبروس» الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا بتاريخ 21 غشت. انظر كذلك رسالتى «فرانسيسكو باتشيكو» وحاكم قالص الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا المؤرختين بيوم 2 شتنبر، وكذلك رسائل «خواكين دى فونديبيلا» الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا بتاريخ 6 و 9 و 13 شتنبر ورسائل «فرانسيسكو باتشيكو» الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا بتاريخ 9 و 13 شتنبر ورسالة «فرانسيسكو باتشيكو» الى خوسى دى آندواغا بتاريخ 9 شتنبر 1791 وكل هذه الرسائل محفوظة في الملف رقم 5818 بالارشيف التاريخى الوطنى للدولة.

وقد كان السلطان شديد الطبع والمراس ويشتط في اعماله فأثار استياء رعاياه عليه واخذوا يبتعدون عنه (34). وكان من نتائج هذه الحالة ان ادت الى قيام عدة فتن تراسها اخوة السلطان. وقد لجأ احد هؤلاء وهو مولاى مسلمة الى ضريح مولاى عبد السلام فأقام به دون ان يتجرأ على الخروج منه ابدا. وكان اخوه مولاى هشام على اتفاق مع مولاى مسلمة اول الامر ثم اخذ يعمل لحسابه الخاص فنظم ثورة هامة. وقد كانت القوات الثائرة برئاسة اللواء عبد الرحمن بن ناصر (35).

وقامت اسبانيا باسناد ثورة مولاى هشام اذ بعثت اليه الاموال والاسلحة والذخائر في بارجتين جعلتهما تحت امرة «انطونيو كونثالث سالمون» (36).

ورفع مولاى اليزيد الحصار عن سبتة واقبل على الاهتمام بتنظيم جيشه لمقاتلة مولاى هشام (37).

ودارت معركة بالقرب من مراكش يوم 12 فبراير 1792 جرح فيها مولاى اليزيد وتوفي بعد يومين (38).

34) كانت معاملة مولاى اليزيد للمؤرخ الزياني معاملة رقيقة تبعث على التقدير وقد وصفها المؤرخ في الصفحة 87 والصفحات التي تليها من كتابه المذكور (النص العربي) وفي الصفحة رقم 159 والصفحات التي تليها من ترجمته.

35) يحتفظ في الملف رقم 4350 من الارشيف التاريخي الوطني للدولة بقائمة عنوانها «اخبار عن الذكور من البيت الملكي في قصر المغرب وتواريخ ولادتهم». وقد ولد مولاى اليزيد حسب هذه القائمة سنة 1748 وولد مولاى مسلمة سنة 1750 ومولاى هشام سنة 1752 وهذه المعلومات تتفق مع المعلومات التي وقف عليها «دافيد طورا» في الملف رقم 4321 من الارشيف التاريخي للدولة والمتعلقة «بحالة قصر المغرب سنة 1788 والبيت المالك» انظر مقال «دافيد طورا فيريره المعنون (الصداقة بين مولاى اليزيد وكارلوس الثالث حسب غونثالث سالمون) في مجلة «تمودة» في الصفحة رقم 213 والصفحات التي تليها من العدد الرابع (1956). اما المعلومات المشار اليها فهي مثبتة في الصفحة رقم 221

36) لم تكن مساعدة اسبانيا لمولاى هشام في ثورته على مولاى اليزيد موضوعا لاية دراسة تامة فيما اعلم. وقد نشر «طوماس غرسيا فيغيراس» في الصفحات 25 الى 46 من الجزء الاول من مجلة «تمودة» (1953) بحثا بعنوان «معونة اسبانيا لمولاى هشام الذى ثار في المغرب على اخيه السلطان مولاى اليزيد (دسمبر 1791 – فبراير 1792)» اثبت فيه عدة وثائق من سجلات «سيمانكاس» حول ارسال المؤونة الى مولاى هشام.

37) انظر الكتاب المذكور للزياني في الصفحات 90 – 92 من النص العربي والصفحات 164 – 168 من الترجمة وكذلك الصفحة الثانية والثمانين من الجزء الثامن لكتاب الناصرى السلاوى والصفحة 370 من ترجمة «فومي» لهذا الكتاب.

38) انظر رسالة خوان مانويل غونثالث سالمون الى الكوندي دى فلوريدا بلانكا رقم 28 وتاريخ 2 مارس 1792 والرسائل الملحقة لصاحبها الطاهر فنيش عامل طنجة بتاريخ 28 فبراير ورسالة «خورخي كوياسو» قنصل البرتغال في طنجة بتاريخ 27 فبراير وثلاث رسائل للقائد ادريس المؤرخة في الرباط بتاريخ 20 و 26 فبراير (ملفا رقم 4327 و 4328 من الارشيف التاريخي الوطني الدولة). اما المعلومات الدقيقة الواضحة حول المعركة ومقتل مولاى اليزيد قد وردت في الرسالة التي بعثها القائد ادريس بتاريخ 20 فبراير.

واستلم «خوان مانويل ݣونثالث سالمون» يوم 4 مارس عدة رسائل عربية فى قالص فبعثها الى مدريد .

اما الرسالة الاولى وهى تحت رقم 21 فى هذه المجموعة فقد بعثها اللواء عبد الرحمن بن ناصر والوجيه المغربى الحاج الهاشمى بن العروسى الى نائب قنصل اسبانيا «انطونيو ݣونثالث سالمون» يخبرانه فيها بوفاة مولاى اليزيد وبالظروف التى جرت فيها المعركة بين قوات السلطان وقوات مولاى هشام .

وبعث عبد الرحمن بن ناصر زيادة على هذه الرسالة كتابا آخر الى كارلوس الرابع ـ وهو تحت رقم 22 ـ يخبره فيه باستلام المعونة التى ارسلتها اسبانيا من الاموال والعتاد وبالمناداة بمولاى هشام سلطانا .

وكتب مولاى هشام من جهته رسالتين الى كارلوس الرابع اخبره فى الاولى باستلام المعونة التى ارسلتها اسبانيا وبوفاة مولاى اليزيد وطلب منه فى ختامها ـ وهى برقم 23 ـ شيئا من المال لتسديد تكاليف جيشه . اما الرسالة الثانية المحررة بعد يومين والمثبتة تحت رقم 24 فقد تضمنت طلب تقسيم المعونة الى نصفين يدفع النصف الاول لابن العروسى ويسلم النصف الآخر بميناء آسفى. اما فى طلب المعونة فقد ادرج هذه المرة بالاضافة الى المال طلب الاعتدة الحربية كالمدافع والبارود والبنادق والسيوف

وبعث «خوان مانويل ݣونثالث سالمون» علاوة على هاتين الرسالتين رسالتين اخريين لمحمد بن الكاهية احمد عامل اسفى وتتضمنان نفس الاخبار الواردة فى الرسالتين السابقتين. وقد جعلتهما تحت رقم 25 ورقم 26.

وهكذا نودى بمولاى هشام سلطانا واعترف به فى الناحية الغربية من المغرب، غير ان مولاى مسلمة استطاع الحصول على المناداة به فى طنجة التى قام عاملها الطاهر فنيس باخبار الكوندى دى فلوريدا بلانكا بمبايعته فى الرسالة رقم 28.

وبعد وفاة مولاى اليزيد وقبل وصول خبر موته الى اسبانيا نجد رسائل للسيد محمد بن عثمان الذى كان لا يزال مقيما فى مدريد بصفته الشخصية. وتستهدف هذه الرسائل توضيح بعض الوقائع التى تحول دون استئناف المساعى للتوقيع على معاهدة الصلح بين اسبانيا والمغرب. وينوى محمد بن عثمان تبيين بعض الالتباسات الممكنة والالحاح فى مواصلة المذاكرات للتوقيع على المعاهدة .

اما اولى هذه الرسائل وهى برقم 27 فموجهة الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا وتتضمن رواية مشوهة لاغتيال «خوان بارثيلار» ترجمان سبتة. ويطلب محمد بن عثمان بعد تحريف الواقع ان يخبر بما اذا كانت هناك امكانية

للعودة الى التذاكر حول الصلح وما هى الوسيلة الصائبة لمباشرة تلك المذاكرات . ويقول محمد بن عثمان عقب تاريخ الرسالة ان بارجة اسبانية توجد فى آسفى وانها موجهة الى اللواء عبد الرحمن بن ناصر ويريد معرفة السبب فى ارسال تلك البارجة، وفى هذه الرسالة ما يظهرنا على ان معونة اسبانيا لمولاى هشام كانت ملحوظة .

وبعث محمد بن عثمان بعد بضعة ايام الرسالة رقم 29 الى «خوسى دى آندواغا» يطلب منه فيها ان يشرح الحالة بكامل الوضوح لوزير الدولة الجديد «الكوندى دى اراندا» الذى بعث اليه رسالة اخرى .

اما هذه الرسالة التى تحمل رقم 30 فموجهة الى «الكوندى دى اراندا» الذى خلف الكوندى دى فلوريدا بلانكا. ويلخص محمد بن عثمان بمنتهى الوضوح فى هذه الرسالة الاسباب التى ادت الى مكوثه باسبانيا وحالة العلاقات بين اسبانيا والمغرب. اما خاتمة الرسالة فتعرض لنفس القضايا الواردة فى الرسالة رقم 27 .

وكانت هذه الرسائل هى المساعى الاخيرة التى قام بها محمد بن عثمان باسم مولاى اليزيد. وبعد مدة قصيرة علم بوفاة السلطان وبالمناداة بمولاى مسلمة بواسطة عامل طنجة الذى اخبره كذلك بوفاة مولاى هشام. الا ان محمدا بن عثمان لم يثق بصحة هذا الخبر فاشعر الكوندى دى اراندا بشكه هذا فى الرسالة التى وجهها اليه والتى هى تحت رقم 31 .

وبعد ذلك بقليل كتب محمد بن عثمان الرسالة رقم 32 الى الكوندى دى اراندا حيث يقول ان مبايعة مولاى مسلمة تجرده من كل تمثيل رسمى باسبانيا. فلعل السلطان الجديد يريد ايفاد سفير آخر ما دام لم يصدر التعليمات اليه. ولهذا السبب اراد ان يعود الى المغرب وعرض نفسه ليحمل شروط الصلح .

وطبقا لهذا الطلب اتخذت الاجراءات الضرورية فى اوائل ابريل ليعود محمد بن عثمان الى المغرب (39). وقد عاد الى المغرب بطريق قالص يصحبه الترجمان «خوسى دافيلا» وحرس يتالف من كابورال وجنديين من الفرسان بالاضافة الى «خواكين رودريغيث» الطبيب الجراح .

---

39) انظر رسالة محمد بن عثمان الى الكوندى دى اراندا ورسالتى هذا الاخير الى الكوندى ديل كامبو دى الانخى و «دييغو دى غاردوكى» المؤرخة جميعها فى (ارانخويث) يوم فاتح ابريل 1792 (الملف رقم 5818 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة) ورسائل «اندريس دى فيالوبوس» الى «خوسى دى اندواغا» بتاريخ 29 و 30 مارس و 2 و 3 ابريل 1792 (الملف رقم 4326 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة) .

ووصل محمد بن عثمان الى قالص يوم 21 ابريل واستعد للانتقال الى المغرب فى الحال (40). غير انه حدث بعض التأخر اذ ركب يوم 6 ماى مع بقية حاشيته الباخرة «بيبا انخيليكا» التى غادرت الميناء فى اليوم التالى متوجهة الى تطوان (41).

وقد كتب محمد بن عثمان قبل ركوبه رسالتين الى الكوندى دى اراندا اما الرسالة الاولى وهى برقم 33 فالمقصود منها الاشعار بارتياحه للعناية التى لقيها من حاكم قالص. وكانت الرسالة الثانية وهى برقم 34 توصية لفائدة الترجمان «فرانسيسكو باتشيكو» والجراح «خواكين رودريغيث»

اما التوصية لفائدة «فرانسيسكو باتشيكو» فقد وصلت متأخرة لان حاكم قالص قد تلقى قبل وصول كتاب محمد بن عثمان الى مدريد تعليمات تقضى بضرورة التحاق «باتشيكو» بمنصبه فى سبتة وبأن تؤدى له مصاريفه وتقدم له مكافأة (42).

وبهذا تنتهى القضايا التى لها علاقة بالسلطان مولاى اليزيد والتى ورد ذكرها فى هذه الرسائل العربية.

40) انظر رسالتى «خوسى دافيلا» و «خواكين دى فونديفييلا» الى «الكوندى دى اراندا» المؤرختين فى قالص يوم 24 ابريل 1792 (الملف رقم 5818 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة).

41) انظر رسالة «خواكين دى فونديفييلا» الى الكوندى دى اراند بتاريخ 8 ماى 1792 (الملف رقم 5818 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة).

42) انظر رسالة «خواكين دى فونديفييلا» الى الكوندى دى اراندا» بتاريخ 8 ماى 1792 (الملف رقم 5818 من الارشيف التاريخى الوطنى للدولة).

من المغرب الى اسبانيا على عهد مولاى اليزيد

رسالة رقم 1

من مولاى اليزيد [الى كارلوس الرابع]

6 شعبان 1204 هـ. = 21 ابريل 1790 م.

ملف رقم 5827 (43)

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

[طابع مولاى اليزيد]

كتابنا هذا اسماه الله واعز امره وخلد فى الصالحات ذكره ومآثره يتعرف منه بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركته انه ورد لحضرتنا العلية بالله خديم اعتابنا السعيدة الرومى منضوصة(44) وطلب منا الكتب للرى كرل (45) ليزيد له فى راتبه فأجبناه الى ذلك والآن بنفس ورود امرنا هذا تأمر الرى كرل (45) المذكور يزيد له فى راتبه مراعاة لجانبنا الشريف والسلام فى 6 شهر شعبان المبارك عام 1204 .

* * *

رسالة رقم 2

من مولاى اليزيد الى كارلوس الرابع

16 شعبان 1204 هـ = 1 ماى 1790 م.

ملف رقم 4322

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

[طابع مولاى اليزيد]

من عبد الله المعتصم بالله المتوكل على الله فى سره ونجواه محمد اليزيد المهدى الحسنى ابن امير المومنين مولانا محمد بن امير المومنين مولانا عبد الله ابن امير المومنين سيدنا ومولانا اسماعيل لطف الله به ووفقه وسنى له الفتح المبين ويسره وسدد اقواله وافعاله آمين، الى عظيم جنسه

43) فى قسم «الدولة» من «الارشيف التاريخى الوطنى بمدريد»

44) Mendoza. وهو Juan Barcelar Mendoza

45) El rey Carlos.

اصبانية كارلوس الرابع لاص صبانياص(46) السلام على من اتبع الهدى اما بعد فاعلم ان سيدنا ومولانا الوالد قدس الله روحه قد صار الى عفو الله ورحمته وانتقل للدار التى لابد لكل مخلوق منها ونحن قد ولانا الله تبارك وتعالى من فضله وكرمه وجوده كلمة الاسلام، وانتظم بحمد الله للطاعة القاصى والدانى والخاص والعام من غير حول منا ولا قوة بل الامر لله وحده يوتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده مقاليد الامور كلها جليلها وحقيرها لا يعزب عن علمه شيء منها وقد تلاقى معنا قونصوكم انطونيوا(47) يطلب منا ان نكون معكم على ما كنتم به مع والدنا رحمه الله من الصلح والمهادنة فأجبناه لذالك لمدة اربعة اشهر من شهر تاريخه يأتى الينا باشادوركم يجد معنا الصلح والشروط ولا تروا منا الا خيرا ان شاء الله وقد سرحنا لجنسكم ما كنتم توسقونه من الفريشك (48) من ثغورنا الجهادية تطوان وطنجة والعرائش والسلام فى منتصف شعبان المبارك عام 1204 .

* * *

رسالة رقم 3

من مولاى اليزيد الى خليفة قونصوا اسبانيا بالدار البيضاء

23 شعبان 1204 هـ. = 8 ماى 1790 م.

ملف رقم 4322

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

من عبد الله الناصر لدين الله امير المومنين ابى عبد الله محمد اليزيد المهدى كان الله له

[طابع مولاى اليزيد]

الى خليفة قونصوا الصبنيول بالدار البيضا سلام على من اتبع الهدى اما بعد فقد انهى الينا خديمنا عبد الله بن محمد ما فعلت فى الدار البيضا من الوقوف ونصب المدافع وغير ذلك من اسباب الاعانة فسرنا عملك ونحن مع جنسك على ما كان عليه معه والدنا المقدس المرحوم من حمد العشرة والمباشرة بالاحسان والمعروف والمراعاة (49) بالجميل جزاء لمحبتكم فى جانبنا

46) Carlos Cuarto de las Españas.

47) Antonio. وهو Antonio González Salmón

48) refrescos.

49) فى الاصل «المراعات»

وجانب والدنا من قبل وقد تلاقى (50) معنا قونصوكم بطنجة فميزناه عن غيره بالملاقاة (51) قبل غيره واعطيناه فرسا ايثارا له وتخصيصا لمرتبته والسلام فى 23 شعبان عام 1204 .

* * *

رسالة رقم 4

من محمد بن عبد الله الزوين الى الكونىدى دى فلوريدا بلانكا

26 شعبان 1204 هـ. = 11 ماى 1790 م.

ملف رقم 4348

بسم الله ولا حول ولا قوة الا بالله

الوزير الاعظم والصدر الافخم وزير الرى كارلو(52) الرابع الوزير الكند أفلور ابلانك(53) بعد السلام والبركة عليك اعلم باننا قدمنا من اصطنبول فى الفركط (54) تحت الكرون (55) متاع الرى كارلوا (52) بخير حتى وصلنا لقرطخنة (56) ووجدنا خبر موت البلادور (57) متاعنا بها واخبرتنا الكمانضت (58) متاع الفركة (54) وانه لا يسافر بنا الا اذا اتاه الخبر من عندكم ونريد منك ان تعلم الرى كارلوا (52) باننا اردنا الملاقاة (59) معه ومعك على يديك لما نسمع عليك من فعل الخير ونحن فى انتظار الجواب يأتينا من عندك بما اردناه منك وهذا الذى نريد منك ونريدك ان تعلمنا بالخبر الصحيح بما وقع واعلمنا من الخبر الذى سمعنا واعلمنا بخبر ابينا لانه بالدار البيضاء ولا يغيب عنك خبر المغرب وبه تم. وفى السادس والعشرين من شعبان عام اربع ومائتين والف .

باشدور (60) محمد بن عبد الله
وفقه الله

50) فى الاصل «تلاقا»
51) فى الاصل «بالملاقات»
52) El rey Carlos.
53) El Conde de Floridablanca.
54) fragata.
55) corona.
56) Cartagena.
57) emperador.
58) comandante.
59) فى الاصل «الملاقة»
60) embajador.

رسالة رقم 5

من مولاى اليزيد الى انطونيو گونثالث سلمون

3 رمضان 1204 هـ. = 17 ماى 1790 م.

ملف رقم 4322

بسم الله وبالله ولا قوة الا بالله

[طابع مولاى اليزيد]

الى القونصوا طونيوا (61) الصبنيولى سلام على من اتبع الهدى، واعلم انه لم يخلق عبثا ولم يترك سدى اما بعد فقد وصل لعلى مقامنا وتقرر لدينا جميع ما فعلته من الاحسان مع خدامنا المخيمين بثغر الدار البيضاء صانه الله برعاية حفظه ولاجل ذلك تكون لك المزية الكبرى من جانبنا الاسمى ان شاء الله حتى تفضل عن ابناء جنسك ويقضى لك غرضك فى جميع ما ترونه منا بحول الله وقوته والسلام وفى ثالث رمضان المعظم عام 1204 .

* * *

رسالة رقم 6

من مولاى اليزيد الى انطونيو گونثالث سلمون

8 رمضان 1204 هـ. = 22 ماى 1790 م.

ملف رقم 4322

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبى بعده

من عبد الله المتوكل على الله الناصر لدين الله السلطان الجليل المؤيد السعيد ابو عبد الله محمد اليزيد .

[طابع مولاى اليزيد]

الى انطونى(62) قونصوا اصبنيول الذى بثغر طنجة السلام على من اتبع الهدى اما بعد فيصلكم سبع ونمر على يد خديمنا القايد عبد المالك وكل ما تريده عندنا يقضى لكم ان شاء الله وقد بلغنا ما فعل صاحبكم دمينك (63) الذى بالدار البيضاء مع جيشنا الذى هنالك وسنكافيكم على ذلك ان شاء الله وسيكتب لكم خديمنا القايد عبد المالك ببعض الاوامر والسلام فى ثامن رمضان المعظم عام 1204 .

61) Antonio. وهو Antonio González Salmón

62) Antonio. وهو Antonio González Salmón

63) Domingo.

رسالة رقم 7

من عبد المالك بن محمد الى انطونيو گونثالث سلمون

11 رمضان 1204 هـ. = 25 ماي 1790 م.

ملف رقم 4322

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

من عبد ربه سبحانه وخديم مولانا نصره الله عبد المالك بن محمد لطف الله به آمين الى صاحبنا طونيوا سلمون(64) قونصوا الاصبنيول السلام على من اتبع الهدى اما بعد وصلنا كتابك وقرأناه وعرفنا ما ذكرت وفرحت حين خبرتنا انك بخير وكرطيك(65) بخير واعلم ان سيدنا نصره الله خاطره والحمد لله مع الكرطى(65) الاصبنيول واراد تكون محبته مع الراى كرلوص(66) كما كانت محبة سيدنا رحمه الله معكم وزيادة وذلك لاجل ما عرفناه من محبتكم وصفاء طويتكم وما ذكرت لنا من اجل الباشادور(67) عرفناه ولكن الصواب هو اخيك منويل سلمون(68) ياتى باشدور(67) لما له من معرفة البربرية ويعرف الامور كلها لانه اعرف الناس بالامور وهو رجل خير عاقل فمثله من ياتى للامور ولكن ياتى بهيلة الباشدور (67) واسم الباشدور (67) والبراوات يكون مكتوبين لسيدنا محمد اليزيد المهدى تعزية فى السلطان رحمه الله وتهنية له نصره الله وياتى بصاكة(69) الزرع الذى حملتم من الدار البيضاء وبالهدية تكون على وجه المحبة والصحبة ويتكلم فى امور سبتة فاذا كان هذا الامر تحقق ان كل ما فى مرادكم عند سيدنا يقضى ان شاء الله من غير شك ويوم الكتب سالنى سيدنا عن خبركم وعن ورود الباشادور (67) فأجبته ان البشادور(67) فى اقرب وقت يكون بالمغرب عند سيدنا بحول الله وقوته وقد امرنى نكتب لك امره الشريف ويعرفك فيه انه خاطره معكم وامرنى نوجه لك اسباع وانمر توجه بهم للراى على يديك ويعرفك بالخير الذى عملوا اصحابكم اهل الدار البيضاء فى جيش سيدنا وقال لى اكتب لهم وقل لهم لا زلت حتى نكاتبهم على ذالك وكل ما فى مرادهم يقضى لهم بحول الله عند ورود الباشدور(67) بكتب الراى كارلوص (66) ويوم الخميس ثانى عشر من رمضان نوجه لك النمر والسباع صحبة اصحابنا الواردين عليك وفى صحبتهم كتاب سيدنا الشريف وانت

64) Antonio Salmón. وهو Antonio González Salmón

65) «كرطي» Corte

66) El rey Carlos.

67) embajador.

68) Manuel Salmón. وهو Juan Manuel González Salmón

69) «صاكة» saca

نوكد عليك غاية التأكيد هو تكتب للكرطي (65) وتعلمهم بالخبر لياتي الباشدور (67) بالعزم لتكون انتم اول من سبق باشدوركم (67) والصواب هو ياتي اخيك منويل سلمون (68) باشدور (67) ولابد واعلم اني معكم على الصحبة والمحبة وانت نوكد عليك توجه لسيدنا نصره الله اتاي والسكار الجيد ولابد بالعزم وثم العزم وقد ذكر لنا سيدنا انه لا زال حتى يسرح لكم وسق الزرع ان شاء الله وقد امرني تكتب لك ببعض الكلام فها هو يصلك في اثر الكتاب مع الواردين عليك بكتاب سيدنا نصره الله واذا كتبت للكرطي (65) سلم لنا على الفريد ابلانك (70) وقل له اني معهم على صحبة ابينا وعلى محبته كما كان معهم وزيادة ان شاء الله والسلام وفي عشية احدى عشر من رمضان عام 1204 ومن تمامه الكلام الذي يتكلم الباشدور(67) في امر سبتة هو فيه خير للجميع لتبقى سبتة على حالتها كما كانت في حياة سيدنا رحمه الله من غير شك ليجد سيدنا ما يتكلم به مع كافة دولته لانه نصره الله ما في مراده الا الخير معكم وتجديد الصلح والصحبة والسلام بتاريخه.

[طابع عبد المالك بن محمد]

* * *

رسالة رقم 8

من عبد المالك بن محمد الى انطونيو گونثالث سلمون

13 رمضان 1204 هـ. = 27 ماي 1790 م.

ملف رقم 4322

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله

من عبد ربه سبحانه وخديم سيدنا نصره الله عبد المالك بن محمد لطف الله به امين الى كبير ابناء جنسه انطونيوا سلمون(71) قونصوا الاصبنيول السلام على من اتبع الهدى اما بعد فاعلم ان الكلام الذي قال لك سيدنا نصره الله تتكلم به معكهو ان تتكلم مع الكورطي(72) يبعث له البارود لان سيدنا ادام الله وجوده مراده فيه غاية وانت نريدك تكتب عليه ولابد لتنالون به خاطره الشريف وان كان هو صعب عليكم مجيء البارود لاكن اذا وجدتم رجل متسببا من جنس الجنويز او الانجليز او من غيرهم هو يشتريه نايبا عنكم

70) Floridablanca.

71) Antonio Salmón. وهو Antonio González Salmón

72) «كورطي» = Corte

ويأتى به لسيدنا نصره الله خفية من الاجناس ولا يطلع احدا عليه واذا اتيتم به لسيدنا تنال منه المزية العظمى وسيكافيكم عليه المكافاة التى لم يكافىء احدا بمثلها من قبل ولا بعد ويرد لكم وسق الزرع كما كان ويحسن مع جنس الاصبنيول كل الاحسان ولا يقابلكم الا بما تحبونه لانه ادام الله وجوده كثير ما هو يثنى عليكم من الخير وشهوته يسير معكم باحسن مما كان يسير به معكم سيدنا والده رحمه الله ولاجل هذا نحبك تدبر فى وصول هذا البارود عساه يأتى منه على يديكم نحو الاربعماية قنطار ولا لكم فى ذلك الا الخير وجميع ما تحبونه فى خاطركم عند سيدنا نصره الله كله يقضى لكم على ايدينا بحول الله سواء كنا بمقام سيدنا او كنا معكم بطنجة فانا نقف فى قضائه على الراس والعين صحبة منا مع جانب جنس الاصبنيول ولما بيننا وبينكم من الوداد واذا ظهر لك تتقضوا هذا البارود على يديك ولم تعلم به للكرطى(72) حتى يأتى مختفيا مع الهدية فلا باس لان ما فى قدومه الا جلب خاطر سيدنا نصره الله وان هو عظم عليكم امره وامتنع مجيئه عينوا ما يقوم مقامه واعلمنا به لتبعثوه لسيدنا مع الهدية وهذا كلاما بيننا وبينك وما يظهر لك اجبنا به من غير اطلاع احد عليه وسلم لنا على الخيك القونصوا منويل (73) واكتب لنا له براءة على لساننا وحمده فى السلامة والسلام فى 13 رمضان عام 1204 .

[طابع عبد المالك بن محمد]

. . .

رسالة رقم 9

من مولاى اليزيد الى انطونيو كونثالث سلمون

6 شوال 1204 هـ. = 19 يونيه 1790 م.

ملف رقم 4322

بسم الله ولا حول ولا قوة الا بالله

[طابع مولاى اليزيد]

الى قونصوا الاصبنيول الذى بثغر طنجة السلام على من اتبع الهدى اما بعد فقد وصلنا كتابك وقراناه وعرفنا جميع ما ذكرت فيه ونحن باقين معكم على الصلح والمهادنة كما ذكرنا لكم حين كنا بتطوان وحين يقدم علينا باشدوركم (74) نجدد معكم الصلح ان شاء الله ونزول باشدوركم (74) يكون

73) .Manuel وهو Juan Manuel González Salmón

74) «باشدور» = embajador

بالعرائش ويقدم علينا في البر فان كنا بمكناس فيه تكون ملاقاته معنا وان كنا بالرباط فيه تكون ملاقاته معنا وكل ما في خاطركم يقضى لكم ان شاء الله لاكن ذكر لنا خديمنا الزوين ان رويس السفينة التى كان راكبا بها منعه من النزول بطنجة ولم ادرى ما السبب فى ذلك حتى انزله بقالص والان وجهوه الينا والسلام 6 شوال عام 1204

* * *

رسالة رقم 10

من محمد بن عبد الله الزوين الى خوان منويل گونثالث سلمون

25 شوال 1204 هـ. = 8 يوليه 1790 م.

ملف رقم 4326

الحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله

الى صاحبنا القونص منويل سالمون (75) بعد السلام عليك وبعد ادفع لحامل الكتب امحمد بج ماية ريال وستة وسبعين ريالا صيرها علينا زايدة على ما قبضنا من عندك ولابد (76) وبه كتب عبد ربه محمد بن عبد الله الزوين فى 25 من شوال عام 1204

* * *

رسالة رقم 11

من محمد بن عبد الله الزوين الى خوان منويل گونثالث سلمون

29 شوال 1204 هـ. = 12 يوليه 1790

ملف رقم 4322

الحمد لله ولا حول ولا قوة الا بالله

محبنا القونصوا ملوين سلمون (77) السلام على من اتبع الهدى وبعد اننا لما ركبنا من عندكم من قالص واليوم الثانى حللنا بالمرسى (78) حلول يمن وسلامة وبتنا بها وصبيحة اليوم الثالث نزلنا بالرباط وسهل الله علينا الامر ووجدنا والدنا القايد هنا بخير وعلى خير قدم من عند السلطان نصره الله

75) Manuel Salmón. وهو Juan Manuel González Salmón

76) فى الاصل «ليده»

77) Manuel Salmón. وهو Juan Manuel González Salmón

78) فى الاصل «بالمرصة»

بخير وفى غاية الخاطر وعين الرضى والحمد لله وبعث معه سيدنا ايده الله مولاى سليمان ولد السلطان رحمه الله ومعه المحلة ليوجههم(79) والدنا لمراكش ويبقى مقيما هنا حتى ياتيه الامر من عنده بما يكون عليه العمل وحيث نزلنا بالمرسى (78) اعلمنا سيدنا نصره الله بقدومنا وها نحن منتظرين بما يرد به علينا امره المطاع وحين نقدم لحضرته نصره الله نعلمه بقدومك عليه وبما انت عليه من طريق الصلح وفعل الخير فى امره وهذا ما يجب به اعلامك ونحن على محبتك وحيث تقدم علينا احمل معك لنا شقة من ملف برناطة مليحة واربعة طزازن من السبانى لاننا نسينا ذلك حين خرجنا وحوايج اخرين آتى بهم معك وصبنا عليهم محمد بجة وان كنت متماطلا وجه لنا برناطة مع السبانى عزما وبه تم وسلم على بطرون(80) وعلى المجرة متاعته وفى متم شوال 1204 .

خادم المقام العالى بالله

محمد بن عبد الله وفقه الله

* * *

رسالة رقم 12

من علي بن احمد بن ادريس بن اسماعيل الى كارلوس الرابع

[21 محرم] 1205 هـ. = [30 شتنبر] 1790 م.

ملف رقم 4323

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

من عند حضرة سيدنا مولانا علي بن ادريس بن اسماعيل الى حضرة الراى ذ اصبنية اما بعد السلام كما امرنا سيدنا نصره الله نقدم لسبتة ونكتب منها لحضرتك كتابنا هذا ونعلمك بخبر الباشدور (81) الذى قدم من حضرتك لعند سيدنا نصره الله قدم لمرسى (82) طنجة اقام بالمركب ولم ينزل الى البر فارسل له سيدنا وامره بالنزول وقال له مرحبا بك على وجه الراى ذا اصبانية واصرف لعماله وقال لهم الموضع الذى نزل فيها الباشدور (81) ان تدفع له المونة وفرحوا به غاية وكتب الباشدور(81) سيدنا وقال له ينتظر امرا يقدم عليه من مادريد(83) ثم انه فى آخر الامر قال انه جاءه الامر بالنزول وانزل

79) فى الاصل «ليوجهم»

80) Patrón. وهو Bartolomé Patrón

81) «باشدور» = embajador

82) فى الاصل «لمرسة»

83) Madrid.

بعض الشيء وحمل معه القونصوا يظهر بذالك انه ياتي بالهدية ثم انهم اطلقوا قلوع المراكب وسافروا فجاءوا لناحية العرائش فتلاقوا مع مراكب لسيدنا نصره الله كان وجههم لناحية الجزائر وتونس لقضاء بعض الاغراض بعد ان اخذوا البصبرط (84) من عند خليفة قونصوكم على العادة ولم يكن عند سيدنا عمل على القبر (85) واما سيدنا نصره الله كان معكم على الصلح وكان ينظر قدوم باشدوركم (81) ليتلاقا معه وينظر ما اتى به ويتفاوض معه في شأن الصلح واما قونصوكم ما قبل الصلح معنا من جانب الفعل الذي كان يفعل في الدار البيضا وخيانته فالفريتسية (86) امتاع الزرع الذي كان يوسق هو وقدوس وبن عبد المالك وهذا ما نعلمك به ونظرك اوسع واتينا بالجواب عزما عزما والسلام عام 1205 .

الله مولاه يكون في عوناه امين

علي بن ادريس بن مولانا اسماعيل

رحمه الله آمين

* * *

رسالة رقم 13

من مولاى اليزيد الى كارلوس الرابع

4 ربيع الثاني 1205 هـ. = 11 دسمبر 1790 م.

ملف رقم 5818

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

من عبد الله امير المومنين محمد المهدى اليزيد الحسني كان الله له امين سلطان فاس ومراكش وتافيلالت ودرعه وسوس الاقصى وسوس الادنى وسائر مماليك المغرب. الى عظيم الاصبنيول الري كارلوس (87) الرابع ملك قشتالة وليون(88)وسائر مماليك اسبانية والهند اما بعد فانه ورد علينا كتابكم وعرفنا ما فيه وما اشرتم فيه من بعث كاتب حضرتنا العلية اليكم الفقيه السيد محمد بن عثمان ليتكلم معكم وتراجعوا معه الكلام فيما هو المراد وفيما عسى ان يكون فيه صلاح ووفاق فقد فهمنا ذلك وها نحن بعثناه امبشطورنا (89) اليكم وفيه الكفاية في المقصود دمتم في عافية والسلام كتب في رابع ربيع الثاني من شهور سنة خمس ومايتين والف .

84) pasaporte.
85) la guerra.
86) franquicia = فريتسية
87) El rey Carlos.
88) Castilla y León.
89) embajador = «امبشطور»

رسالة رقم 14

من مولاى اليزيد الى حاكم قالص

27 ذى القعدة 1205 هـ. = 28 يوليه 1791 م.

ملف رقم 4326

الحمد لله وحده   لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

[طابع مولاى اليزيد]

الى حاكم قالص (90) سلام على من اتبع الهدى وبعد فاعلم ان ابن عثمان كنا وجهناه لكم اجابة اليكم لما طلبتموه منا فذهب من عندنا وكان لا يمشى بالنية بيننا وبينكم وها نحن استدنا الكلام لولد عمنا الارضى مولاى على فمعه تكلمون وعلى يديه كلامكم فهو الواسطة بيننا وبينكم واما ابن عثمان فقد طول المقام عندكم وما عرفنا امره كيف هو عندكم والان افكلامكم مع ولد عمنا والسلام فى السابع والعشرين من ذى القعدة الحرام عام 1205 وابن عثمان طول الكلام معكم ولا فائدة فى مقامه وقد سمعنا انه امتنع من القدوم و'و وجهتم الباشدور(91) من عندكم او واحدا منكم وتكلم مع ولد عمنا لتم الامر بيننا وبينكم فى اقرب مدة والسلام

* * *

رسالة رقم 15

من على بن احمد بن ادريس بن اسماعيل الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا

[اواخر ذى القعدة 1205] هـ. = [اواخر يوليه 1791] م.

ملف رقم 4326

الحمد لله وحده   صلى ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

السلام على من اتبع الهدى الى الكندى فلرى بلانكة(92) وبعد فها يصلكم كتاب من عند سيدنا لتطلعوا على ما فيه اذا كان مرادكم فى الصلح هو ان تجعلوا هديتكم وتوجهها مع باشدوركم(93) لسبتة وانا نوقف فى اموركم معه عند سيدنا كما تحب وترضوا فى خاطركم وكلما ذكر سيدنا فى كتابه كله قلق منه على الباشدور (93) الذى اتى لعندكم وجلس هناك مدة من سبعة اشهر ولم يقدم عندكم لا هو ولا باشدوركم (93) والان اذا اردتم ان تصرفوا باشدوركم (93) لعند سيدنا نصره الله لا يكون عنده الا الخير وكلما طلبتموه من سيدنا توجدوه ان شاء الله والسلام

على بن احمد بن ادريس بن اسماعيل رحمه الله الحسنى

---

90) Cádiz.

91) El embajador.

92) El Conde de Floridablanca.

93) «باشدور» = embajador

رسـالـة رقـم 16

من مولاى اليزيد الـى حاكم سبتـة

13 ذى الحجة 1205 هـ. = 13 غشت 1791

ملـف رقـم 4326

الحمد لله وحده لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

[طابـع مـولاى اليزيـد]

الى حاكم سبتة سلام على من اتبع الهدى وبعد فاعلموا ان كاتبنا الفقيه السيد محمد بن عثمان طلبتم منا بعثـه اليكم وقد بعثنـاه وذكرنا له شروطا ثلاثة وهى التخلى عن مدنتـا او دفـع الجزية عنها والا فالقتال والمحاربة وقد توجه واقام عندكم هذه مدة من احد عشر شهرا وما جاءنا جواب نعتمده وانما ياتينا انكم تقولون عند الامر والنهى وافعالكم ما طابقت اقوالكـم والان فـان اتيتم بمليون(94) من المال صيرناه على جيشنا السعيد وقبلتم الشروط الثلاثة المذكورة رفعنـا عنكم آلـة الحـرب ولا نحتاجكم لرفعها فى البحر فنحن عندنا القوة العظيمة والحمد لله علـى جرها وقد جربناها اولا فكذلـك نجرها عند رفعها بحول الله والا تقبلوا الشروط الثلاثة وتاتوا بالمليون(94) من المال فليس الا الحرب والقتال ونحن مسلمون الغدر عندنا حرام وقد اعلمناكم وجعلنا لكم شهرا وعشرة ايام من الثانى من غشت آخرهـا الحادى عشر من شتنبر فاما القتال او المهادنة ان قبلتم الشروط الثلاثة وجيتم بالمليون(94) من المال المصير عن الجيش ونحن اليوم آخذون فى اصلاح الشبارات وفى انزال آلة الحرب فكونوا على علم بذلك لان الغدر فى ديننا حرام وبيننا وبينكم الشهر والعشرة الايام وفى الثالث عشر من ذى الحجة الحرام عام خمسة ومايتين والف

* * *

رسـالـة رقـم 17

مـن محمد بن عثمان الـى الكوندى دى فلوريدا بلانكا

18 ذى الحجـة 1205 هـ. = 18 غشت 1791 م

ملـف رقـم 5818

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

الى السيـد الكامـل الاعتبار الوزير الاعظم بالمملكة الاصبنيولية الكند فلردة بلانكة (95) اما بعد فانه بلغنا كتابك المكتوب فى19 اغشت تخبرنا فيه انه

94) «مليـون» millón

95) El Conde de Floridablanca.

بعد ان توجهنا من حضرة ماديريد(96) حدثت امور وحوادث منحرفة اوجبت على ملككم الشهير الذكر ان امركم ان تكاتبونا اننا نتاخر عن السفر الان ونمكثوا في اوكانية(97) ونصرفوا جماعتنا وخدامنا الى قاص (98) وحاكم اوكانية (98) الذى اعطانا كتابكم العزيز يقف معنا ويساعدنا على هذا الامر فقد عرفنا خطابكم وفهمنا اشارتكم وما امكن الا امتثال ما امر به الملك فاقمت باوكانية (97) ومعى ستة نفر ونطلب الله تعلى ان تكون الامور التى حدثت بعدنا خير وبقية اصحابنا يتوجهون صحبة بتك(99) عشية يوم تاريخه فنرغب منكم ان تكاتبوا خدامكم فى قالص (98) ان لا يعاملوهم معاملة الاعدا بل يبروا بهم ويسلكون معهم فى خروجهم من المرسى مسلكا جميلا كما لو كنا معهم واذا ركبوا البحر ينزلونهم فى تطوان ونعلم جانبكم اننى هنا لا اعرف لغة اهل البلد ولا يعرفون لغتنا لان الترجمان الذى كان عندنا صرفناه مع اصحابنا فان كان عندكم من يحول بيننا وبين الناس فى الكلام فارحمنا به ولا تنسنى ولا تنسنى ولا تنسنى والسلام كتبه يوم السبت ثامن عشر ذى الحجة من اوكانية (97) ذات البرغوث الكثير عام 1205.

محمد بن عثمان
لطف الله به

* * *

رسالة رقم 18

من اصحاب محمد بن عثمان الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا

[11 محرم 1206] هـ. = [10 شتمبر 1791] م.

ملف رقم 5818

الحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبى بعده

اسلنطسم سنيور كند د فلرد ابلنك(100) يسلم عليك اصحاب البشدور(101) كثير السلام ويجازوك بخير على ما فعلت معهم من الخير وكذالك يحب من الله ثم منك ان تجازى السلطان بخير على ما فعل معنا من الخير والاكرام وبنزولنا عنده سبعة اشهور فى مدريد (102) وما فعل معنا من الخير فى

96) Madrid.
97) Ocaña.
98) Cádiz.
99) Pacheco. وهو Francisco Pacheco
100) Excelentisimo señor conde de Floridablanca.
101) el embajador.
102) Madrid.

الطريق حتى انه يبعثنا الى بلادنا بخير وكذالك بعث معنا دون افرنسسك بشك (103) يعرف طبيعتنا ولا فعل معنا الا الخير التام فى الطريق وفى قالص (104) حتى بلغنا لبرض (105) والسلام عن اذن اصحب البشضور (101) جميعا .

* * *

رسالة رقم 19

من مولاى اليزيد

24 محرم 1206 هـ. = 23 شتمبر 1791 م.

ملف رقم 4350

بسم الله الرحمن الرحيم — لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

[طابع مولاى اليزيد] — **وكتب عبد الله محمد اليزيد المهدى الحسنى** لطف الله بـه آمين.

كتابنا هذا اسماه الله واعز امره يستقر بيد الحامل له الباشدور (106) من عند عظيم اصبانية الرى كارلوس(107) لحضرتنا العالية بالله تعلى يتعرف منه بحول الله وقوته انه ومن قدم معه ممن يوجههم الرى كارلوس (107) عندنا فى امن وامان فى قدومهم ومقامهم عندنا ورجوعهم ولا يرون منا الا الامان التام وفى الرابع والعشرين من المحرم عام ستة ومايتين والف .

* * *

رسالة رقم 20

من مولاى اليزيد الى **كارلوس الرابع**

5 صفر 1206 هـ. = 4 اكتوبر 1791 م.

ملف رقم 4350

الحمد لله وحده — ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

من عبد الله تعلى المستعمل ذاته فى طاعة مولاه المجاهد فى سبيل الله محمد المهدى اليزيد الحسنى امير تاردانت وما فوقها من التغور والبلدان وامير مراكش والرباط وتطوان وما بينهما من التغور والبلدان وامير مكناس

---

103) don Francisco Pacheco.

104) Cádiz.

105) «برض» = bordo

106) el embajador.

107) el rey Carlos

وفاس وتازى وغيرها اطله الله تعلى بحسن ظله وامده بتوفيقه وهدايته وجعله من خواص اوليائه وعباده

[طابـع مـولاى اليزيـد]

الى عظيم صبانيات والهند الرى كارلوا (108) الرابع السلام على من اتبع الهدى اما بعد فاعلم اننا كتبنا لباشدورنا (109) السيد محمد بن عثمان يعقد معك الصلـح والمهادنـة وهـا كتابتـا معلم بخطنا وبطابعنا الشريف يصلك لباشدورك(109) الذى توجهه لنا بحيث ياتى فى الامان هو ومن يرد معه ويرجع لكم فى الامان ولا يرى منـا الا الخيـر بحول الله لاجل ما تحقق عندنا مـن محبتك فـى جانبنا كما كانت مع والدنا رحمه الله وقد تبين لنا ميلكم قديما الباطن والظاهر فتبينا امورا كانت غايبة علينا فمن جملة محبتك فيتـا هى الاقامة التى وجهت لنا لمراكبنا لم توجهها لغيرنا واخبرنا ايضا انك تحبنـا ولا تريد معنا الا الصلح والمهادنة فعند ذلك رفعنـا الحرب عن اهل سبتـة ورحلنا عنها وكتبنا لباشدورنا(109) السيد محمد بن عثمان يمضى معكم الصلح والمهادنة والسلام فى 5 من صفر الخير عام 1206

* * *

رسـالـة رقـم 21

مـن عبد الرحمان بـن ناصـر المخيزنى والحـاج الهاشمى بـن العروصى الـى انطونيو گونثالث سلمون

27 جمادى الثانية 1206 هـ. = 21 فبراير 1792 م.

ملـف رقـم 4328

الحمد لله وحده ولا يدوم الا ملكه

عبد الرحمن بن ناصر المخيزنى امنه الله

والحاج الهاشمى بن العروسى امنه الله

من عبيد ربه خديم المقام العالى بالله عبد الرحمن بن ناصر المخيزنى امنه الله الى القنص انطونى گمس سلمون (110) السلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الضلالة والردى اما بعد فنعلمك بخبر المسخوط بانه مات يوم الخميس ثالث عشرين جمادى الثانية عام تاريخه وقتلناه بالرصاص لانه قدم علينا بمحلته وتلقينا معه بخيل خفيفة بقرب مراكش بموضع يسمى تزكرت

108) El rey Carlos.

109) «باشـدور» = embajador

110) Antonio Gómez Salmón. ولكـن هـو Antonio González Salmón

على حاشية واد تنسفت ووقع من القبائل الذين كانوا معنا متفقين على حربه وقع منهم الغدر لنا ولا ظهر لنا الغدر منهم حتى تكلم البارود بيننا وبين القبائل وداروا بمحلتنا من ورائنا وتركنا لهم المحلة وجميع خزايننا وامتعتنا وقصدناه وحده طلبا لهلاكه فامكننا الله تعالى منه وقتلناه في وسط جيشه ودار بنا العدو من كل ناحية وخرجنا منهم قاصدين لبلادنا السعيدة بخيلنا ورمتنا ومات منا ومنهم خلق كثير وحيث هنانا الله تعالى منه هان علينا كل من مات من رجالنا وكل ما ضاع لنا من الامتعة وكان في ذلك فتنة كبيرة حتى وقع النهب من الرجل لصاحبه ومن الصديق لصديقه وحيث رجعت محلتنا لبلادها هربت محلته لمراكش ونهبت عن آخرها وها سيدنا نصره الله حلف ان لابد له من اخراج المسخوط من قبره وان يحرق جسده بالنار وان يبعث راسه لصبانية ويوم الكتب خرج مولانا نصره الله بقصد الكرة (111) مع القبائل الذين كانوا معنا وغدرونا فمن لقيه منهم بوجه جميل لا يلقى من سيدنا نصره الله الا الخير والحمد لله ومن لقيه منهم بغير ذلك لا ينال من سيدنا ان شاء الله تعالى الا ما يكرهونه ويصلك زوج براوات لسلطان صبانية الراى كرلوص(112) الرابع نحبك تقف لنا على ما فيهم حتى يقضى ان شاء الله تعالى لان اليوم عندنا هى الكرة(111) العظيمة ونحب منكم ان تطلقون السباب والتجارة لبلادنا بقصد المنفعة من الجانبين لنا ولكم لان الذى كانت فيه الاذاية للمسلمين ولكم اراحنا الله تعالى منه والسلام وفى سابع عشرين جمادى الثانية عام 1206 .

* * *

رسالة رقم 22

من عبد الرحمان بن ناصر المخيزنى الى كارلوس الرابع

27 جمادى الثانية 1206 هـ. = 21 فبراير 1792 م.

ملف رقم 4328

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

عبد الرحمان بن ناصر المخيزنى امنه الله

الى السلطان ابن السلطان ابن السلطان ابن السلطان الصبنيول الرى كرلوص (113) الرابع السلام على من اتبع الهدى اما بعد فليكون فى علمك بان بلغ لنا لثغر اسفى ما وجهته لسيدنا ومولانا هشام نصره الله من المال

111) «كرة» = guerra

112) El rey Carlos.

113) El rey Carlos.

وغيره من آلات الحرب بقصد اعانته واعانة جميع المسلمين مع زوج افراكط (114) كيرة (115) ومع القونص متاعك انطوني كنجالس سلمون (116) وعلمت سيدي نصره الله بذلك وفرح غاية وتحقق له من ذالك بمحبتك في جانبه الاسما واعلم وان اليوم الحمد لله من الله على سيدنا بالنصر والتمكين وهننا الله وارتحت راعية سيدنا نصره الله من الذى كان مضيقا بنا وبالاسلام وكان قتله على يد سيدنا المنصور بالله بعد المحاربة معه قرب مراكش وسيدنا ومولانا هشام نصره الله معكم على المهادنة والصلح التام كما تنظر من اعز كتابي سيدنا المنصور بالله الذى يوصلكم صحبة هذا ومن تحقيق محبة سيدنا نصره الله الذى ظهرت لنا فيكم من جانب سيدنا المنصور بالله لا نشك بانك تقضي غرض سيدنا ايده الله بما طلبا منك من المال لاعانته على الجيوش الكثيرة الذى معه ولا يخفاكم حالة الجيوش وما يحتاج من المال والكسوة وغيره وسيدنا ايده الله يكافى لكم ذالك بالخير والاحسان التام عن قريب ان شاء الله وكلما يخصكم من بلدته ومن جميع مراسه وطاعته فهو موجود لكم كما تحب وترضوا ونحن منتظرين لجوابكم بما يسرنا في قريب ان شاء الله في 27 جمادى الثانية عام 1206

* * *

رسالة رقم 23

من مولاي هشام الى كارلوس الرابع

27 جمادى الثانية 1206 هـ. = 21 فبراير 1792 م.

ملف رقم 4328

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

من عبد ربه تعالى هشام بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل كان الله له وليا ونصيرا

[طابع مولاي هشام]

الى السلطان الصبنيول الرى كرلوس (117) الرابع السلام على من اتبع الهدى اما بعد فاعلم بان بلغنا ما وجهته لنا من عندك بقصد اعانتنا واعانة

114) ج. من «فركاطة» = fragata

115) guerra.

116) Antonio González Salmón.

117) El rey Carlos.

ايالتنا السعيدة ليفرج عليهم الله تعالى من الهم الى الفرج وقدره تسعون قنطارا من المال وغيره من آلات الحرب مع زوج افراكط (118) متاع الكيرة (119) على يد القونص انطونى كنجالس سلمون (120) ووقف فى نزول ذالك فالفرتونة (121) العظيمة التى ان نزله عندنا باسفى بعد الخدمة الكثيرة والتعب هو ومن معه فالفراكط (118) من خدامك وتحققنا من ذالك بمحبتك فى جانبنا العالى بالله وظهرت لنا منك محبة كثيرة عظيمة ونطلب الله تبارك وتعالى يعيننا على مكافتك بالخير والاحسان ونفعل معك ومع راعيتكم الخير والاحسان كما كانت محبة سيدنا ومولانا الوالد المرحوم بالله تعالى مع الرى كرلس (117) الثالث ومعك ومع راعيتكم من جنس صبنيول واعلم وان اليوم الحمد لله هننا الله تعلى نحن وراعيتنا من اليزيد الذى كان مضيقا بالمسلمين وغيرهم بالظلم من غير شرع ولا طريق وجاب الله قتله على يدينا بعد الحرب معه ومن كان معه وخرجوا المسلمين من الضيق الذى كانوا فيه الى الفرج ومن الله علينا بالنصر والتمكين فى هذه النواحى كلها وذالك من فضل الله تعالى ونحن معكم على المهادنة والصلح التام كما كنتم مع والدنا المرحوم بكرم الله وكل ما اردتم من بلدتنا ومن ايالتنا السعيدة نعطوه لكم من جميع مراسينا وكل من قدم لطاعتنا من جنس صبنيول نفرح به الفرح التام لاجل محبتك فى جانبنا العالى بالله وليكون فى علمك بأن كل ما تركه سيدنا المرحوم بالله من المال فى جميع المدون بانه فسده اليزيد من غير مصلحة وفائدة للمسلمين وترك بيوت المال فارغين والان نريد منك ان توجه لنا ما يكفينا من المال للجيوش الذى معنا فى جانبنا الاسمى وعن قريب ان شاء الله يكون رجوعه اليك بالمكافة بالخير والاحسان منا اليك والله تعالى يدوم علينا الهنا والسرور امين والسلام وفى سابع عشرين من جماد الاخرة سنة ست ومايتين والف 27 من جمادى الثانية 1206 .

---

118) ج. من «فركاطة» = fragata

119) «كيرة» = guerra

120) Antonio González Salmón.

121) fortuna.

رسالة رقم 24

من مولاى هشام الى كارلوس الرابع

29 جمادى الثانية 1206 هـ. = 23 فبراير 1792 م.

ملف رقم 4328

الحمد لله وحده صلى الله على سيدنا محمد وآله

من عبد ربه تعلى هشام ابن محمد ابن عبد الله ابن اسماعيل كان الله وليا ونصيرا

[طابع مولاى هشام]

الى السلطان الصبنيول الرى كرلوس (122) الرابع السلام على من اتبع الهدى اما بعد اعلم انى قد قدمت لك كتابا تاريخه سبعة وعشرين من جمادى الثانية سنة ستة ومايتين والف وعلمتك فيه بجميع الاخبار الواقع عندنا بالغرب وما زاد وما نقص والان نريدك المال الذى تريد توجهه لحضرتنا العالية بالله مع آلات الحرب من المدافع والبارود والمكاحل والسكاكن وجه منه لثيط الجديدة على يد خادمنا القائد الحاج الهاشمى بن العروسى الدكالى فان مرستها سهلة وطيبة ونحب عمارتها اكثر من غيرها والبعض من ذلك وجهه لثغر اسفى وعلى هذا يكون العمل ان شاء الله والسلام وفى التاسع والعشرين من جماد الثانى عام 1206 .

* * *

رسالة رقم 25

من محمد بن الكاهية احمد الى خوان منويل كونثالث سلمون

1 رجب 1206 هـ. = 24 فبراير 1792 م.

ملف رقم 4328

الحمد لله وحده ولا يدوم الا ملكه

الى القونص منويل سلمون (123) الصبنيول السلام على من اتبع الهدى اما بعد اعلم وان اخيك القونص انطونى (124) ورد علينا لمرسى (125) ثغر اسفى

122) El rey Carlos.

123) Manuel Salmón. وهو Juan Manuel González Salmón

124) Antonio. وهو Antonio González Salmón

125) فى الاصل «لمرسة»

صانه الله بالفركطينة(126) التيورد فيها هو ومن معه ولحقت له فركاطة (127) آخر وفرحنا به غاية الفرح لكونه ورد علينا من عند الراى كرلوس(128) الرابع ومن عندكم بما وجهتموهم به الينا اعانة للسلطان سيدنا ومولانا هشام نصره الله فوضع ذالك عندنا باسفى من المال تسعون قنطارا وآلات الحرب ففرح بذالك سيدنا المنصور بالله غاية وكذالك سيد عبد الرحمان بن ناصر فرح بذالك كثيرا وها امر سيدنا نصره الله ورد عليكم مع كتاب سيد عبد الرحمان بن ناصر على ما نحن معكم عليه من المهادنة وتحقق لنا محبتكم فى جانبنا وفى جانب سيدنا ايده الله حيث وصلتم الى بلادنا واعلمكم بخبر اليزيد قد توفى مقتولا فى الحرب الذى كان بينه وبين سيدنا ومولانا هشام نصره الله وسيد عبد الرحمان ومن معهم من القبائل وانكسر جيش اليزيد واصابه ثلاثة خفيفات وقتل بهم قرب مراكش وارتحت منه الخلائق والحمد لله وانتم ان كان ما نقضوا لكم هناك اعلمونا به اعز ما يكون عندنا على رؤسنا وعيوننا واخيك القونص انطونى (124) يشفيك فى الخبر على وقوفنا معه وهذا ما نعلمكم به والسلام وفى فاتح رجب الفرد عام ست ومايتين والف 1206.

خديم المقام العالى بالله

محمد بن الكاهية احمد وفقه الله

* * *

رسالة رقم 26

من محمد بن الكاهية احمد الى انطونيو گونثالث سلمون

1 رجب 1206 هـ. = 24 فبراير 1792

ملف رقم 4328

الحمد لله وحده ولا يدوم الا ملكه

الى القونص انطونى سلمون (129) السلام على من اتبع الهدى اما بعد اعلم وان اليوم الذى سفرت (130) من عندنا من مرسى(131) اسفى وقع الشر بين السلطان سيدنا ومولانا هشام نصره الله وبين اليزيد وقد انكسر جيشه وتفرق جمعه وقد توفى اليزيد مقتولا بعد اصابه ثلاثة خفيفات فقتل وتهنت منه الخلائق

126) «فركطينة» = fragatina

127) fragata.

128) El rey Carlos.

129) Antonio Salmón. وهو Antonio González Salmón

130) فى الاصل «صفرت»

131) فى الاصل «مرصة»

وارتاحت والحمد لله وها السلطان سيدنا ومولانا هشام ادام الله وجوده توجه من عندنا من اسفى الى حمرة مراكش ومعه سيد عبد الرحمان بن ناصر ومعهم جيش كثير فالله يصلحه ويصلح به وعلى يديه ويوفقه للخير ويعينه عليه وها كتاب سيدنا المنصور بالله يورد عليكم للراى كرلوس(132) الرابع ومعه كتاب من عند سيد عبد الرحمان بن ناصر ونحن معكم على المهادنة والصلح التام الذى لا يتبدل ولا يتغير ان شاء الله وهذا ما نعلمك به وان امكن ما نقضيه لكم هناك اعز ما يكون عندنا على رؤوسنا وعيوننا والسلام وفى فاتح رجب الفرد عام ست ومايتين والف 1206 .

خديم المقام العالى بالله

محمد بن الكاهية احمد وفقه الله

* * *

رسالة رقم 27

من محمد بن عثمان الى الكوندى دى فلوريدا بلانكا

3 رجب 1206 هـ. = 26 فبراير 1792 م.

ملف رقم 5818

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحبنا العزيز علينا الوزير الاعظم بالمملكة الاصبنيولية الكند فلردة بلانكة (133) اما بعد فانه ورد على كتاب من عند مولاى الملك جوابا عن كتاب بعثته اليه فى شان قضية ترجمان سبتة وما سبب قتله فأجاب بان سبب ذلك هو ان مولاى الملك بعث اناسا يجعلون مع اهل سبتة حدا لا يتجاوزونه فجعلوه ثم انهم صاروا يخرجون بالسلاح ويتجاوزون الحد فمنعهم المسلمون من ذلك فقال لهم الترجمان المذكور تفعل ذلك بقوتنا فتراجعوا فى الكلام فنشا عن ذلك الضرب من الطابقتين فمات منضوسة (134) فى ذلك فلم يقتل غدرا كما قيل لك لان الغدر حرام فى الدين ووردت على مكاتب اخرى من بعض اهل الدولة ومن عند القايد عبد الله الرحمانى فربما تعرفونه كان فى الدار البيضاء ايام وسقكم الزرع منها وانا على يقين من ان مكاتبهم باشارة الملك يذكرون اولا قضية ترجمان سبتة ويبينون سبب موته وانه لم يقتل غدرا ويذكرون انه تكلم مع الملك فى امر الصلح فوافق على ذلك ووعد بأنه يسير معكم باحسن سيرة كما كنتم من قبل وازيد ويستحثوننى على فصل هذه

132) El rey Carlos.

133) El conde de Floridablanca.

134) Mendoza. وهو Juan Barcelar Mendoza

القضية واطفاء نار الفتنة والعقد للصلح ويطلبون منى ان نفصح عن مقامى هل انا مجبور عليه من عندكم فنعلم سيدنا او منتظرا لما عسى ان يكون من الصلح فاعزم به، والان المقصود منكم امران احدهما ان تعلمنا هل يمكن التدارك لامر الصلح فنتخذ له طريقة واعلمنى بالطريق التى تستحسنها انت لنرتكبها الثانى اشر على برايك فى رد الجواب على مقامى ها هنا ويصلكم طيه مضمن المكاتب الواردة واطلب من سعادتكم جوابا شافيا مفيدا واقدم ذاتى اليكم دايما فى ساعدتكم والسلام كتبه فى مادريد 3 رجب من عام 1206 .

محبكم محمد بن عثمان لطف الله به

وفى المكاتب المذكورة انكم بعثتم الى اسفى فرگاطة (135) واصلة الى عبد الرحمن بن ناصر فما سبب ذلك والجواب على الجميع

محمد بن عثمان لطف الله به

* * *

رسالة رقم 28

من الطاهر بن عبد الحق فنيش الى **الكوندى دى فلوريدا بلانكا**

4 رجب 1206 هـ. = 27 فبراير 1792 م.

ملف رقم 4328

الحمد لله وحده ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

من عبيد ربه وخديم مولانا نصره الله الطاهر بن عبد الحق فنيش لطف الله به الى صاحبنا الوزير الاعظم الكند افلرض ابلنك(136) السلام على من اتبع الهدى اما بعد فالذى نخبرك به هو ان سيدنا السلطان مولانا اليزيد توفى رحمة الله عليه وتوفى اخاه مولانا هشام رحمة الله عليهما جميعا وتولى السلطنة سيدنا ومولانا اسلامة(137) نصره الله وجميع اهل المغرب نصروه وعند امره ونهيه وفى اليوم الذى ولاه الله السلطنة كتب لى نصره الله ان نكتب لك ونعلمك بهاذا الامر وانه مع الرى كارلوا(138) وجنسه على الصلح والمهادنة التامين وهو معكم على الكلمة التى بينكم وبينه والرى كارلوا(138) وانت وجميع جنسكم عنده مفضلين على جميع اجناس النصارى ونحن على صحبتك وكل مسالة هى من جانبكم نفق فيها ان شاء الله والتمام فى 4 رجب الفرد عام 1206

[طابع الطاهر بن عبد الحق فنيش]

---

135) fragata

136) El conde de Floridablanca.

137) وهو مولاى مسلمة

138) El rey Carlos.

رسالة رقم 29

من محمد بن عثمان الى **خوسي دي اندواكا**

10 رجب 1206 هـ. = 4 مارس 1792 م.

ملف رقم 5818

بسم الله الرحمن الرحيم

صاحبنا العزيز علينا السيد يوسف د انضواكه (139) اما بعد نعرفكم اننا بعثنا لحضرة الوزير الكند اراندة(140) كتابا اعلمناه فيه بأحوالنا وبمكاتب مولاى الملك التي وردت على قبل هذا بنحو ثلاثة اشهر عند قدومكم من اسكريال(141) التي امرني فيها بعقد الصلح مع هذه الدولة والمكاتب المذكورة عندكم واعلمناه ايضا بسبب موت ترجمان سبتة الذى وردت علينا مكاتيبه قبل هذا بنحو ثمانية ايام وهذا كله في علمكم فنرجوكم ان توضحوا له الامر كما يجب وتشرحوا له احوالنا فانكم على يقين فيها مع سبب مقامنا وتعتنى في رد الجواب الينا مستوفيا ان شاء الله واعلمنا بما تجدد عندكم من اخبار بلدنا ولابد ودمتم سالمين والسلام كتبه 10 رجب في مادريد من عام 1206

محمد بن عثمان

لطف الله به

* * *

رسالة رقم 30

من محمد بن عثمان الى **الكوندي دي اراندا**

10 رجب 1206 هـ. = 4 مارس 1792 .

ملف رقم 5818

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها السيد العالى الشان الكند ارانده (142) لا يخفاكم قدومنا على هذه الدولة اولا وتاخيرنا فيها على اى حالة هو والتجاؤنا الى هذا الملك الشهير ومقابلته لنا بالحنان والرافة والشفقة ابقاه الله وقد سمعنا ان الملك قلدكم هذه الرياسة العظيمة والنيابة الفخيمة بحسن اختياره واعتمادا على اختباره لما يعلم من فطنتكم وجودة رايكم واهليتكم لذلك وفقنا الله واياكم وحيث لم يتقدم لنا بكم اتصال سوى ما كان يصلنا من اخباركم الحسان المشهورة في

139) José de Anduaga.

140) El conde de Aranda.

141) Escorial.

142) El conde de Aranda.

جنس الانسان عرفناكم بحالنا لتسلكوا معنا المسلك الذى يقتضيه سلوككم الحميد الطبيعى وتقتفوا اثر الملك فى ذلك وتلاحظوا امورنا فانكم اهل لذلك ثم نعلم جانبكم انه وردت على مكاتب من حضرة مولاى الملك قبل تاريخه بنحو ثلاثة اشهر بعد انفصال الحرب من سبتة وامرنى ان نجعل الصلح والمهادنة مع ملك اسبانية واعتذر عما تقدم لاكن لم تصلنا المكاتب حتى ورد الخبر بقتل ترجمان سبتة فتغيرت الاحوال وتغيرنا كذلك وفى الحين كتبت الى سلطانى استفهمه عن سبب قتل هذا الرجل فورد على الجواب قبل تاريخه بنحو ثمانية ايام يخبرنى فيه سيدنا الملك بان الترجمان المذكور لم يمت غدرا كما قيل لك بل سبب تعبير اهل سبتة الحدود التى صار عليها الاتفاق بيننا وبينهم لما منعهم المسلمون من مجاوزة الحد فلم يقبلوا فصارت بينهم مكالمة ادت الى مضاربة من الجانبين فمات الترجمان فى ذلك واما الغدر فهو حرام فى الدين ووصلتنا ايضا مكاتب من بعض الاصحاب من دولتنا ويمكن ان تكون باشارة الملك يخبروننى بميلان الملك سلطانى الى عقد الصلح وقد وعد ان يسير مع جنس الاصبنيول باحسن سيرة ويحثون على فى ذلك والى الان فالمقصود من حسن فطنتكم وجميل نظركم ان تعلمنى هل يمكن ان يتدارك هذا الامر ويعقد الصلح ام لا وما هى الشروط التى يعقد عليها لنستعمل كليتنا فى تحصيله لعل الله تعلى يتمم هذا الامر وان لم يكن لملك اسبانية ارادة فى عمل الصلح ولا رغبة فعرفنى كيف يكون الجواب عن ذلك وفى مكثنا هنا وعن ارسال مركب من مراكبكم الحربية الى نواحى آسفى من بلادنا وما اوجب ذلك لاجيب مولاى الملك جواب شافيا ولنا رغبة كثيرة فى مشاهدتكم البهية ومخاطبتكم الادبية لنسر برؤياكم ونتفاوض فيما فيه صلاح للطرفين لاكن الامر امركم والذى تستحسنوه فهو عندنا مستحسن ونرجوكم ان تعلمونا بما تجدد عندكم من اخبار بلدنا المغربية ودمتم فى هناء وعافية والسلام كتبه فى مادريد (143) عاشر رجب من عام 1206

محمد بن عثمان
لطف الله به

(143 Madrid.

رسالة رقم 31

من محمد بن عثمان الى الكوندى دى اراندا

15 رجب 1206 هـ. = 9 مارس 1792 م.

ملف رقم 5818

بسم الله الرحمن الرحيم

الصاحب العزيز صاحب المنصب الاعلى والطريق الواضح الاجلى الكند اراندە(144) نعرفكم انه ورد على كتاب من حاكم طنجة يخبرنا فيه بوفاة(145) سلطاننا ملك المغربمولا يزيد وذلك قبل تاريخه باثنين وعشرين يوما وكذلك اخوه مولا هشام وان اهل المغرب اجتمعوا على بيعة اخيه الماجد الفاضل مولا مسلمة واخبرنى انه بعث الى مقام الوزارة بالتعريف بذلك وان الملك الجديد المبارك السعيد افصح بمودته للملك الشهير سلطان اسبانية وانه معه على الصلح والمهادنة ووعد بانه يسير معه باحسن سيرة وان تكون رعيته عنده مقدمة مفضلة على غيرها من رعايا الاجناس وطلبوا منى تعريفكم بذلك وتقرير هذا الحال اليكم لتروا رايكم والله الموفق. لاكن عندى الشكال فى صحة وفاة (145) مولا هشام بسبب تاريخ المكاتب الواردة من تلك الاطراف المراكشية اخبرونا فيها بالقضية وبوفاة(145) مولا يزيد وحده ومدة ما بين تلك المكاتب ومكتوب حاكم طنجة خمسة ايام يستبعد ورود الخبر فيها من تلك النواحى واعلمونا بما ثبت عندكم فى ذلك ولا بد ودمتم فى هناء وعافية ونحن عند ما تامروننا به فى خدمتكم والسلام كتبه فى مدريد (146) 15 رجب من عام 1206

محمد بن عثمان

لطف الله به

* * *

رسالة رقم 32

من محمد بن عثمان الى الكوندى دى اراندا

26 رجب 1206 هـ. = 20 مارس 1792 م .

ملف رقم 5818

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها السيد الكامل الاعتبار الوزير الكند اراندە (147) اما بعد فقد ثبت عندكم وفاة(148) مولاىالملك سلطن المغربمولا يزيد وتولية اخيه الاجلالسلطن

144) El conde de Aranda.

145) فى الاصل «وفات»

146) Madrid.

147) El conde de Aranda.

148) فى الاصل «وفات»

مولاى مسلمة كرى المملكة ولم تاتنى من عنده مكاتب جديدة اتصرف بها فى الكلام فى شان الصلح وقد لبثت مدة من نحو شهر من وفاة (148) مولاى الملك الى الان لاجل ان تاتينى من عنده مكاتب لفصل قضية الصلح فلم ياتنا شىء فظهر لى ان المقام ربما يكون غير مناسب او يظهر من الملك ميلان الى ان يبعث اليكم احدا آخر فمن اجل هذا ارغب منكم ان تعرفوا الملك الشهير سلطن اسبانية باننى اريد السفر الى حضرة ملكى ليساعدنا على السفر واطلب ان اواجهه ان امكن لاشكر فضله ومنته علينا واحسانه الينا ثم ان اراد الملك أن يعطينى الشروط التى بريد ان يعقد الصلح عليها مع سلطانى فنصحبها معى بالعجلة ونعطيها لمولاى الملك فيقبلها ويمضيها وتاتيكم ممضية فيتم الامر وقصدى بهذه الخدمة ان نودى بعض ما يجب على للملك من الحقوق فقد استغرقتنا نعمه ومننه ونحن عند امره فيما يامرنا به فان استصوب الملك راينا فلتوجهوا معنا رفيقا وتساعدونا فى امر السفر الى مالقة ومنها الى تطوان او طنجة والمرجو منكم الجواب من غير مماطلة ودمتم فى هناء وعافية والسلام سادس وعشرين رجب من عام 1206.

محمد بن عثمان

لطف الله بـه

* * *

رسـالـة رقـم 33

مـن **محمد بن عثمان** الـى **الكوندى دى اراندا**

14 رمـضـان 1206 هـ. = 6 مـاى 1792 م.

ملـف رقـم 5818

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها السيد الكامل الاعتبار المنتخب للوزارة العظمى بعد الاختيار والاختبار صاحبنا العزيز الكند ارنده(149) اما بعد تنهى لكريم علمكم اننا وصلنا مدينة قادس وابدى الينا حاكمها من البشاشة والترحيب ما يدل على ان ذلك باشارتكم وتنبيهكم وكذلك اخبرنا انه ورد عليه امركم بالوقوف فى تشييعنا وتعيين المركب لسفرنا وقد فعل ذلك كله وفق ما امرتم به وقد سافرنا يوم تاريخه الى الاوطان ان شاء الله تعلى فالمرجو منكم ان تنوبوا عنا فى الاعتراف لدى الملك بجميع ما اسدى الينا وفعل معنا من الاكرام وسابغ الانعام واننا

(149) El conde de Aranda.

فى خدمته على الاستمرار والدوام ما بقينا ونسل الله تعلى لكم ان يديمكم ويبقيكم سنين عديدة فى هناء وعافية ومهمى عرض لكم غرض اغنى فيه شيئا فها انا موجود للوقوف فيه بصدق واخلاص وسلم منا على السيدة ربة دارك والسلام كتبه فى قالص (150) رابع عشر رمضان من عام 1206

محمد بن عثمان
لطف الله بـه

* * *

رسالة رقم 34

من محمد بن عثمان الى الكوندى دى اراندا

14 رمضان 1206 هـ. = 6 ماى 1792 م.

ملف رقم 5818

بسم الله الرحمن الرحيم

ايها السيد عالى الشان الوزير الاعظم بالدولة الاصبنيولية الكند اراندە (151) اما بعد فاننا لما وصلنا الى قادس وجدنا هنالك فرشيشك بشك (152) الترجمان الذى قدم معنا من سبتة الى مادريد (153) وقد بقى معنا فى خدمة الملك بمادريد (153) الى ان بعثت اصحابى عندما اختلطت الامور فتوجه معهم الى قالص (154) بامر الدولة ثم انه ورد امر الدولة ثانيا بان يمكث فى قادس فبقى مقيما به الى الان مدة من نحو تسعة اشهر من غير خدمة ولا عمل ولا ما يستعين به على المقام ولا سيما وقد اعطيت له الوظيفة الترجمانية فى سبتة والان المرجو من كمال شفقتكم وحنانكم ان تسمحوا لهذا الرجل بالتوجه الى سبتة وطنه ومحل خدمته فانه تعلق بنا لظنه ان شفاعتنا عندكم لا تهمل وله معنا خدمة سالفة فى الصلح فى المدة التى قبل هذه وان ظهر لكم ما ترقونه اليه من الخدم فانه مستحق وانكم اهل لكل فضيلة وكذلك الجراح دن خواكن الردركس (155) الذى بعثتم معنا نرجوا منكم ان تجازوه عن مداواته ايانا وتوفوه ما وعدتم به وتنعموا عليه ودمتم فى هناء وعافية والسلام كتبه فى قالص (154) رابع عشر رمضان من عام 1206

محمد بن عثمان
لطف الله بـه

150) Cádiz.
151) El conde de Aranda.
152) Francisco Pacheco.
153) Madrid.
154) Cádiz.
155) Don Joaquin Rodriguez.

أمبروسيو هويسي ميراندة

علي بن يوسف واعماله في الاندلس

لم يصطدم تكوين الامبراطورية المرابطية بمصاعب وعقبات كبيرة، لانه بعد قيام ابن ياسين بالدعوة واتحاد عشائر الصحراء الاطلسية وقيام الامير ابى بكر اللمتونى بفتح سجلماسة اصبح من اليسير على خلفه يوسف بن تاشفين ان يستولى على ممالك الطوائف بالمغرب والاندلس لانه وجد في معظم الحالات ابواب بعض الامارات مفتوحة لعجزها عن المقاومة كمكناس وتلمسان او بتغلبه من غير جهد على مقاومة كل من فاس ووجدة وسبتة له (1) ولقد كان خضوع ملوك الطوائف بالاندلس بعد ان انصرف عنهم رعاياهم اسرع من ذلك، فبعد توحيد الامبراطورية لم يجد يوسف وابنه علي اية مشكلة داخلية ولا اصطدما بثورات واسعة موصولة كالثورات التى اضطر الموحدون والامويون الى قمعها بالمغرب والاندلس. ورغم كونهم غزاة يعملون للسيطرة على البلاد فقد قوبلوا اقتبالا حسنا لمذهبهم المالكى الخالص ولتفرغهم لحماية الاسلام لانهم جندوا حتى مواجهتهم الموحدين بالمغرب كل حميتهم وكل قواهم لمقاتلة العدو الوحيد الذى كان يهدد استقرار الاندلس والذى هو الممالك المسيحية بشبه الجزيرة .

ونحن لا نتوفر على مصادر كثيرة موثوق بها سواء كانت عربية او لاتينية لدراسة احداث تاريخ الاندلس منذ وفاة يوسف الى تشكيل السلسلة الثانية من ممالك الطوائف ووصول الموحدين. . فالمصادر الهامة التى تخبرنا حول هذه الفترة هى من الجانب الاسلامى «روض القرطاس» المؤلف بعد ثلاثة قرون وكذلك المستقون عنه والسائرون على منواله كابن خلدون فى كتابه «العبر» والناصرى السلاوى فى كتابه «الاستقصا». اما ابن ابى زرع فهو اذا كان يعرف الخطوط العامة للتاريخ الاسبانى المسلم فهو يحرفها باغلاطه الموصولة التى كان يقع فيها بدافع من عاطفته وكذلك بأخطائه فى ذكر التواريخ بالاضافة الى الحكايات والاقاصيص دون ان يتعرض الى نقد يجرد الحقائق ويجليها .

اما من الجانب المسيحى فان المصدر الهام هو تاريخ الفونسو السادس(2) الذى خصص الجزء الثانى منه للاقتتال مع المرابطين غير ان هذا الكتاب يمر بعهد

---

1) يعرض كتاب «البيان المغرب» فى قسمه الاول لتاريخ المرابطين فيبرهن على المبالغة والافراط اللذين اتبت بهما المعلومات الواردة فى كتاب «روض القرطاس».

2) طبعة ل. سانتشيث بيلدا – مدريد سنة 1950

علي فلا يتعرض له الى ان يزول حكم غرناطة الى ولده تاشفين سنة 523 الموافقة لسنة ثماني وعشرين ومائة والف. وهو يفصل الحديث حول هذه الفترة ولكن في اسلوب يفي باثبات التواريخ ولا يأتي بتفاصيل المعارك التي يغطيها بوقائع مذكورة في الكتب المقدسة وقلما تناسب الحادثة التي تذكر بشأنها. اما «تاريخ الاسقف» «ضون رودريغو خيمينيث دي رادا» فهو فقير في المعلومات الى حد بعيد عند ما يعرض لتاريخ هذه الفترة وهو ينساق للاقاصيص والاهازيج كما هو الملحوظ عند تعرضه لوقعة «أوقليش». اما «التواريخ الطليطلية» فهي دقيقة مع ايجازها وهي تفيد في اثبات بعض الوقائع وذكر تواريخها وان كانت تلك التواريخ لم تطبع لحد الساعة بما تتطلب من التحقيق والعناية.

اما بنو تاشفين فقد كان لهم كتاب متفقهون ومحققون فارخوا لاسرتهم تاريخا مفصلا. ومن هؤلاء ابن الصيرفي امين سر تاشفين بن علي الذي كتب كتاب «الانباء في سياسة الرؤساء» الذي ضاع ايضا كما ضاع كتابه «الانوار الجلية في اخبار الدولة المرابطية» الذي ذكره ابن الخطيب في كتابه «اعمال الاعلام» وفي كتاب «الاحاطة» ونقل عنه في بعض المناسبات كما ورد ذكره في كتاب «الحلل الموشية» وفي كتاب «البيان المغرب». ولا يمكننا ان نعتمد على كتاب «الاكليل في الدولة الحميرية» ولا على كتاب «المقباس» اللذين ورد ذكرهما في «البيان المغرب» و «روض القرطاس» و «الاحاطة» (3).

ونظرا الى استحالة التمكن من تثبيت تاريخ المرابطين على معلومات حقيقية فاني احاول تعويض ذلك النقص، ولو كان التعويض جزئيا بملء بعض الثغرات في القرن الثاني عشر وخاصة فيما يتعلق بالغرب الاسباني المغربي في عهد علي بن يوسف. وقد استندت على مخطوطين، فالمخطوط الاول هو الجزء الثالث من «البيان المغرب» لابن عذاري الذي يتعلق بتاريخ المرابطين والذي اكتشفه «ليفي بروفنسال» في حالة رديئة ببيت مهجور بجامع القرويين بفاس. اما المخطوط الثاني فهو الجزء الثالث عشر من كتاب «نظم الجمان» في التاريخ العام لابن القطان الذي كان امين السر للخليفة المرتضى الذي سبق آخر الخلفاء الموحدين، وقد أورد المؤرخ معلومات قيمة للغاية حول الوقائع التي جرت في الفترة المتراوحة بين سنتي 500 و 533 (1106 ــ 1138) . اما الاستاذ «بوش فيلا» فقد وضع تاريخا جامعا لعهد

---

3) يذكر «البيان» في القسم المقصور على تاريخ المرابطين المراجع التالية «الانصاري وعمر بن سعيد الخزرجي» و «المجموع المتفرق» (المجهول مؤلفه) ومعاصره ابا علي صالح ومحمدا بن الاخلف (مرجعه في وقعة الزلاقة) وابا بكر بن العلوب الذي ذكره كذلك صاحب «الحلل الموشية». اما بعد وقعة الزلاقة فيذكر ابن حمادة وابن اليسع بن عيسى الغافقي وابا بكر علي العشيري من بين آخرين بسبب مقاتلتهم للمرابطين.

المرابطين ضمنه كل الوثائق التي وقف عليها. وقد اقدم الاستاذ على عمله وهو كما يقول في مقدمة الكتاب على علم بقلة المصادر المعروفة المطبوعة ويتخوف ان تذهب المخطوطات الجديدة التي اعلن «ليفي بروفنسال» عن اكتشافها بقيمة كتابه وهو لا يزال حديث العهد (4). اما الدراسات التي أخص بها كتاب «البيان المغرب» وكتاب «نظم الجمان» فتثبت الداعي الى هذا التخوف في الوقت الذي تظهرنا فيه على انعدام النقد التاريخي الذي ادى الى قبول المعلومات الخاطئة المشوهة التي وردت في كتاب «روض القرطاس».

لم يكن من عادة المرابطين احترام حق الابن الاكبر في المناداة به وليا للعهد فقد خلف يوسف بن تاشفين عمه ابا بكر الامير اللمتوني، ولم يحترم حق ابراهيم بن ابي بكر عند ما طلب ملك والده. ونجد في كتاب «البيان المغرب» ان يوسف قد استغنى عند تعيين خلف له عن ولده من زينب «المعز بالله» وعن ولده الاكبر «تميم» وعين ابنه عليا خلفا له، مع انه كان اصغر سنا منهما. وقد سلك علي نفسه هذا السلوك اذ نفى ابنه الاكبر ابا بكر الى الصحراء عند ما احتج على عدم تقدير احقيته وانتهى الى سجنه بمدينة الجزيرة الخضراء وعين علي بن يوسف ولده «سير» خلفا له. فلما توفي هذا سنة 533 (1138) عين تاشفين الذي اجمع الناس على المناداة به ملكا عليهم. ولقد قام تاشفين نفسه على المناداة بولده ابراهيم خلفا له مع العلم بأنه كان لا يزال طفلا. وقد حل مكانه اسحاق الاخ الاصغر لعلي بمدينة مراكش فقتل بها على ايدي الموحدين. وهكذا نودي بعلي سنة 495 (2 ــ 1101) وليا للعهد من ابيه. وكان ابو محمد بن عبد الغفور هو الذي حرر صيغة البيعة. وانتقل يوسف في السنة التالية الى الاندلس لآخر مرة ليحمل قرطبة وغرناطة على الاعتراف به وذلك في شهر ذي الحجة من تلك السنة (سبتمبر 1103) (5).

واصبحت حالة يوسف خطيرة سنة 499 (6 ــ 1105) من المرض الذي اصيب به في السنة السابقة فتقلد ابنه علي مهام السلطة، وعزل محمدا ابن الحاج من عمالة غرناطة واقام مكانه ابا بكر بن ابراهيم اللمتوني. كما عزل القاضي المولى آنذاك على اشبيلية. وفي تلك الاثناء وصل اخوه الاكبر تميم الى مراكش قادما من شرق الاندلس. وعند ما توفي يوسف يوم فاتح محرم سنة 500 (2 سبتمبر 1106) نهض تميم ورؤساء القبائل المرابطية

4) «المرابطون» للسيد خ. بوش فيلا في مجلة «تطوان» سنة 1956

5) حفلة شهدها عبد المالك ليقدم الى يوسف هدايا والده المستعين بن هود سيد سرقسطة ــ راجع «البيان» صفحة 16

والمصمودية وغيرها ونادوا باخيه علي اميرا عليهم. ولقد كان اول عمل قام به ارسال تميم في جمع من القوات الى مكناس في وقت كان فيه ابن اخيه يحيى بن ابى بكر مقيما بمدينة فاس وعمه الامير مزدلي في تلمسان وقريبه ابو بكر بن ابراهيم في غرناطة للمحافظة على الامن بها وتأكيد بيعته على اهلها. اما اشبيلية فكان يقيم بها منذ افتتاحها قريب آخر هو المخلص «سير» الذي حكمها مدة سبعة وعشرين عاما. وهذه هي الرواية الواردة في «البيان المغرب» (6) اما كتاب «روض القرطاس» فيؤكد (7) ان يحيى بن ابي بكر قد ثار في فاس على عمه علي لانه كان يرى لنفسه حقا اكبر في العرش وان مزدلي عند ما غادر تلمسان الى مراكش للاعتراف بعلي استطاع اقناعه بمغبة الثورة والتوفيق بينه وبين عمه بصفة مؤقتة.

ولقد قام علي في تلك الاوقات باعداد جيشه وعبر البوغاز من سبتة الى الجزيرة الخضراء حيث نظم له الفقهاء والعلماء ورجال السلطة بالاندلس كلها استقبالا كبيرا(8). ولقد مدحه الشعراء ـ على نحو ما قام به الخليفة الموحدى عبد المؤمن من تقليد هذا العمل في جبل طارق ـ وعند ما تيقن من اخلاص الاندلس له ولى اخاه تميما على غرناطة وابا عبد الله محمد بن ابى بكر اللمتوني على قرطبة. غير انه اهمل شأن محمد بن الحاج اول الامر ليقلده الحكم بمدينة فاس قبل ان ينقله سنة 503 (10 ـ 1109) الى بلنسية.

وعاد علي الى مراكش مارا بسبتة بعد ان نظم ادارة الاندلس ووقف على احوال قشتالة ليقرر في السنة التالية حملته على «اقليج». ويقول كتاب «البيان» ان تميما هو الذى اعد الحملة بمجرد تعيينه عاملا على غرناطة ويؤكد صاحب «روض القرطاس» ان القيادة العليا على كل القوات كانت لتميم، بينما يؤكد صاحب «نظم الجمان» ان الذى قرر القيام بتلك الحملة هو ابن ابى الرانجة عامل قرطبة الذى اتصل بغيره من العمال المرابطين لتنظيم حشد القوت. ولم يكن لدينا الا مرجعان تقليديان احدهما عربى وهو «روض القرطاس» والآخر مسيحى وهو كتاب «التاريخ الاول العام». وقد وصفا ميدان معركة «اوقليش» ومصرع الامير «ضون سانتشو». اما روض القرطاس» فهو كعادته يضفى الصبغة المسرحية على عمل الامير وعمل تميم

---

6) صفحة 19

7) في الصفحة الحادية والستين بعد المائة من ترجمتي للكتاب

8) قابل كذلك عبد الملك عماد الدولة الذى عاد باسم والده المستعين سيد سرقسطة ليقدم اليه الولاء وهدية قيمة وزعها على افراد حاشيته يوم 11 ذى الحجة سنة 500 الموافق لثالث اغسطس عام 1107 ـ ولقد ورد ذكر هذا في الصفحة الخامسة عشرة من كتاب «البيان المرابطي». في نفس تلك السنة وصل محمد بن تومرت المهدى عند الموحدين فيما بعد الى قرطبة ليطلب العلم بها قبل ان ينتقل الى الشرق لاتمام تكوينه الديني والفلسفي الذى كان السبب المباشر لانهيار الامبراطورية المرابطية.

وكذلك يصف شدة المعركة حيث يقول ان عدد القتلى المسيحيين قد زاد على ثلاثة وعشرين الفا وان «الفونسو السادس» الشيخ ذا البنية المنهوكة قد مات من الحزن بعد عشرين يوما. اما من الجانب المسيحي فقد قام الاسقف «ضون رودريغو» فى كتابه «التاريخ» بجمع الاهازيج التى أوحت بها مأساة المعركة فى قشتالة حيث يشاد الى حد الخيال بشجاعة «غرسية اوردونييث» والقواد القشتاليين فى محاورات شعرية لطيفة. وليتعزى الفونسو عن فقد ولي العهد ثار لنفسه بمحاصرة علي فى قرطبة حيث اسر شخصا يدعى عبد الله كلفه فيما بعد بقتل صهره المعتمد (هكذا) واجبر عليا على طلب الصلح فاصبح يقدم الجزية لقشتالة. وهو بتحقيق هذه «النهاية السعيدة» حمل عليا الذى لم يكن آنذاك موجودا بالاندلس على العودة مذعورا الى المغرب. وهو لا ينتبه الى هذا التناقض الزمنى الكبير الذى يقع فيه عند ما يذكر هذا الحادث قبل وقعة الزلاقة بل وحتى قبل محاصرة سرقسطة وقدوم المرابطين انفسهم. وان المراجع العربية ككتاب «البيان المرابطي» وكتاب «نظم الجمان» قد مكنتنى من تصحيح الاخطاء التى وقع فيها ابن ابى زرع والاسقف «ضون رودريغو» وتحديد الوقائع على اساس المعلومات الواردة فى الرسالة المنسوبة الى تميم والتى تصف مجرى المعركة. وقد هزم القشتاليون الذين كان عددهم اقل بكثير من عدد المسلمين بفضل تطويق هؤلاء لهم من الجناحين بحيث اضطر «غرسية اوردونييث» وغيره من حماة الامير الى الفرار متوجهين الى «بلنشون» وقتلوا على ايدى السكان المسلمين تلك القرية التى كانت آنذاك فى قبضة النصارى وتعقبهم الفرسان المرابطون فذبحوهم (9) .

وكان الانتصار فى وقعة «اقليج» كما قال ابن الصيرفى امارة حسن الطالع لعلي الذى عزم آنذاك على اعداد حملة اخرى لتضييق الحصار على طليطلة من جانب «طلبيرة» فى الغرب كما فعل حكام الاندلس الاولون من جانبه للاستيلاء على «أقليج» من الشرق. ولم يكن الغرض من هذه الحملة محاصرة طليطلة واسترجاعها كما قيل اذا ما قبلنا الفقرة الواردة فى كتاب «التواريخ الطليطلية الاولى» (10) حيث يقال «نزل الملك علي على طليطلة وحاصرها ثمانية ايام من سنة 1148» . فمحاصرة المدينة بقصد استرجاعها كانت مهمة شاقة للغاية على المرابطين، فلم تكن مناوشة عاصمة الفونسو السادس الا نتيجة حتمية للاستيلاء على «طلبيرة»، فقد خرج علي من مراكش

9) انظر التطور التام للمعركة ونتائجها ودراسة مصادرها فى مقالى «المعارك الكبرى فى حملة الاسترجاع من الصفحات 103 الى 136

10) طبعتى لكتاب «التواريخ اللاتينية لحملة الاسترجاع» الجزء الثانى الصفحة 344

في النصف الثاني من سنة 502 (ربيع 1109) ـ ولو ان كتاب «الحلل الموشية» (11) ككتاب «نظم الجمان» (12) وكتاب «البيان المغرب» (13) يذكرون ان العبور الثاني الى العودة قد وقع سنة 503 ـ فقد تقدم علي لعبور المضيق وتوقف في غرناطة ينتظر عبور الجحافل المغربية واحتشاد القوات الاندلسية ثم توجه فيما بعد الى قرطبة حيث اقام بضعة ايام قبل ان يتوجه بجيشه في النهاية الى «طلبيرة» فاقام جيشه عليها في ضحى يوم الخميس ثالث عشر محرم (12 اغسطس 1109) اى بعد مرور شهر ونصف تقريبا على مصرع الفونسو السادس. وقد ابتدأ الهجوم صباح يوم الجمعة، الا انه كان من العسير الوصول الى اسوارها لان مياه نهر «التاجة» كانت تتدفق حول تلك الاسوار. ولقد كسر المسلمون السد وابتعد الماء عن باب المدينة وقام القاضي المشهور «ابن حمدين» يحرض المسلمين على القتال فاقتحموا المدينة يوم السبت 14 اغسطس (14) اى بعد مرور ثلاثة ايام على وصوله اليها وقتله النصارى الذين لم يتمكنوا من الاعتصام بالقلعة وتحريره للاسرى المسلمين الذين كانوا موجودين بها. اما الذين تمكنوا من الالتجاء الى تلك القصبة فلم يجدوا انفسهم قادرين عند ما اقبل الليل على الدفاع عنها فرموا بانفسهم في النهر وانسابوا بين معسكرات الفاتحين (15) للفرار الى بلادهم وقام علي بتطهير المسجد الجامع وترك على المدينة حامية من المشاة وحاملي السهام بقيادة احد المرابطين. ودفع به هذا النجاح الى الاقتراب من طليطلة فعسكر بجوارها مدة ثلاثة ايام هى ايام الخميس والجمعة والسبت من نفس ذلك الشهر ـ 19 و 20 و 21 اغسطس. ولما كان يوم الجمعة التالى 27 اغسطس انسحب عنها بعد ان اقتنع باستحالة فتحها دون ان يستعين على ذلك الفتح بآلات الحصار على ان يدوم تطويقها مدة طويلة. وقد استمرت هذه المعركة اربعين يوما لا غير اى ما يزيد على شهر اغسطس بقليل (16). ويضيف صاحب «نظم الجمان» (17) معلومات جديدة حول هذه الوقعة فيذكر فتح «قلعة هنارس» وحملة الانتقام الواسعة التي قام بها القشتاليون اثر انسحاب علي حيث قتل الف من المسلمين ودمرت احدى وستون قرية. ويمكن لهذه الاغارة ان تقارن بالهجوم الذى بوشر ضد القلعة من مدريد وكافة

---

11) الصفحة 102 من ترجمتي للكتاب

12) الورقة رقم 6 ر.

13) الصفحة رقم 21 من الرزمة رقم 1 بمكتبة القرويين.

14) كان اليوم السادس عشر حسب «التواريخ الطليطلية الثانية» الصفحة رقم 358 من طبعتي.

15) وهم متلثمون كالمرابطين حسب كتاب «نظم الجمان».

16) الصفحة رقم 21 من البيان المرابطي.

17) الورقة رقم 6 ف.

الاسترامادورا بين «الدويره» و «التاجة» والذي ورد ذكره في التواريخ الطليطلية الاولى» «18» .

ولا يمكننا ان نقبل الرواية العجيبة الواردة في «روض القرطاس» دون ان نتناولها بالنقد المطلوب. فقد ورد في هذا الكتاب ان عليا قد عبر المضيق يوم 15 محرم 503 (14 اغسطس 1109) فيما يزيد على مائة الف من الفرسان وانه توقف شهرا كاملا في قرطبة ثم وصل طليطلة بعد فتح «طلبيرة» والاستيلاء على سبعة وعشرين حصنا بناحية طليطلة بعد فتح مدريد ووادي الحجارة. وقد حاصر طليطلة مدة شهر ثم عاد الى قرطبة بعد ان الحق بها خسائر كبيرة وأمانها. وهكذا نرى المؤلف يخلط بين الحقائق والاكاذيب ويبالغ في الاحداث بما عهد فيه من عدم التثبت والاكتراث. اما المراجع العربية المحققة ككتاب «البيان المغرب» وكتاب «نظم الجمان» فتقتصر على وصفها «بمعركة طلبيرة» ـ وكتاب «الحلل الموشية» (19) وهو وحده الذي يحدد الامكنة فيقول انه عسكر امام طليطلة واخترق جناتها المجاورة فأتى عليها وان القشتاليين قد التجاوا الى القلاع فدافعوا عن انفسهم في تلك الحصون الحصينة .

اما مؤرخ الفونسو السادس (20) الذي افرد الجزء الثاني من كتابه لقتال المرابطين في قشتالة فقد ذكر ان عليا قد عبر المضيق بصحبة ولده تاشفين بعد مصرع الفونسو السادس مع العلم بأن تاشفين لم ينتقل الى الاندلس الا بعد تسعة عشر عاما اى في سنة 522 (1128) عند ما ولاه والده حكم غرناطة. وهو يتوسع في ذكر معركة سنة 503 فيضيف اليها تفاصيل من معارك جرت بعدها وكانت موجهة اول الامر من طرف حكام المدن الاندلسية الكبرى قبل ان يشرف عليها تاشفين نفسه. وهو يصف بعض وقائع الهجوم الاكبر على طليطلة بآلات الحصار عند باب المقورة واستماتة احرار برج القنطرة المقابلة لـ «سان سيرفاندو» . كما يذكر بعد سبعة ايام خروجا مفاجئا قام به المحاصرون فاحرقوا جهاز الاغارة الذي كان يتوفر عليه المرابطون والذي كان على شكل قطار. ولم يرد ذكر هذا القطار في غير هذا الكتاب الذي يشبه معظمه ذكر حوادث منقولة عن احد الكتب المقدسة وهو يذكر عليا في امكنة تقع بين نهر التاجة وجبال «وادي الرملة» ليفتح مدريد وطلبيرة و «اولموس» و «قلعة عنارس» .

وهو يجهل عمل علي في السنوات التالية او لا يتعرض لها. ويجعل كل تدخل المرابطين في الاندلس من اعمال تاشفين ويقتصر في ذكر اعمال

18) انظر الصفحتين رقم 344 و 345 من طبعتي .
19) انظر الصفحة رقم 165 من ترجمتي
20) انظر الصفحات 281 الى 287 .

والده على اثبات اعمال القرصنة التي قام بها امير البحر «محمد بن ميمون» وقد شرع «البيان المغرب» في ذكر تلك الاعمال ابتداء من سنة 511 (8 ـ 1117) (21) .

وعند ما يتفرغ صاحب «البيان المغرب» للتعليق على مقتل الفونسو السادس الذي حدث قبل فتح طلبيرة بشهر ونصف نجده يخرج عن الموضوع ليذكر نسب ملوك قشتالة واراغون ذكرا يشهد له بمعرفة تفوق معرفة المؤرخين اللاتينيين بانساب الملوك والامراء المسلمين لذلك العهد (22). فهو يقول عن غرسية ابن سانتشو ابازكا انه خلف ولدين احدهما سانتشو الذي ورث العرش والآخر هو الذي احرق المسجد الاعظم في «البيرة» وذهب الى البلاد الاسلامية فقتل في «رويدا» لسبب لم يورد له شرحا. وله بعض الملحوظات على كيفية تلفظ القشتاليين بحرف «القاء» وان لفظ «اينفانطي» يعني ابن الملك وهو مرادف للفظ سابور عند الفارسيين. اما فيما يرجع الى فيرناندو الاول ملك قشتالة وتقسيمه المملكة بين اولاده وقتال هؤلاء لبعضهم بعضا فيقول انه كان لسانتشو والفونسو اخت تسمى «اوراكا» وانها كانت تؤثر الفونسو بعطفها وانها قدمت بعض المال واغرت احد رجال سانتشو بقتله. فقد خرج سانتشو بقصد الصيد في جماعة من فرسانه كان بينهم الشخص المتآمر لقتله . ولقد تقدم الفرسان في سيرهم فاقترب ذلك الشخص من سانتشو بعد ان اعد رمحه فجرحه جروحا قاتلة ثم اسرع الى حصن «سامورة» حيث كانت «اوراكا» فنجا. وقد سارعت الاميرة الى مناداة الفونسو الذي اقبل في الحال فاستولى على الامارة. وعند ما استقر له الحكم امر بقتل قاتل اخيه وهو يقول بلغته «عمل حسن وعادة سيئة». ويذكر ان الفونسو ضاجع اخته «اوراكا» فجمع بين المسيحية والمجوسية. وقد طلب من الاساقفة ان يغفروا له ذنبه فساقوه الى احدى الكنائس العريقة في النبل . وبعد ذلك سجن اخاه «غرسية» ثم اغرى رجلا بتسميمه في السجن .

وفي هذه السنة نفسها اي سنة 503 (10 ـ 1109) نزل المستعين بن هود من حصن «رويدا» الى سرقسطة (23) ليحمل الناس على الاعتراف بولده عبد المالك وليا للعهد بلقب «عماد الدولة» . وعند ما حقق مبتغاه جمع جيشا عرمرما وخرج للقتال في شهر جمادى الثانية (27 دسمبر 1109 الى يوم (23 يناير

---

21) انظر الصفحة رقم 30 ان ارتقا«ربفيرتير» الذي لم يكن اسيرا وانما كان خبيث السريرة قد جرى فيما بعد لاننا نراه«في عملة لما اشتد الخلاف مع الموحدين في اعقاب ملك علي وبداية ملك تاشفين.

22) نصه غير مطبوع وانا الخصه هنا نظرا للتفاصيل الهامة التي اشتمل عليها.

23) انظر ترجمة عفيف التريك حول مملكة بني هود «مملكة سرقسطة في القرن الخامس للهجرة» اطروحته للدكتوراه سنة 1956.

١١١٠) فمر ببلدة «تطيلة» ودخلها وتوجه منها الى «ازنيدو» (24) فاستولى على ارباضها والتجأ سكانها الى الكنيسة المحصنة حيث ابرموا معاهدة معه وقدموا اليه المال وبعض الرهائن. ولما هم بالرجوع اغار على جميع جهات تلك المنطقة فلما اشرف على الحدود الاسلامية لحق به الفرسان المسيحيون في فاتح رجب (24 يناير ١١١٠) فهزموه وقتلوه كما قتلوا كثيرا من جنوده وفي الحين تقلد ابنه عبد المالك مهام الحكم فاعترف به اهل سرقسطة بعد ان الزموه بعدم استعمال المسيحيين واسترقاقهم وبعدم التدخل في شؤونهم ولما علم عامل بلنسية بهزيمة المستعين ومصرعه جمع قواته وقدم بعد شهر على سرقسطة بنية الاستيلاء عليها باسم علي. الا ان اهلها استطاعوا حمله على الرجوع عن فكرته تفاديا لاستدعاء عبد المالك لاهل اراغون فيتجدد القتال وسرعان ما لوحظ ان عبد المالك لم يف بما وعد فاستدعى اهل سرقسطة الامير محمد بن الحاج عامل بلنسية الذى قام مقام عبد الله بن فاطمة الذى الذى نقل الى غرناطة ثم طردوا الامير بعد مرور اربعة شهور على خلافته لوالده. وفي صباح يوم السبت ١٠ ذى الحجة ـ 31 ماى ١١١٠) دخل محمد بن الحاج «الجعفرية» واستولى على المدينة (25). اما عماد الدولة فقد قلد اباه واتصل في الحال بالفونسو ووعده بقلعة «تطيلة». وكان محمد بن الحاج على مقربة من تلك القلعة فعاد الى سرقسطة متبوعا بالفونسو الذى عسكر على بعد فرسخين من المدينة. اما محمد بن الحاج فقد سارع الى تنظيم الدفاع ورتب جنوده للقتال. الا انه قد مر اليوم دون ان يصطدم الجمعان، فلما كان المساء غادر كثير من السرقسطيين مواقعهم ودخلوا المدينة ثم انسحب الفرسان. ولما استغل الفونسو هذه الفرصة فقسم جيشه الى قسمين هاجم احدهما محمد بن الحاج وهاجم الآخر ابا يحيى الذى انفض رجاله من حوله فقتل مع عدد كثير من المسلمين عشية يوم الاحد خامس عشر ذى الحجة من نفس تلك السنة (5 يوليوز ١١١٠) (26).

واستمر الفونسو سنة 504 (20 يوليوز ١١١٠ ـ 9 يوليوز ١١١١) يهاجم منطقة سرقسطة بصحبة عبد المالك فوصل الى مسافة فرسخ واحد من المدينة وقد دافع عاملها عنها كما استطاع الى ان استنجد بابى عبد الله محمد بن عيسى عامل مرسية فتعقبا خطواته الى ان حاول علي بن كنفة اللمتوني مقاومة تلك الحملات فتوجه فى فصيلة مرابطية الى قلعة ايوب وعسكر امام

24) يرى (اوليطى) و (فالطييرا) و (ازنيدو) ان اشكال الكتابة متعددة مشكوك فيها سواء فى كتاب «البيان» او فى كتاب «التواريخ الطليطلية»

25) الصفحة رقم 22 من «البيان المرابطى» حيث يثبت ان اليوم كان يوم الثلاثاء .

26) كان هذا اليوم يوم ثلاثاء ايضا .

قلعة لعماد الدولة فحاصرها حصارا شديدا. ولما رأى سكانها انهم مقبلون على الغرق استغاثوا بسيدهم فارسل اليهم كتيبة مسيحية استعملت الكثير من الحيل لاقتحام القلعة فباغتتها عند ما اقبل الليل واسرت اميرها «ابن كنفة» وساقته الى «رويدا» حيث ظل فى الاسر بعض الوقت الى ان اطلق اثر ابرام الصلح لوقت معلوم (27) .

واستاء علي من فعل اخيه تميم عامل غرناطة وشقيقه الاكبر فعزله سنة 504 ونقله الى عمالة تلمسان التى هى دون عمالة غرناطة اهمية. ولعل هذا التبديل قد حدث اواخر السنة المذكورة لانه لم يكن امر الاستبدال فى المقاطعات الاندلسية يطول اكثر من شهر اذ فى سنة 505 (1111 ـ 1112) ولى علي حكم قرطبة وغرناطة والمرية جميعا عمه مزدلى الذى كانت اولى اعماله كما يذكر «البيان» حملة فاشلة على وادى الحجارة فى السنة التالية التى هى سنة 506 (1112 ـ 13) والتى اثارت نقمة اعدائه عليه وشكايتهم به. وامر علي باجراء بحث فى الموضوع يتناول سيرته، فلما علم مزدلى بذلك توجه مسرعا الى مراكش حيث برز اعماله واباد جميع الشبه واستعاد ثقة علي. ولقد ظل بالعاصمة حتى السنة التالية اى سنة 507 (1113 ـ 14) فعاد الى الاندلس واليا على قرطبة وغرناطة. ولما رأى انه قد رد الى مكانته السابقة اراد ان يظهر براهين جديدة على حميته الوطنية فمر باشبيلية وحصل من عاملها سير بن ابى بكر على جحفل من الحشم المرابطين وقوات اخرى توجه بها الى منطقة طليطلة بعد ان ضم اليها حاميتى قرطبة وغرناطة والنجدات التى استقدمها من المغرب. ولا يذكر «البيان المغرب» الا انه هدم المدينة وخربها ثم عاد مظفرا الى قرطبة (29). اما «التواريخ الطليطلية الثانية» (30) فتذكر بتدقيق انه فتح «اوريخا» فى سنة 1113. اما «تاريخ الفونسو السابع فهو لا يذكر تاريخا الا تاريخ مملكة «ضونيا اوراكا» حيث يقول ان ملك اشبيلية وملك قرطبة وغيرهما من الملوك والامراء المرابطين بالاندلس قد جمعوا جيشا عرمرما من الفرسان والمشاة والرماة فدخلوا

---

27) كتاب «البيان» من الصفحة رقم 23 الى نهايته. لم اعثر على اى شىء من المعلومات حول هذا الامير

28) الصفحة رقم 23 من كتاب «البيان المرابطى». وفى هذه السنة التى هى سنة 505 يطلعنا صاحب «البيان» نفسه على خبر عجيب هو ان المنصور بن سير بن مسلمة المعروف بابن الافطس قد خرج من ارض النصارى ومر باشبيلية متوجها الى مراكش حيث اقام بها اقامة هنيئة وكان له فيها منصب سام. ولما كان علي راجعا سنة 511 (1117) من حملته ضد مدينة كويمبرة ترامى مع عبد الله بن فاطمة غارة قواته على اراضى النصارى (انظر كذلك الصفحة رقم 28) ولا اعرف ما هى القرابة التى يمكن ان تكون لابن الافطس مع المتوكل ومع ولديه الذين قتلهم سير لما استسلمت مدينة بداخوث للمرابطين

29) انظر الصفحة رقم 25

30) انظر الصفحة رقم 358 من طبعتى.

فى اراضى طليطلة حيث فتحوا قلعة «اوريخا» بعد ان قتلوا عددا كبيرا من من المسيحيين واسروا كثيريـن آخريـن. كمـا استولـوا كذلـك على قلعة «زوريتا» (31) . وقد دارت المعركة قبل شهر ذى القعدة من نفس تلك السنة 1113 (14 ابريل 1114) التى مات فيها عامل اشبيلية الذى دفع قوات دائرته الى المزدلى دون ان يشارك فى تلك الحملة بخلاف ما يؤكد مـؤرخ الفونسو السابع (32) .

ولقد كان الامير سير احد المساعدين الرئيسيين ليوسف بالاضافة الى انه كانت له قرابة معه لانه تزوج من حواء بنت تاشفين آخر كان اخا ليوسف من امه وعما له فى نفس الوقت لانه لما مات تاشفين والد يوسف قام مقامه اخوه علي. ولقد كانا ابنى عمومة. ويقول صاحب «روض القرطاس» انه لما قسم يوسف مملكة المغرب الى اربع نواح سنة 467 (5 – 1074) ولاه عمالـة مكناس والفزاز. وهذه الرواية مشبوه فى صحتها. ولقد شهد وقعة الزلاقة التى ابلـى فيها البـلاء الحسن. فلمـا هـم يوسف بعـزل ملوك الطوائـف الاندلسيين هزم «الفـار فانييت» بالقـرب من المظفر عنـد ما كـان متوجها لنجدة المعتمد فلما احتل اشبيلية عين عامـلا عليها سنة 481 (1088). وقـد ظل فى هذا المنصب سبعا وعشرين من السنوات القمرية. وهـى مدة لـم يسبق لغيره ان اقام بمنصب من المناصب خلالها. ثم استولى بعد اشبيليـة على قرمونة ولبلة وشهد حصار «اليـدو» حيـث كـان ابـن الرشيـد ملـك مرسية يبحث عن حماية نفسه بتقديم العطايا. وفى سنة 487 (1094) استولى على بداخوس وقتل ملكها ابن الافطس وولديه. وراجت الشائعات وتواترت سنـة 498 (5 – 1104) مـؤكدة وجود يـوسف فى حالـة مرض خطير فعزم الفونسو على غزو منطقة اشبيلية فى ثلاثة آلاف وخمسمائة فرس فاستولى على غنائم وفيرة. الا انه لما وصل الى المكان المسمى «الموقاتى» (33) خرج اليه سير وتحصن باحد قلاعه وجمع الجيش وانتظر وصول محمد بن الحاج عامل غرناطة. ولما رأى القشتاليون جحافل المسلمين فروا فتعقبهم المرابطون وقتلوا منهم الفا وخمسمائة رجل حسب رواية «البيان». وفى سنة 500 (7 – 1106) بويع على فظل على ولاية اشبيلية. واستولى سنة 504 (ماى 1111) على شنترين ثم على يابرة واوبورطو ولشبونة وذلك بعد ان فتح بداخـوس

31) انظر الصفحات 293 – 295، ويقول كتاب «التاريخ» ان قورية والبلاط فى اكستريمادورا قد احتلتا ايضا .

32) يذكر «روض القرطاس» ان ابن زندغرسية (؟) قد حاصر «مدينة سيلي» سنة 507 مع العلم بان القشتاليين كانوا قد احتلوا هذه المدينة سنة 498 الموافقة لعام 1105 .

33) اسم لمكان مجهول، الصفحة رقم 17 من كتاب «البيان المرابطي»

سنة 487 كما يذكر «روض القرطاس». وحدث بعد ثلاث سنوات ان غادر اشبيلية بصحبة زوجته حواء وابنته فاطمة بنية تقديمها الى علي في مدينة مراكش وخرج سكان المدينة لوداعه بارباض «اغارناط» الا انه اصابته نوبة عند المساء فمات عند الفجر فى شهر جمادى الاولى (اكتوبر 1113) (35) او فى شهر ذى القعدة من نفس السنة (ابريل 1114) حسب رواية اخرى تستند على ان المناداة بيحيى خلفا لوالده قد جرت فى الشهر التالى اى فى شهر ذى الحجة الموافق لشهر ماى (36) .

وعاد مزدلى فى السنة التالية الى مهاجمة «ساغرا» طليطلة فى شهر يوليوز وهزم فى الشهر التالى «رودريغو اسناريس» فى مكان يسمى «بولغار» ؟ (37) وذلك يوم الاثنين ثالث اغسطس .

الا ان انتصارات مزدلى لم تدم طويلا. فلم تمض سنة واحدة على انتصاره فى «اوريخا» ووفاة الامير سير حتى استشهد فى ميدان القتال فى شهر شوال 508 (مارس 1115) عند ما كان يقاتل القشتاليين بضواحى «ماسطانة» (38) . وقد حملت جثته الى قرطبة غداة استشهاده يوم الثلاثاء فوصلتها يوم الاربعاء . وقد كان الامير مزدلى ايضا من اكبر المساعدين ليوسف علاوة على انه كان من اقربائه كذلك .

وقد اختلف الناس فى نسب المرابطين فقال الحمدانى وابن ابي زرع ان لهم قرابة بعرب حمير . الا ان ابن الصيرفى وهو مؤرخ هذا البيت المالك (39) يؤكد لنا انه رغم الابحاث التى اجراها حول نسب اللمتونيين الصحراويين فانه لم يتمكن ابدا من الذهاب الى ما بعد «تورغوت» اللمتونى الذى تفرعت عنه عدة فروع. فقد كان له ثلاثة ابناء هم محمد وحامد وابراهيم. وقد خلفه هذا الاخير فى الحكم فكان عمر وهو احد اولاده والدا لاميرين هما ابو زكرياء يحيى وابو بكر اللذان توليا بالتتالى امارة لمتونة الى ان استقل يوسف بالمغرب. وقد كان لوتورغوت حفيد من ولده ابراهيم هو تاشفين والد يوسف. وعليه فان الامراء الثلاثة وهم يحيى وابو بكر ويوسف كانوا ابناء عمومة لان والديهم كانا شقيقين وهما عمر وتاشفين .

---

34) اسم مكان مجهول

35) كتاب «البيان» الصفحة رقم 24

36) كتاب «البيان» الصفحة رقم 51

37) «التواريخ الطليطلية» ص 345 و«التواريخ الطليطلية الثانية» ص 358

38) اسم لمكان مجهول آخر يبعد مسيرة يوم واحد عن قرطبة نحو الشمال .

39) «البيان المرابطي» ص 26

وكان محمد هو الاب الثانـي من ابناء «تورغوت». ولقد كان لهذا الولد ابن سمي تاشفين ايضا وهو والد ابي بكر الذي كان ابا لسير عامل اشبيلية. ولعل والدة يوسف كانت قد تزوجت على التتالـي مـن تاشفيـن وتاشفيـن السابق ذكرهما. وقد كان حامد هو الابن الثالث لتورغوت فكان له ولد اسماه الحسن الذى كان والد الاميـر مزدلي. وهكذا تثبت الاواصر العائلية بيـن كل هؤلاء الامراء لان المرابطين كانوا يعطون لقب «الامير» لكافة افراد البيـت الحاكم كما كانوا ينعمـون بلقب «القائد» على كل شخصية من الشخصيـات اللمتونية التى كانت المناصـب الهامـة تسند اليهـا. ولقد كانوا يحكمـون مملكتهم بهذين النوعين من الحكام. ولقد اقتفى الموحدون هذا الاثر وان كانوا قد استبدلوا لفظ الامير بلفظ السيد ولفظ القائد بلفظ الشيخ .

ولقد كانت لنا لحد الآن فكرة غامضة جدا حول هذه الانسـاب التـى شرعنا الآن فى توضيحها بفضـل المعلومات الجزئية التى وقفـت عليها فـى كتاب «البيان» والتى اعتمدتها فى هـذه التحقيقـات. ولمـا كنا لا نعرف الا الاسمـاء المجـردة البارزة الرئيسيـة فاننا سنورد المعلومـات المتعلقة بترجمة مزدلى طبق ما وقفنا عليه فى «البيان» و «نظم الجمان» وهـو الرجـل الذى سقط فى ميدان الشرف. فلقد كان مزدلي ولدا لـ «سولنكان» او «بوبلنكان» او «مالنكان» ـ ولقد كانت والدته صحراوية ـ وابن عم يوسف بن تاشفين واحد كبار مساعديه كما كان من كبار مساعدى ابنه علـي. وقـد ذهـب فى شهر صفر 465 (اكتوبر 1073) لاخضاع سكان ناحية ملوية وعـاد فى شهر ربيـع الثانى بعد ثلاثة شهور امضاها فى النهوض بتلك المهمة. وفـى اوائل محـرم 468 (16 اغسطس 1075) ارسله يوسف لاحتلال تلمسان التى استسلمت بدون اى مقاومة فترك ابنه يحيى عاملا عليها. وكان ابراهيم بن ابى بكر امير لمتونة قد وصل الى اغمات سنة 469 (1076 ـ 77) للمطالبة بالسلطة التى اغتصبها يوسف بن تاشفيـن فارجعه هذا الى جادة الصواب. وفى سنة 494 (1101 ـ 1100) استولى على بلنسية بعد ان انسحبت عنها ضونيا خيمينا ارملة «السيد» وتوجه فى سنة سبع وتسعين واربعمائة (1103 ـ 4) الـى تلمسـان ليخلـف يوسف بن تنغمار. وفى سنة 500 (1106) ذهب الى مراكش للاعتراف بعلـي فحصل من يحيى بن ابى بكر اكبر اولاد يوسف على التعهد بعـدم منازعـة علي على العرش من مدينة فاس التى كان مولى عليها .

وفى سنـة 505 (1111 ـ 12) عين عامـلا على قرطبة وغرناطة والمرية خلفا لتميم بن يوسف. اما فى سنة 506 (1112 ـ 13) فقد هاجم وادى الحجارة دون ان ينجح فى مراده فذهب الى مراكش ليبرر عمله امام علي. وعاد الـى

قرطبة في السنة التالية فجمع جيشا كبيرا وفتح «اوريخا» وعاقب منطقة طليطلة ثم حاصر «ألفار فانييث» في مونيسانت غير انه لما حل شهر شوال من السنة التالية (فبراير 1115) هزم وقتل بمقربة حصن «ماسطانا». وخلفه ولده محمد في عمالة قرطبة فهزم وقتل ايضا وذلك يوم فاتح صفر الموافق للسادس والعشرين من يونيه 1115. اما الابن الآخر لمزدلي وهو عبد الله فقد عين عاملا على غرناطة وانهزم بالقرب من «بياسة». اما الابنان الاخيران لمزدلي فهما «سير» الذي حارب الموحدين سنة 525 بالاطلس الكبير فهزم وابو بكر الذي كان عاملا على تلمسان ففر سنة 537 مع تاشفين ليصبح سنة 539 (45 ـ 1144) آخر عامل على اشبيلية كما ورد ذكره في «البيان المغرب» . غير ان «البيذق» يقول انه فر الى وهران لما هوجمت تلمسان ومات مجنونا بعد ثلاثة ايام .

وفي سنة 508 (1114) التي هزم فيها مزدلي ولقي حتفه توفي القاضي الشهير ابو عبد الله بن حمدين ويوسف بن تاشفين وعلي . ويقول صاحب «نظم الجمان» في الاستيلاء على ميورقة ونهبها (40) انه قد اعدت مائة وعشرون سفينة لاسترجاعها فلما وصلت السفن امامها كان العدو قد غادرها

ولما علم علي بوفاة مزدلي ولى ولديه عبد الله ومحمدا على عمالتي غرناطة وقرطبة اللتين اشرف عليهما ابوهما. الا انه ما كاد محمد يتقلد مهام سلطته في قرطبة حتى عاد القشتاليون الى الدخول في منطقتها. فلما خرج العامل الجديد لمحاربتهم دارت معركة مريرة قتل فيها يوم الخميس فاتح صفر 509 الموافق ليوم 25 يونيه 1115 اى بعد مرور ثلاثة شهور على مصرع والده. وقد قتل معه الامراء محمد بن الحاج عامل سرقسطة (41) وابن اسحاق ابن دانية وابو بكر بن واسينو وكلهم من اقرباء علي. وقتل في هذه المعركة المريرة ايضا ما يقرب من ثمانين شخصية اخرى من المرابطين علاوة على عدد كثير من المرتزقة والجنود الاندلسيين (42) ولم يرد ذكر لهذه الوقعة الا في كتاب «البيان المغرب» .

وقد كان هذا الانهزام انكسارا خطيرا، فلما علم علي بخبره ولى عمالة قرطبة الامير ابا بكر بن يحيى بن تاشفين ابن عمه يحيى الذي كان اخا لوالده يوسف من امه. ولم يكد هذا العامل الجديد يصل ايضا الى قرطبة حتى اعاد العدو المسيحي هجماته. وقد خرج اليه ابو بكر بن يحيى فاستنجد بعامل غرناطة عبد الله بن مزدلي. غير انه لم يكد يلحق بالقشتاليين بنواحي

40) الورقة رقم 5 ر.

41) ذكر «روض القرطاس» مصرعه في السنة الفارطة ابان معركة «كونغوست مارطوريل» لما كان راجعا مع ابن عائشة من حملته فوصلا الى ضواحي برشلونة لما مرا بقرية «سيرفيرا»

42) معلومات فريدة وردت في «البيان المرابطي» ص 20

«بياسة» حتى انهزم المرابطون مرة أخرى وذلك يوم الاربعاء 28 جمادى الثانية الموافق لحادى عشر نوفمبر 1115 (43). وهكذا انهزم المسلمون ثلاث مرات هذه السنة في ظرف ثمانية شهور. اما «التواريخ الطليطلية» فقد ذكرت المعركة الاولى ولم تتعرض للمعركتين الاخيرتين .

ولقد كان محمد بن الحاج احد الاصدقاء الخلص والمساعدين الرئيسيين ليوسف . وكان جده هو محمد بن تورغوت. وعرف ابوه بالحاج لادائه هذه الفريضة كما عرف ولداه محمد وعلي بابني الحاج. ولقد ارسل يوسف محمدا سنة 484 لاحتلال قرطبة ففتحها وقتل المامون عاملها الذى كان ولدا للمعتمد(44) وعند ما حل يوسف بالاندلس للمرة الثالثة سنة 490 الموافقة لعام 1097 بعث محمدا ضد طليطلة فهزم الفونسو السادس في «كونسويغرة» يوم السبت خامس عشر اغسطس (45) وساعد سنة 493 على فتح حصون ملوك الطوائف ولقد كان اخوه ابو الحسن علي بن الحاج عاملا على غرناطة سنة 496 (3 ـ 1102) فتوجه الى القتال بشرق الجزيرة بينما عاد يوسف الى المغرب من زيارته الرابعة للاندلس. ولما فتح الفونسو السادس «مديناسيلي» اجتمع بعبد الله بن فاطمة في «قلهرة» فرد الهجوم من ناحية طليطلة وطلبيرة حيث سقط في ميدان القتال. ولقد خلفه محمد بن الحاج على عمالة غرناطة سنة 493 (5 ـ 1104) فهب مع عامل اشبيلية الى ايقاف هجومات الفونسو السادس في «المقاطع». ولا شك في ان فشله في هذه المهمة هو الذى ادى الى عزله سنة 499 (6 ـ 1105) فظل مبعدا الى ان عين سنة 501 (8 ـ 1107) عاملا على فاس لينتقل بعد سنتين الى بلنسية حيث خلف عبد الله بن فاطمة الذى ولي بدوره عمالة اشبيلية. وتوجه من بلنسية الى سرقسطة بعد ان استدعاه اهلها فاحتلها يوم السبت عاشر ذى الحجة الموافق لفاتح يونيه 1110 ـ ولقد واصل القتال عدة سنوات ضد الفونسو الملقب بالمحارب وضد خليفه عماد الدولة سيد «رويدة». وفي عام ثمانية وخمسمائة الموافق سنة 15 ـ 1114 توجه مع ابي عبد الله بن عيسى للقتال في قطالونيا فشارك في معركة

43) «البيان» ص 26

44) يؤكد «روض القرطاس» ان الباتي هو الذى هاجم قرطبة بعد ان احتل جيان وذلك يوم الاربعاء ثالث صفر 484 الموافق ليوم 27 مارس 1091 ثم احتل (بيضة) و (عبيدة) و (البلاط) و (المظفر) و (الصخيرة) و (سيغورا) وكل ذلك في شهر صفر نفسه (؟). ص 158 من ترجمتي ونحن نعرف الباتي بن اسماعيل اللمتوني الذى اعطاه يوسف قيادة الجيش لاحتلال مكناسة سنة 466 فاستسلم له اميرها الخير بن خزر الزناتي من غير مقاومة «البيان المرابطي» ص 12 الى نهايتها وص 13

45) تؤكد «التواريخ الطليطلية الاولى» انه هزمه يوم السبت الرابع عشر من الشهر وان الفونسو دخل «كونسويغرا» يوم الاحد الخامس عشر الذى هو يوم عيد العذراء حيث ظل محاصرا سبعة ايام. ص 343 من طبعتي

كونغست مارطوريل «التي لم يقتل فيها كما روى «روض القرطاس» لانه شارك خلال السنة التالية في المعركة التي قتل فيها بصحبة محمد بن مزدلي كما رأينا من قبل. وكان لعلي بن الحاج ولد يسمى ابو زكرياء يحيى فولى عمالة اشبيلية من شهر محرم 523 الى شهر صفر من السنة التالية اى انه ظل عاملا بها خلال سنة وشهرين. ولقد خلفه في هذا المنصب اخوه عمر الذى انهزم سنة 524 (1130) بمكان يسمى «ازاريدا» قرب اشبيلية. ويذكر «نظم الجمان» ان شخصا يسمى ابا عبد الله بن الحاج قد ولي القضاء في قرطبة فاغتيل ابان صلاة الجمعة بالمسجد سنة 529 في اليوم الموافق لخامس عشر ديسمبر 1134 ـ غير انى اجهل ما اذا كان هذا الشخص ينتمي الى نفس البيت (46)

اما الذى خلف محمد بن الحاج في عمالة سرقسطة سنة 509 (16 ـ 1115) فهو الامير ابو يحيى او ابو بكر بن ابراهيم حسب كتاب «البيان المغرب». وكان اول اعماله سنة 510 (17 ـ 1116) خروجه لمهاجمة «رويدة» مقر عماد الدولة. الا انه لم يزد على تخريب ارباضها. ولما عجز عن فتح هذه المدينة توجه الى «بورخاء» التي عجز ايضا عن فتحها فعاد الى سرقسطة بعد ان صالح اهلها (47) .

وفرغ خلال فصلي الخريف والشتاء من هذا العام لاعداد حملته الجديدة الثالثة على الاندلس ليثأر من الهزائم الدامية العديدة التي مني بها بها عماله عليها. الا انه فضل مهاجمة مملكة البرتغال الفتية بدلا من مهاجمة قشتالة او قاطالونية حيث كانت شوكة المسيحيين قوية املا منه في الحصول على نصر سهل يثأر به لهزائمه .

وقد قطع البحر اواخر شهر محرم سنة 511 (فاتح يونيه 1117) فتوجه الى اشبيلية حيث احتشدت قوات المرابطين القادمة من المغرب والجنود الاندلسيون الذين استكتبهم فقهاء قرطبة واشبيلية وعلماؤها. ويقول صاحب «البيان» انه حاصرها مدة عشرين يوما (48). ويثبت صاحب «الكرونيكون»

46) يورد «البيان المغرب» قصة هذا الاغتيال، غير انه يسمي القاضي المغتال احمد بن خلف الطوبيبي ويضيف ان رفيق القاتل قد جعل يدمغ السيف وان الاثنين قد قتلا فلما هاج الناس دخلوا مقصورة المسجد بعد ان اوقفوا الصلاة وقد اخرج المرابطون سيوفهم فاخرجوا تاشفين من باب الساباط الموجود بين المسجد والقصر . ص 40».

47) «البيان المرابطي» ص 27، وهو يذكر في نفس هذه الصفحة هجوم اسطول على ابن يحيى بن تميم سيد المهدية على جزيرة جربة التي اخضعها لسلطته فهذا البحر. اما «التواريخ الطليطلية التالية» فتذكر اخبارا لم تؤكدها مصادر اخرى وهي ان القائد ابا زيد بن الحارث قد قبض والقى به من اعلى القصر وان قائد «آوريخا» قد فر الى سيمبسليا (هكذا) وان هذا القائد نفسه قد هزم في «بولان» يوم 1 اغسطس 1116 ، ص 358 ـ 359

48) ص 28

كونيمبريسينسي» هذا القول اذ يؤكد ان الحصار قد ابتدأ يوم 18 صفر الموافق لليوم الثاني والعشرين من يونيه سنة 1117. وفي هذا ما يبرهن على ان عليا قد باشر اعماله بمنتهى السرعة لانه في مدة لا تتجاوز خمسة عشر يوما قطع المضيق وحشد قواته في اشبيلية ووصل الى احواز «كويمبرا» بنية مباغتتها. وقد ظهر مرة اخرى عجز المرابطين عن اقتحام المدن الهامة المسورة. ويذكر صاحب «الكرونيكون لوسيتانو» ان عليا قد قضى عشرين يوما يشن الهجمات الموصولة دون اية نتيجة. (49). ويضيف صاحب «البيان» ان اللواءين عبد الله بن فاطمة والمنصور بن الافطس قد اشاعا الخراب والدمار في الجهات التي مرا بها من المملكة البرتغالية الناشئة. وهكذا يتضح ان مدينة «كويمبرا» لم تفتح بخلاف ما ينفرد صاحب كتاب «الحلل الموشية» بتاكيده (50) . ولما كان خبر فتح هذه المدينة البرتغالية لم يرد له ذكر لا في كتاب «روض القرطاس» ولا في كتاب «العبر» فقد قبل الرأي القائل بفتحها والجلاء عنها في الحين .

ويذكر صاحب «البيان» انه قد صدر سنة 511 تعيين عدة قضاة بعد معركة «كويمبرا». فقد قام بتولية القضاء في قرطبة ابا الوليد بن رشد وولى ابن حماد قاضيا على غرناطة ورقى ابا الحسن سريع بن محمد ابي سريع الرعيني الى درجة القضاء باشبيلية كما اسند هذه المهمة الى سعيد في مدينة المرية. وفي شهر شوال عين ابراهيم بن يوسف اخو علي عاملا على اشبيلية ثم نقل الى سبتة واحتفظ بهذا المنصب الى شهر جمادى الاولى سنة 516 التي عزل فيها، اي خلال اربع سنوات وتسعة شهور.

ونحن نلاحظ نقصا وفراغا فيما يتعلق باحداث السنوات 511 الى 516 سواء في كتاب «البيان» او في «نظم الجمان». فانا لم اجد في هذين الكتابين ما يشير الى تمرد قرطبة ولا الى الزيارة الرابعة التي قام بها علي للاندلس. وكل ما نعرف بواسطة كتاب «البيان المغرب» هو ان عليا قد التقى في طريف بأخيه تميم لما كان في طريقه الى المغرب. اما تميم فكان عائدا من غرناطة التي وصلها في شهر رمضان 515 (13 نوفمبر – 12 دسمبر 1121) (51). ومن هذا نستنتج ان عليا قد عبر البوغاز اوائل شهر نوفمبر من هذا العام.

---

49) «تاريخ ملوك البرتغال السبعة الاولين» «ص 25 من الجزء الاول من طبعة داسيلفا. وهو يؤكد ان محاصرة كويمبرة قد ابتدأت قبل انتهاء شهر يونيه 1117 بتسعة ايام واستمر الحصار احدا وعشرين يوما. و يضيف قائلا ان الجوع والطاعون قد انهكا جيش المرابطين فضاع 300.000 (؟) وان المدينة كانت مضمونة التموين .

50) ص 103 من ترجمتي لكتاب «اعمال الاعلام». ويقول صاحب هذا الكتاب انه حاصرها

51) في شهر جمادى الثانية سنة 516 (الموافق لشهري اغسطس وسبتمبر 1122) نقل الى اشبيلية فظل عاملا عليها اكثر من سنة واربعة شهور قبل ان يعزل في شهر ذي الحجة 517 (يناير – فبراير 1124) ليخلفه ابو بكر بن علي بن يوسف الذي كان اكبر انجال علي .

ونحن لا نجد في كتاب «البيان» ايضا خلال الفترة المتراوحة بين 516 و 519 الا اشارات عابرة لهجمات المراكب الجهادية برئاسة امير البحر المرابطي ابي عبد الله محمد بن ميمون على المدن الساحلية بجزيرة صقلية والى تطور الحركة الموحدية. ويؤكد «البيان» (52) فيما يتعلق بهذا التطور ان المهدى قد قرر سنة 518 الانتقال من مسقط رأسه الى اقليم هزميرة بالاطلس الكبير حيث قتل كل السكان في «تينمل» بعد ان عاجمهم مؤيدا من طرف السكان المناصرين له. ولما قام بهذه المذبحة عاب عليه احد فقهاء افريقية كان يعد احد فقهاء الجماعة ما فعل من قتل ونهب لاناس اعترفوا به ودخلوا في طاعته، فامر بقتله. ولما انهى تقتيل سكان «تينمل» ونهبهم بنى في نفس السنة حصن «تينمل» حيث اقام اتباعه من قبائل اخرى. واخذ علي يهتم بهذه الحوادث فوجه ضده عدة قوات منيت بالهزيمة .

ويمكننا في سنة 519 (26 ـ 1125) ان نتتبع خيط الوصف الوارد في كتاب «البيان المرابطي» الذى يحكي لنا كيف ان المهدى قام في هذه السنة بتطهير الجبال من المصامدة. وقد حضرت الجموع امام ابي محمد البشير فوضع على يمينه من كان يعتقد بالمهدى وجعل على يساره من كان يشك في مهمته الالهية فقتل هؤلاء باعتبارهم من اهل الجحيم (53) .

وياتي صاحب «البيان» فيما بعد بموجز مفصل للمعركة الشهيرة التي دارت في الاندلس مع الفونسو الملقب بالمحارب فنقل كل الوصف الدقيق الجامع الذى كتبه ابن الصيرفي كما فعل صاحب «الحلل الموشية» وابن الخطيب في كتاب «الاحاطة» . ولما كان دوزى قد قام في كتابه «الابحاث» بدراسة هذه الوقعة والتعليق عليها ونشر نصي المصدرين المعروفين الآن فاني ساكتفي بتلخيص وصف «البيان» .

اخذ النصارى الذين كانوا في ذمة المسلمين بجبال «الدروع» و «البوخاراس» يكتبون ويبعثون الرسل الى الفونسو في حثه على مهاجمة غرناطة واحتلالها. وقد بعثوا اليه قوائم بأسماء مقاتليهم ووصفا جامعا لمغاني غرناطة وقصرها. وأعجب الملك بذلك الوصف وتلك الوعود فجيش 5000 حصانا و 15.000 راجلا وخرج الى القتال يوم فاتح شعبان الموافق لثاني سبتمبر 1125 دون ان يعرف سيره الا عند ما وصل الى بلنسية يوم الثلاثاء 20 رمضان الموافق ليوم 20 اكتوبر اى بعد خمسين يوما. ولقد اقام معسكره وجعل يتنقل من مكان الى آخر بعد ان انضم اليه عدد من النصارى الذميين الى ان وصل «غواديس» فعسكر في القلعة على بعد فرسخ واحد عن المدينة

52) ص 312 انظر الجزء الاول من كتابي «تاريخ الامبراطورية الموحدية»
53) ص 31

حيث ظل عشرة ايام من شهر شوال ـ 18 نوفمبر ـ يستعجل النصارى الذميين الى الالتحاق بصفوفه ويعيب عليهم تقاعدهم وتأخرهم. اما الامير ابو الطاهر تميم فقد اهتم بعددهم وعدتهم. الا انه لم يستطع القيام بأي شيء امام كثرتهم وبعدهم. وعند ما نزل النصارى الذميون من قمم الجبال وانضموا اليه بكثرة ضيق الفونسو الحصار على «غواديس» من الجنـوب (54). واعاد الكرة في اليوم التالي واقام معسكره عند النهر. وشعر السكان بانهم محاصرون حقا لما احتل النصارى الضواحي التي تفصلها الاسوار عن المدينة. ولما علم علي بخبر هجوم الفونسو بعث الى المغرب يستقدم القوات للاندلس. وتوجه ابن راميرو ـ الفونسو ـ مغادرا «غواديس» فاحتل «باسا» يوم عيد الاضحى الموافق لسابع يناير 1126 وصلى الناس صلاة القصر والاسلحة بين ايديهم. وغادر الامير ابو الطاهر غرناطة في جنوده ليلتقي بالعدو فسار عدة اميال ثم رجع الى المدينة. وظهرت خيام العدو في اليوم التالي لرجوعه على بعد فرسخين . وقد وصلت الطلائع مخبرة بقدوم العدو فقطعت الطرق وقل الغـذاء واحتشد الناس في المدينة فتفشى فيها الذعر... (55). وتجمهر سكان البادية حول الاسوار فلم يبق بالبيوت الا الاطفال والنساء. وقد استمر تهاطـل الامطـار فطغت المياه الطرق ورأى الناس انفسهم في هم شديد .

ومكث الفونسو في معسكره عشرة ايام دون ان يغـادره او يغير على اعدائه. ولم يكن جنوده يفترقون عن بعضهم البعـض بينمـا كـان النصـارى الذميون يحملون اليهم الطعام والعلف. اما الفونسو فقد عاب على احد قواده من النصارى الذميين وكان يسمى ابن القلاس ابطاءه في الاتيان اليه بما كان في حاجة اليه في الوقت الذي كانت فيه قوات المسلمين تصل من المغرب كما تصل من شرق الاندلس وغربها. واخذ الفونسو يتنقل من مكان الى آخر حتى وصل جبل «قبرة» فرأى المسلمون معسكرهم الذي كان من قبل تغطيه الجبال والاحراش. ولما انصرم بقواته عن ضواحي غرناطة واشبيلية وصل الامير ابو بكر ابن امير المؤمنين فأقام يوما ثم سار في قواته يتعقب العـدو الـذي اقام بجبل «قبرة» بضعة ايـام فلما غادره سـار المسلمـون يلاحقونـه حتـى اصبحوا على يمينه ويساره عند ما وصل قلعة «ارنيسول» يوم الاربعاء ثالث عشر صفر الموافق لعاشر مارس فدارت طيلة ذلك اليوم عدة معـارك انهـزم فيها الامير. ولما غربت الشمس امر تميم بنقل الخيام التي كانت في السهل الى هضبة مرتفعة فاختل النظام وساء الفهم فظن الناس ان الساعـة ساعـة الفرار وعادوا الى المؤخرة. غير ان العدو لم يجرؤ على ولوج المعسكر الا عند ما تقدم الليـل .

54) فراغ يسع كلمتين

55) لا يـقـرأ

وعند ذلك اخذ يتوجه نحو الشاطىء وعاد الى غرناطة حيث اقام قيادته على بعد ثلاثة فراسخ عنها. ولقد مكث بالمكان ثلاثة ايام فلما كان اليوم الرابع... اجتمع جنوده واقاموا خيامهم على مقربة من الزاوية، وصمد ابو حفص بن توزجين مع القوات الآتية من مكناسة. ولقد نزل الفونسو الى السهل وجعل يطارده. فلما اخذ الفرسان يهاجمونه اضطر الى الاقامة. ثم غادر المكان الذى عسكر به وعاد الى «غواديس». غير ان عينعلوا اللمتونى الذى كان يقود القوات الآتية من فاس تقدم الفونسو نحو النهر حيث هاجمه وقتل العدد العديد من رجاله منهم رئيس كبير. وجعل الفونسو يرد الهجوم تلو الهجوم دون ان يحسن الدفاع الى ان احاط به عدوه فى سهل «كارافاكا» بناحية مرسية. وانتقل بقواته الى قلعة شاطبة والمسلمون فى اعقابه يسببون لجيشه الخسائر البليغة. ولقد ترك فى كل مكان عددا من الموتى والمرضى ولم يطمئن على نفسه حتى وصل بلاده مهزوما (56).

وسار صاحب «البيان» على عادته فى تلخيص وصف مطاردته بحذف الكثير من التفاصيل والجزئيات حول الاماكن التى مر بها الفونسو المحارب. غير انه يظهرنا مقابل ذلك على معلومات جديدة لم نجدها عند ابن الصيرفى. ومن هذه المعلومات وصوله امام بلنسية يوم 20 رمضان ـ 20 اكتوبر ـ اى بعد خمسين يوما على خروجه من سرقسطة ثم اقامته بمكان يبعد بفرسخ واحد عن مدينة «غواديس» فى المكان المسمى «القصر» حيث التحق به النصارى الذميون وكان من شان التجنيد الذى امر به علي فى الاندلس والمغرب ان جعل ابا بكر وهو اكبر انجال علي يقدم على «غواديس» فى قوات قدم بها من اشبيلية التى كان عاملا عليها فأرغم الفونسو على رفع الحصار عن تلك المدينة دون ان يتمكن من فتحها.

اما تاريخ وقعة «أرنيسول» الذى لم يذكره ابن الصيرفي فهو محقق ويتفق مع التاريخ الذى ذكره محشى «المسائل الفقهية» لابن رشد الجد الذى ذكره «دوزى». ثم انه يذكر لنا المكان الذى عسكر فيه الفونسو من جديد على مقربة من غرناطة وهو المكان المعروف بالزاوية كما يذكر لنا الوصول المتأخر للنجدات الافريقية مع القوات المكناسية بقيادة ابى حفص بن توزجين وقوات فاس برئاسة «عينعلو» الذى كان عاملا عليها والذى هاجم الفونسو فهزمه بعد ان قتل له احد القادة الرئيسيين. ولما انتهت الحملة كافأه علي على هذا النصر فولاه عمالة غرناطة خلفا لاخيه الاكبر تميم الذى برهن على قصوره.

56) «البيان المرابطى» ص 31 و 32

ونظرا الى الاثر السيء الذي خلفته هذه الحملة سواء في الاندلس او في المغرب انتقل ابو الوليد بن رشد قاضي قرطبة الى مراكش ليتباحث حول خطر النصارى الذميين الموجودين بمنطقة غرناطة وحول كيفية عقابهم ونفي بعضهم الى المغرب بالاضافة الى تسوير مراكش وتحصينها بكيفية نهائية وقد وقفنا على هذه المعلومات في مصادر اخرى. الا ان كتاب «البيان» يظهرنا على ان المقابلة التي دارت بين علي وابن رشد جد العالم لم تدر فقط حول سلامة الامبراطورية وهجمات الموحدين عليها وتكاثر اخطارها يوما بعد يوم وانما دارت ايضا حول الضرورة المستعجلة الى تجديد وتحصين الحصون المحيطة بالمدن الاندلسية الكبرى نظرا الى ما كان يتهددها من حملات النصارى التي كانت تزداد قوة وتنظيما كما ظهر في الحملة الاخيرة التي قام بها الفونسو المحارب والتي دامت اكثر من سنة فلم تجد مقاومة جديدة في الاندلس كلها .

وكتب علي الى عماله يامرهم بالتعجيل في اصلاح مراكز الدفاع عن المدن الكبرى بعد ان اتخذ الاجراء الاول بعزل اخيه الامير ابي الطاهر تميم من عمالتي قرطبة وغرناطة في شهر رمضان سنة 520 – اكتوبر سنة 1126 نظرا الى عدم خبرته وتقصيره وتوالي فشله عند الغزو الذي قام به اهل اراغون (57) وقد ولى عمالة غرناطة ابا عمر عينعلو حفيد يوسف بن تاشفين وولى ابا حفص عمر بن سير على عمالة قرطبة. وامر عامل غرناطة الجديد في الحال باصلاح الاسوار واتفق مع القاضي ابي القاسم الورد ومع ناظر املاك التاج ابي علي هدبة على اسناد ادارة الاعمال الى رجل من بني نجبة. ولقد خرج متجها الى «أوقليش» في قافلة للتموين لما شرع في انجاز تلك الاعمال. ولقد خرج عليه جيش قوي من القشتاليين فتغلب عليه وعاد ظافرا الى غرناطة بعد ان بلغ مراده. وعاد الى الاغارة على منطقة طليطلة بقواته وقوات من قرطبة فرجع مظفرا الى مقر عمالته .

اما المكلف بانجاز الاعمال والاشراف عليها فلم يكن يتوفر على الشروط المطلوبة فاضاع المال. واما الامير عينعلو الذي كان يتميز عنه بقوة الارادة وحسن الادارة فقد جمع كافة الخبراء في البناء واجبر الناس على تقديم المال المطلوب ثم جمع الادوات الضرورية وانهى بناء السور في اجل قريب. الا ان الامطار تهاطلت بكثرة ذات ليلة فجرفت قسم السور الذي لم يكن بناؤه قد تم بجانب باب الرملة وباب ايلفيرة فوقعت الانقاض على الدور المجاورة فقتلت عددا كثيرا من الناس وجلعت الآخرين ينقمون على العامل ويطالبونه بالتعويضات عما اصابهم (58) .

57) «البيان المرابطي» ص 32

58) معلومات فريدة في كتاب «البيان المرابطي» .

اما في مدينة المرية فقد قام احد ابنائها على اصلاح اسوارها وهو المدعو «ابن العائمة» الذي كان من اتباع امير البحر المشهور «ابن ميمون» المعروف بقيادته للسفن الجهادية، وقد اقبل على عمله بجد وشغف كبيرين ولم ينفق المال الا فيما لزم واستعان بمساعدين خبراء . فلما رأى الناس عمله قدموا الجبايات المفروضة عليهم بسهولة مع العلم بأنها كانت ايسر المقادير المقررة. ولم يضطر العامل الى ضرب الناس ولا الى الحكم عليهم بالسجن فقامت الاسوار متينة جميلة .

وقام سكان قرطبة باصلاح اسوار مدينتهم طبق العادة القديمة. فقد اجبر سكان كل حي يصلون في مسجد من مساجده على اصلاح الاسوار الواقعة في حيهم والقيام على ترميمها فلم تحدث صعوبة من الصعوبات ولا احتج احد من الناس على ما طلب منه (59). واتى اهل اشبيلية نفس العمل فاقدموا على البناء من غير معارضة ودون انفاق مقادير كبرى من المال.

وفي الوقت الذي كانت تباشر فيه هذه الاعمال الدفاعية امر علي في تلك السنة نفسها وهي سنة 520 الموافقة لسنة 1126 باقامة مراكز الرصد والملاحظة بجوار الاطلس الكبير وباقفال الطرق التي كان ينزل منها اتباع المهدي الى السهول لانه لوحظ في تلك السنة نفسها انهم هاجموا «كيك» ونزلوا فوصلوا الى اغمات (60) .

واخذ عامل غرناطة يتقدم فيما بعد بشرق الاندلس دون ان يثبت صاحب «البيان» معلومات اخرى عن عمله الى شهر جمادى الاولى من سنة 522 الموافق لشهر ماي 1128 الذي عزل فيه بعد مرور عام وتسعة شهور على مهمته وذلك بسبب طغيانه وقسوته في معاملة المسلمين والنصارى على السواء . ولما ذهب الى حملته بشرق الجزيرة لايقاف تقدم الفونسو بتلك الجهة استدعى فقهاء جيان وعلماءها وسجنهم وتركهم منسيين مهملين حتى

---

59) يقول صاحب «البيان المرابطي» في الصفحة رقم 33 انه قد مات ليلة الحادي عشر من شهر ذي القعدة (28 نوفمبر 1126) لما عاد من مراكش واثناء القيام بتلك الاعمال في قرطبة وكان القاضي المتوفى هو ابو الوليد محمد بن احمد بن رشد. ثم يشكر كتابه «شرح المستخرجة» الذي يتالف من مائة فصل والذي لم يستطع احد من الفقهاء ان ياتي باحسن منه في شرح مذهب مالك. وقد صلى عليه ابنه ودفن بمقبرة بني العباس حسب ما اكد ابن الصيرفي في كتابه «الانوار الجلية»

60) ابن ابي زرع في كتابه «روض القرطاس» ص 167 من ترجمتي وص 236 من كتاب «المرابطون» لصاحبه «بوش» الذي ثاق بصحة روايته. ولقد رويا ان تاشفين قد عين واليا عاما على الاندلس سنة 520 (1126) فقدما تاريخ توليته عامين. وذكرا ايضا انه قدم من المغرب في 5000 فارس فهاجم طليطلة وهزم القشتاليين في مكان يعرف باسم «فحص الشباب» واستولى على ثلاثين حصنا وفتح مراكز عديدة ويظهر انهما حرفا ما وقع في معركة «فحص البقر» سنة 528 (1133 - 1134)

عزل. ولقد امره علي عند عزله بالحضور الى مراكش لان النصارى الذميين بغرناطة كانوا قد رفعوا عريضة يحتجون فيها على سوء سيرته معهم. واجبره علي على الحضور في جلسة تحقيقية قدم فيها النصارى براهين على المظالم التي انزلها بهم. وحكم عليه بالسجن بسبب ذلك وباصلاح ما ارتكب من اعمال (61). وان هذا الحادث الذي انفرد صاحب «البيان المرابطي» باثباته يبرهن بوضوح على ان النصارى الذميين لم ينفوا كلهم الى المغرب ولا ابعدت اغلبيتهم كما برهن بوضوح ايضا على انهم لم يكونوا متواطئين ولا متعاونين مع «الفونسو المحارب لانه لم تنزل اية عقوبة بهم ولو بعد الحوادث الخطيرة التي جرت اثر تحريضه لهم. بل ان حقوقهم ظلت محفوظة واجري العدل التام معهم .

اما الذي خلف «عينعلو» فهو ابو حفص عمر بن علي الذي لم يحتفظ بمنصبه الجديد هذا الا اربعة شهور ـ ماي الى سبتمبر 1128 (62) فما ان وصل حتى حرر علماء جيان المعتقلين واجتمع خلال فصل الصيف في غرناطة باخيه ابي بكر عامل اشبيلية الذي اقام معسكره بالمصلى، فلما شهد استعراض القوات كلها تقدما معا لمهاجمة قلعة كان النصارى قد هاجموها بغتة واستولوا عليها. ونحن لا نعرف عن هذه المعركة شيئا الا ان العاملين قد استرجعا القلعة التي لم يرد ذكر لاسمها، فقاما فيما بعد على تموينها وحمايتها. وعند ما انتهت المعركة عزل ابو حفص عمر بن علي وخلفه عبد الله بن ابي بكر اللمتوني الذي كان بشرق الجزيرة ايضا مع قواته القادمة من المغرب ولقد كان يعرف بلقب «وايداي». وهنا نصل الى سنة 522 الموافقة لعام 1128 الذي عين فيه علي ابنه «سير» وليا للعهد وبعث ولده الآخر تاشفين الى الاندلس واليا عاما عليها حيث تكفل قبل كل شيء بمقاتلة النصارى .

وسأفرغ في مقال مقبل لدراسة ماثرة البطولة التي قام بها هذا الامير بما تستحق من الاطناب والتفصيل. ولم يكن هذا الامير حسن الحظ لانه بعد ان دافع عن الاسلام في الاندلس بمنتهى الحمية والباس وان لم يصحبه النصر على الدوام كانت نهايته نهاية سيئة محزنة لان الموحدين اعداءه الجدد قد هزموه وضيقوا عليه الخناق .

61) «البيان المرابطي» ص 34
62) «البيان المرابطي» ص 33

وان المعلومات الناقصة والمقطوعة الصلة فيما بينها والتى وقفت عليها في المخطوطين الناقصين قد مكنتنى مع ذلك من الاتيان بمعلومات جديدة حول التاريخ الخارجى للامبراطورية المرابطية مع تصحيح بعض تواريخه الزمنية التى عبث بها صاحب «روض القرطاس» بما كان فيه من عدم التحرى والتريث وتتبع المسائل والقضايا. ومع ذلك فنحن لا نزال بعيدين عن الوقت الذى نتمكن فيه من كتابة التاريخ التام القائم على المصادر الثابتة الموثوق بها والمتميزة بالاختصاص. فالمؤلفات المعاصرة عديدة وهى تفرغ قبل كل شىء الى ذكر وقائع المرابطين والتعرض لتطورها والتعليق عليها. وننتظر ظهور احد هذه المصادر الضرورية لنستطيع مواصلة سلسلة ما توفقنا فى اكتشافه والوقوف عليه خلال السنوات الاخيرة او لنملأ على الاقل تلك الفجوات الملحوظة فى التواريخ العامة على نحو ما صنع صاحب «البيان المغرب» بسلسلة المصادر التى ضاعت منا اليوم .

ميكيل طاراديل

عصر الفنيقيين الاول بالمغرب

لا شك في ان اتصال الفنيقيين والقرطجنيين بالمناطق الساحلية من المغرب كان احد القضايا الهامة فى التاريخ القديم لهذه البلاد .

واسباب هذه الاهمية عديدة، فمن المفيد ان نشير اولا الى ان ذلك الاتصال هو الذى قضى بدخول المغرب فى عالم التاريخ. فقد حدث بالمغرب ما حدث فى باقى الاقطار من النصف الجنوبى من حوض البحر الابيض المتوسط اذ كان الملاحون الفنيقيون اول من نزل بترابه من الاشخاص المنتمين الى بلاد سبقته فى ميدان الحضارة فالحقوا معرفته بالعالم المتحضر آنذاك كما ادرجوه فى الاثر التاريخى الذى تواترت نصوصه قبل ان تدون ويكتب لها الوصول الينا .

ثم ان اثر هذا الاتصال ظل قائما فى المغرب بصورة خاصة، ولعل هذا الاثر كان اقوى مما حدث فى معظم السواحل التى اتصل بها الملاحون والمعمرون الساميون. فقد قام البرهان الآن على ان العالم اليونانى لم يتدخل لا بقصد التنافس مع الفنيقيين ولا لتحديد منطقة نفوذهم. لذلك كان النفوذ الفنيقى هو النفوذ الوحيد الذى تلقاه الاهالى وتأثروا به قبل الفتح الرومانى، ومن الجلى الواضح ان هذا النفوذ كان فاصلا فى تكوين ثقافة مغربية ذاتية، فقد بلغ هذا النفوذ درجة من القوة والذيوع جعلتنا نرى ان الاسم المناسب فى تاريخ المغرب للفترة المتراوحة فيما قبل سقوط قرطجنة خلال الحرب الثانية، ونشأة البيوت المحلية الحاكمة المعروفة والتحاق المغرب بالامبراطورية الرومانية ــ اى ابتداء من اواخر القرن الثالث فى منتصف القرن الميلادى الاول ــ هو القرطجنى الموريطانى، وقد آثر بعضهم مسايرة النظرة الجغرافية الواسعة فسمى هذا العصر بالعصر القرطجنى الجديد، وعلى كل فان العنصر السامى لم يفتأ اساس التقييم فى تاريخ التعمير بحيث لم تعزب هذه الملحوظة عن اى باحث من البحاث الذين اهتموا بهذه الفترة .

وان هذه الاعتبارات التى لا نزيد على الاشارة اليها فى هذا المكان كافية لاظهارنا على القيمة التاريخية لهذا الموضوع. الا ان هناك داعيا آخر

لدراسته وهو قلة المعلومات التى نتوفر عليها حول هذا العصر، لذلك فالموضوع هو بمثابة مسالة تتطلب البرهان والحجة، وعلى هذا الاساس يتعين علينا عرضها، وقد حصلنا منذ مدة قصيرة جدا على عناصر ومعلومات جديدة تساعدنا على عرضه وتبسيطه للخلوص الى نتائج اوثق من النتائج التى كان فى مستطاعنا ان ننتهى اليها قبل بضعة اعوام .

وهذا ما جعلنا نؤمن بالفائدة من عرض هذه القضية فى مجلتنا هذه ولو كان عرضا مجملا لان تعمق الموضوع يستلزم مجالا اوسع بكثير من المجال المحدد عادة لمقال من المقالات .

فيكفى بالفعل ان نلاحظ البقايا المستخرجة من الحفريات المنجزة فى المدن الموجودة بالبلاد والتى يرجع عهدها الى ما قبل الرومان دون الاستناد الى ما تدل عليه النصوص القليلة التى وصلت الينا لنقف على مدى تأثر البرابرة الموريطانيين بالفينيقيين والقرطجنيين، (المستويات القديمة فى تمودة والمستويات الوسطى فى ليكسوس وغيرها)، والاثر واضح فى فكرة البناء الاولى وتدرجها حتى تصل الى المظاهر المتواضعة للحياة المادية

وهذا ما يجعلنا نرى ان المسالة التى سنعرضها ولو فى ايجاز تتخطى المجال المحدود للجدل الذى تتفاوت مراجعه فى الثبوت والاهمية هى فى الواقع مسالة تمس الجذور التى يقوم عليها ارتباط المغرب بدنيا التاريخ ومكانته الثقافية .

اما القضايا التاريخية الهامة التى تتعلق بالموضوع فهى التالية على وجه الايجاز :

1) تاريخ بدء الاتصالات بالاستناد الى النصوص القديمة وما عثر عليه من المواد فى الحفريات، ويجب التمييز بين عهود الاتصالات التمهيديه وفترة التعمير بالذات .

2) العامل البشرى الذى تدخل بكيفية غالبة فعالة، ومعنى هذا معرفة ما يرجع الى الفنيقيين وما ينوب القرطجنيين .

3) الاتصال بالعالم اليونانى والنظر اليه حسب اعتبارين، اولهما توضيح المساهمة اليونانية المحتملة فى الاستعمار او فى الاسفار على الاقل اما الاعتبار الثانى فمعرفة مدى تأثير نشر الحضارة اليونانية بصفة تدريجية وحضارة قرطجنة ايضا فى شرق البحر الابيض المتوسط ونفوذها فى التكوين الثقافى الذى حققه اليونانيون والقرطجنيون ومكنوا له .

4) قضية العلاقات مع شبه الجزيرة الايبيرية وخاصة مع نواحى الاندلس التى كانت خاضعة للسيطرة اليونانية .

5) التحديد الجغرافي للنفوذ اليوناني القرطجني في المغرب وتمييز المناطق الساحلية التي تاثرت بالتعمير اكثر من غيرها من المناطق وذكر مدى التدخل في القطر .

6) التمييز بين انواع النفوذ التي تمس الوجهة المادية كاستيراد المنسوجات والمنتوجات اليدوية والتي ساهمت في تكوين روح الشعب او نفسية الشعوب الموريطانية .

7) المدة الزمنية لاستمرار مختلف انواع النفوذ .

وهكذا نرى ان الموضوع واسع متشعب، لذلك يجب علينا في هذا البحث ان نقتصر على بعض القضايا التي نود ان نختار منها تلك القضايا التي وافت البحوث الاخيرة بمعلومات جديدة جديرة بالاشارة اليها. وقد اردنا ان نختار اليوم المسألة الاولى المثبتة في الجدول السابق .

المعلومات الجديدة لعلم الآثار

من المفيد اذن ان نشرع في دراستنا هذه بتحليل المعلومات الجديدة التي اسفرت عنها الابحاث الحفرية لانها عنصر اساسي جديد بالنسبه للعناصر الموضوعية التي يمكن ان تغير المعلومات السابقة حول هذه القضية

وان هذه المعلومات فيما يخص المغرب تتعلق بالنتائج المحصل عليها في ثلاث مناطق، فالمنطقة الاولى هي مدينة ليكسوس بينما تشمل المنطقة الثانية المراكز الصغرى بالساحل الشمالي من البلاد بناحية مضيق جبل طارق والمناطق المجاورة له في الشمال ومنبع جزيرة الصويرة بالجنوب .

استكشاف الطرقات الارضية في ليكسوس

تقول النصوص التي لدينا ان مدن ليكسوس وقادس واوتيكا هي اقدم المؤسسات في غرب البحر الابيض المتوسط، ومع ذلك فان هذه المدينة الاخيرة توجد في منطقة متوسطة هي في الواقع اكثر ارتباطا بقضية استقرار الفنيقيين في الاقليم الذى كان نواة الحكم القرطجني فيما بعد، اما قادس وليكسوس فتؤهلاننا في الواقع حول منطقة مضيق جبل طارق التي هي ذات اهمية حيوية لمعرفة المظاهر الهامة للعالم القديم في القارة الاوربية والقارة الافريقية على السواء، ونحن نجد بين هاتين المدينتين ان ليكسوس تتوفر على جميع مزايا البحث بالاضافة الى وفرة امكانياته. ففي المستطاع ان تكون هذه المدينة من غير اى عائق ميدانا لحفر موصول ولو انها كانت اقل اهمية من قادس في التاريخ القديم لان قطاعها لم تعتوره تغييرات هامة

اولا ثم لان هذه المدينة قد هجرت منذ نهاية العصر الروماني وما زالت لحد الآن على حالتها .

وقد بدأ العمل في حفر ليكسوس منذ ما يقارب خمسا وسبعين سنة تخللت هذه المدة فترات طويلة لم يباشر خلالها اى عمل، الا ان الحفر لم يوجه هذا الاتجاه، وبسبب هذه الظاهرة ونظرا الى الاهمية التى اشرنا اليها فقد عزمنا منذ تولينا مديرية مصلحة الآثار فيما كان آنذاك منطقة الحماية الاسبانية سنة 1948 على تخصيص قسم عام من اشغالنا ومجهوداتنا لقضية الآثار فيما يتعلق خاصة بتوسع الفنيقيين والقرطجنيين فى الطرف الاقصى من الغرب على اساس دراسة الطبقات والمستويات الموغلة فى القدم بمدينة ليكسوس .

ونحن نعتزم تقديم النتائج الهامة التى تمكنا من الوصول اليها، الا انه من المتعين علينا ان يكون عرضها موجزا، فالمواد التى امكننا التوفر عليها خلال هذه الحملات الحفرية عديدة يستلزم درسها وعرضها مجالا طويلا . هذا ومن جهة اخرى فان نتائج احدى هذه الحملات ستنشر بصورة مفصلة فى مدة قريبة كما ننتظر التمكن من نشر كافة النتائج المحصل عليها فى مستقبل غير بعيد .

ولم تكن هناك وسيلة لتكوين نظرة عن عموم المدينة البدائية الا فتح سلسلة من الحفريات العميقة. وكان من المتعين الحصول على اكبر عدد ممكن من المعلومات مع تحريك اقل كمية ممكنة من التراب بسبب العامل المالى اولا ولوجود انقاض رومانية فى الطبقات العليا، ثم اننا من جهة اخرى قد باشرنا الحفر بكيفية منطقية باختيارنا للنقط والاماكن التى لها امكانيات اكبر للتوفر على المركز الاول المستعمل لايواء الجماعة الاولى من المعمرين

وكان هؤلاء المعمرون قد اعتادوا الاستقرار فى المراكز الاستعمارية البحرية من طراز ليكسوس بالقرب من المكان الذى جرى فيه نزول المعمرين الاولين طبق عادات واعراف عامة ثبتت الآن ثبوتا تاما .

وتقع ليكسوس فى الهضاب المحيطة بنهر لكوس وفى منطقة مصبه، ولعل مصب النهر كان هو الميناء الطبيعى الذى استعمله المعمرون، وهذا هو ما جعلنا نوجه الاختبارات الاولى نحو الجناح الاسفل من المنبع على مقربة من نهر لكوس، ومع ذلك فسرعان ما لاحظنا ان القطاع الهام كان فى الهضبة العليا وعلى السفوح التى تقابل الجنوب من العلو المتوسط الى ما فوق، وان اعمال الاكتشاف فى هذه المناطق هى التى اظهرتنا بالفعل على المواد العتيقة

وقد جرى القيام لحد الساعة بما يزيد على عشرين استكشافا شملت على التقريب مجموع مساحة المنبع الاثرى وخاصة القطاعات الملائمة للبناء البلدى .

وكانت نتائج هذه التنقيبات متماسكة فيما بينها بكيفية عجيبة حقا، فقد تبينت وحدة المواد الموجودة فى مختلف المستويات بحيث اصبح فى الامكان وضع هيكل موحد لها اذا استثنينا بعض الفوارق والخاصيات الصغيرة التى ليست لها نظرة مجموعية وانما تقتصر على اهمية جزئية لا غير

فنحن اذا درسنا ما تحت المستوى الرومانى على عهد الامبراطورية الاولى (وهذا المستوى غير موجود بكيفية دائمة عامة لان الامبراطورية كانت اقل اتساعا من المدينة السابقة للعهد الرومانى) وجدنا الظواهر التالية

1) فالظاهرة الاولى هى مستوى ذو بنايات كثيرة لا تزال فى حالة جيدة من الاحتفاظ وترتفع جدرانها فى بعض الاحيان الى اربعة امتار، وان هذه البنايات التى كانت مخصصة للسكنى على العموم قد شيدت فى الفترة المتراوحة بين منتصف القرن الثانى السابق للميلاد ودخول القرن الاول ، وقد ظلت هذه البنايات قائمة الى منتصف هذا القرن على التقريب حيث ظهر مستوى محطم هام كانت بناياته معمولة من الحجر والجير، وقد اعيد استعمال هذه البنايات فى بعض الجهات بحيث يلاحظ تحطيم ثان بما تبقى من ادوات البناء . ثم حدث هدم آخر عند الفتح الرومانى فى عهد «كلاوديوس» بعد وفاة «بتولوميو» والصراع مع «ايدمون» (وعلينا ان نقول اننا نجد نفس المقارنة بالتوازى فى التحطيمين اللذين اصابا مدينة تمودة) .

2) والظاهرة الثانية هى مستوى تقل معالمه بكثير عن المستوى السابق والذى يمكن تقسيمه ايضا الى فآت تشمل القرنين الثالث والثانى، وقد ظهرت فى بعض الحالات بقايا بناء شبيه بالبناء الذى وصفناه فى الظاهرة الاولى، اما الشبه الملحوظ فى هذا المستوى فهو الشبه الموجود بين ادوات الفخار التى يكثر بينها وجود اللون الاحمر وتقل الادوات المخططة بخطوط رقيقة متوازية .

3) اما المستوى الثالث فهو المستوى الذى قلما نجد فيه بقايا للبناء او نجدها مقصورة على جدران مقوضة عملت من صخور كبيرة من غير صنعة ولا نحت، اما الفخار الرقيق فذو لون احمر يساعدنا بحكم وجود بعض المواد المستوردة بقلة على القول بأن عهدها يرجع الى القرن الرابع وهذا هو المستوى الاسفل الذى ثبت زمانه ثبوتا علميا واضحا .

4) اما المستوى الاخير فهو الذى يقوم على الصخرة او على الطوب العقيم، وهو معمول من الفخار ذى الطلاء الاحمر وصنعته صنعة يدوية رديئة ومن ظوهرها ما يحملنا على الاعتقاد بأن الاهالى البدائيين قد استعملوها في هذا العصر، وان انعدام المواد المستوردة والتى يسهل تاريخها لا يمكننا الا من اثبات زمن واحد وهو انها سابقة للقرن الرابع، لذلك يتعين علينا ان نفترض انتسابها اما الى القرن الخامس او الى ما بين القرنين الخامس والسادس. وعلينا كذلك ان نشير الى ان قوة هذه المواد اقل كثافة اذا هى قيست بمواد المستوى السابق، وهذا هو ما يجعلنا لا نقدم على القول بعدم رجوعها الى قرون ابعد فى القدم .

وهكذا نرى ان المستوى الاقدم الذى امكننا التعرف عليه من تاريخ ليكسوس لا يرجع بأى حال الى ما هو ابعد من القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد، لذلك فنحن بعيدون جدا عن التمكن من التاكيد بصحة العصر البعيد الذى تنسبه المصادر المكتوبة لمدينة ليكسوس.

ولنا امام هذه القضية ثلاثة حلول

1) اما ان تسفر حملات الاستكشاف المقبلة عن معلومات تغير نتائجها الحالية .

2) واما ان نفترض بأن الحى الاولى لم يكن فى مكان المدينة التى قامت فيما بعد، وفى هذه الحالة يتعين علينا التفكير فى وجود مركز رئيسى اقرب الى مصب النهر من المراكز الاخرى .

3) واما ان مدينة ليكسوس ليست فى الحقيقة والواقع سابقة للقرن السادس .

اما فيما يتعلق بالامكانية الاولى فلا يمكن بأى حال ان نعتبر فى مجال الحفريات أننا قد انتهينا الى القول النهائى الفصل . الا اننا نرى من الصعب ان نقف على مفاجأة فى هذا الباب بعد حملات الاستكشاف التى قمنا بها فى هذا الميدان .

والامكانية الثانية مستبعدة نظرا الى الظروف التى تأسست فيها مدينة ليكسوس والى الاماكن التى قامت عليها لانها ظروف واماكن تستجيب بحق تمام الاستجابة للمواقع البحرية التى بحث عنها الملاحون الفنيقيون على الدوام، غير انه ليس فى مستطاعنا ان نقطع بعدم حدوثها .

لذلك فليس لنا اليوم ـ حتى ولو فى حالة الافتراض ـ الا ان نقبل الامكانية الثالثة ونرضى عنها وهى القول بأن مدينة ليكسوس غير سابقة للقرن السادس بأى حال .

ومن المفيد ان نشير الى اننا قد اعتبرنا ليكسوس فى هذه الامكانية على انها مركز بلدى للسكنى، لان احدى المفاجآت التى ابانت عنها الحفريات المنجزة هى التاكيد بان رقعة المدينة التى يحددها المستوى العتيق هى اكثر اتساعا مما كان فى مستطاعنا ان نظن اول الامر.

وبخلاف ما يقضى المنطق فاننا لا نجد وكرا مبنيا اصغر من السالف ويكون فى امكاننا ان نتتبع توسعه التدريجى مع مرور الزمن، فالطبقة القديمة نجدها على العكس فى كل مكان داخل رقعة المدينة خلال ما بين القرنين الثالث والاول السابقين للميلاد، واذا كانت هذه الطبقة تشمل رقعة غير معروفة الحدود بكيفية ثابتة لحد الآن فاننا نعلم ان محوريها الاكبرين يبلغان 400 مقابل 300 متر، وان هذه المساحة بالنسبة الى مدينة من مدن القرن السادس وتقع فى اقصى الغرب لمساحة عجيبة مدهشة حقا .

وان ما سبق ذكره يدلنا فيما يظهر على وجود استعمار رومانى حقيقى خلال القرن السادس وان جماعات كبرى من الرومانيين قد استقرت فى ليكسوس خلال مدة وجيزة نسبيا .

هذا فيما يتعلق بتأسيس المدينة، اما فيما يرجع الى العصر التالى فان ما افادته ابحاثنا الاخيرة يتناول تقييم ليكسوس خلال الفترة المتراوحة بين القرن الرابع وحدوث الميلاد، فالاغلبية الكبرى من البنايات العظيمة المشيدة فى تلك البقعة الكبرى التى هى بقعة انقاض ليكسوس تنتمى فى الواقع الى هذه الفترة، وهذا ما يؤكد ان هذه الفترة كانت اهم الفترات فى حياة المدينة وانها فاقت ما كانت عليه المدينة فى عهد الامبراطورية الرومانية رغم ان مدينة ليكسوس كانت احدى المدن الهامة فى موريطانيا الطنجية واحدى المدن القليلة التى وجدت بالبلاد وكانت لها رتبة المستعمرات الرومانية. وهذا يدل على ان سقوط قرطجنة قد اثر تأثيرا اقل ما يظن بكثير لاول مرة فى ازدهار هذه المدينة الكبرى باقصى المغرب الافريقى .

الا ان وصف المستحدثات الاثرية التى يرجع عهدها الى هذه الفترة سيستلزم مجالا اطول من هذا المجال وسيخرج بنا عن حدود هذا المقال .

الاستكشاف الاثرى للساحل الشمالى

رأينا عند الشروع فى هذا العمل قبل بضعة اعوام اى فى سنة 1951 بالضبط ان نبدأ بدراسة الساحل المغربى على المضيق والمناطق المحيطة به تكميلا لابحاثنا حول العصر الفنيقى فى مدينة ليكسوس، لانه من الواضح انه اذا كان المضيق ممرا لحركة بحرية فانه من الضرورة ان تكون للبحارة

نقط ارتكاز ساحلية تكون اسواقا اول الامر ثم تتطور فتصبح مراكز متفاوتة الاهمية ولكن مسكونة بصفة قارة دائمة، ولم يسبق القيام ببحث جدى من هذا القبيل، ونظرا الى التفريط الجزئى او الكامل الذى حاق بمعظم هذه السواحل المواتية لاقامة تلك المراكز خلال عدة قرون متعاقبة فيما يتعلق بامكانيات السكنى على الخصوص فلم يكن من باب الخيال المجرد الجامع التفكير فى امكانية العثور على بقايا وانقاض فى حالة حسنة وتكون حالتها مما يدعو الى مباشرة اعمال الحفر والتنقيب والاستمرار فيها .

وللتنقيب من هذا النوع ميزة هامة وهى امكان مباشرته بوسائل مادية ومالية متواضعة كتلك التى كنا نتوفر عليها عند تفكيرنا فى وضع هذا البرنامج، ثم ان الامكنة التى اختيرت لاقامة تلك المراكز تمكن معرفتها بسهولة اذا تتبعنا بعض القواعد المعروفة اليوم حق المعرفة، ولنا بالاضافة الى هذه الامكانيات ظاهرة هامة وهى انه ليس من الضرورى القيام بحفر كبير فى دائرة متسعة بل انه تكفى بعض الاستكشافات لطبقات الارض فى امكنة يقع عليها الاختيار فى كل من المدن الصغرى التى تم استكشافها كما فعلنا فيما سبق لنتخلص الى مقصدنا .

ان المنطقة التى يشملها هذا الكشف تمتد الآن من مدينة طنجة فى الغرب الى وادى تيكيساس فى الشرق اى انها تشمل ساحل البوغاز والشواطىء الممتدة من سبتة الى رأس «مازارى» والقطاع الغربى من الساحل الجبلى الذى يبدأ فى الراس المذكور حتى يصل الى جون الحسيمة الكبير.

وان اعمال الاستكشاف هذه قد ادت بالاضافة الى معرفة سلسلة من المواقع الرومانية التى لا تهمنا دراستها فى هذا البحث الى اكتشاف ودراسة ثلاثة مراكز قديمة بدائية هى القصر الصغير فى وسط ساحل المضيق و «سيدي عبد السلام دى البحر» على مقربة من مصب «نهر مرتيل» و «الهمزة» فى الوادى الضيق والساحل المسمى بهذا الاسم شرق رأس «مازارى» المذكور .

ولا يمكننا ان نعرف الشىء الكثير الآن عن المركز الاول لان المواد الموجودة فيه تنتمى الى طبقة عميقة تقضى عليها بتشييد بنايات عليها فى العهد الرومانى وهى لا تعدو بعض اجزاء من الفخار البدوى (أ) و (ب) وقسما ضئيلا ذا طلاء احمر، وهذا يعنى انه كاف للتأكد من وجود مركز رومانى صغير خلال القرون الثالث والثانى والاول .

اما المركزان الآخران فقد اتت دراستنا لهما بنتائج هامة بخلاف المركز الاول، ولما كنا قد تعرضنا فى العدد الاخير من هذه المجلة لمركز سيدى عبد السلام ذى البحر بمناسبة دراستنا للسكان القدماء لوادى مرتيل فاننا

سنقتصر على وصف موجز لا نقصد به الا التذكير بانها كانت بلدة واقعة فوق مرتفع ضئيل بالقرب من المجرى القديم للنهر اى على يمين مجرى «مرتيل» الحالى وان على هذه الهضبة اليسيرة يوجد الضريح الذى تسمت باسمه تلك الانقاض، ولهذه الانقاض طبقتان، فالطبقة السفلى التى لم تظهر فيها لحد الساعة بقايا بناء والموجودة مباشرة فوق رمال الشاطئ لم تظهرنا الا على فخار ذى طلاء احمر يسهل تعرفه وتقدير قيمته التاريخية بدقة، اما الطبقة العليا فتنتمى لبلدة صغيرة لعناصر بنائها قرابة بمواد البناء الموجودة فى تمودة، ومعنى هذ انها بلدة من بلدان الفترة المتراوحة بين القرنين الثانى والاول والتى ظلت فى الغالب موجودة الى ما يقرب من خمسين عاما قبل الميلاد .

وعلى بعد ثمانية كيلومترات شرقى سيدى عبد السلام ذى البحر وبعد اجتياز رأس «مازار» نجد جونا صغيرا فيه نهر «حمزة» الذى هو جاف على العموم، غير ان ارضه تكاد تكون ضحلة قرب اتصالها بالبحر، وفى مستطاعنا ان نتوقع صلاحية هذا المكان فى عهد غير سحيق لرسو قوارب صغيرة نظرا الى ما كانت تجد فى ذلك الجو من مأوى، وعلى بعد كيلومترين على الشاطئ نجد هضبة صغيرة لا يتعدى ارتفاعها ثلاثين مترا وتسمى «كدية تمباين» وهذا هو الارتفاع الوحيد الملحوظ فى ذلك الشاطئ كله، وفى قمة الهضبة ذات الانحدار السريع متسع صغير .

وقد قمنا فى هذه الهضبة بعدة حفريات فاستطعنا التعرف على مجموعة من البيوت المستطيلة ذات الجدران الرديئة المعمولة من احجار فى حالتها الطبيعية اذا نحن استثنينا بين المواد الفخارية اداة فى شكل ابرة معمولة من البرونز، وكل هذا الفخار من نوع ردئ صنعت به اوان وكؤوس من احجام كبيرة كثيرة الشبه بما امكننا العثور عليه فى الطبقات الوسطى والعميقة بمدينة ليكسوس، وكان من بين هذه الادوات الفخارية ما له طلاء احمر، كما امكننا العثور على شئ يشبه المصباح او القنديل على النحو الذى عرف عليه عند اليونانيين .

وتوجد طبقة واحدة اذا استثنينا الجدار الذى يوجد تحت جدار احدى الغرف تشكل زاوية واتجاها مخالفا لما عرفناه فى هذه البلدة .

اما التقدير الزمنى لهذا المركز فيصطدم بمشكلات صعبة، فمن الواضح ان مجموعة الادوات تنتمى الى الفترة النهائية التى هى فترة الهجرة عن البلدة والتى يظهر انها سابقة للمرحلة الثانية الملحوظة فى قرية سيدى عبد السلام المجاورة، فالبنايات والادوات المستعملة فيها تختلف اختلافا ظاهرا عما فى هذا المركز سواء فى الطبقة القديمة او فى الطبقة الثانية او الاخيرة

ويظهر من هذه الفوارق ان الاشخاص الذين سكنوا هذا المركز ينتمون الى مجموعة بشرية مخالفة لتلك التى أسست قرية سيدى عبد السلام ذى البحر وسكنتها ، وهذا القول انما هو مجرد افتراض لاننا لم نقم فى القريتين بحفريات عميقة تستطيع ان تثبت هذا الافتراض او تنفيه .

وعلى كل حال فاننا نرى من الفائدة ان نبرز النتائج التالية كخلاصة للحفريات التى قمنا بها فى الساحل لما لها من الفائدة ايضا فى دراسة التاريخ العام للبلاد .

1) تاكد وجود سلسلة من المراكز الساحلية على شاطىء المغرب الواقع على البحر الابيض المتوسط كما كان من المنطق ان نقول سلفا بوجودها .

2) ان هذه المراكز قد زالت كما هو حال المركزين المذكورين وانقرضت قبل الفتح الرومانى .

3) ان تلك المراكز قد اقيمت عليها فى بعض الحالات بنايات فى العهد الرومانى أى انها واصلت حياتها ابان الامبراطورية الرومانية اوستحالت فى هذا الى مراس تهتم على الخصوص بصيد السمك .

4) ان المواد التى تنتمى للعهد العتيق فى هذه المراكز لها قرابة بما عثرنا عليه فى الطبقات الموجودة فى مدينة ليكسوس والسابقة للعهد الرومانى

5) ان الطبقة الموغلة فى القدم والتى امكن التعرف عليها وهى الطبقة العميقة فى سيدى عبد السلام لا يمكن ان يبعد عهدها اكثر من القرن الخامس لانه اذا كان فى الامكان ان يكون الفخار ذو الطلاء الاحمر راجعا الى عهد سابق لهذا القرن فان كثافة الطبقة بالقياس الى كثافة الطبقة الثانية غير عظيمة ولن يكون من المنطق ان نؤمن بامتداد حياتها اكثر من قرنين او ثلاثة قرون وذلك مع العلم بأنها لا تكون مجمعا بشريا ضئلا للغاية .

ولهذه الظاهرة الزمنية اهمية خاصة باعتبارها عنصرا جديدا فى المناقشة حول الوقت الذى بدأ فيه عبور القوارب الفنيقية بكيفية موصولة أمام السواحل المغربية، واذا نحن علمنا ان الملاحة الساحلية الكثيفة محتاجة الى مراكز متقاربة فيما بينها بقصد الارتكاز فى نقط قارة، فان نتائج حفرياتنا تبرهن فيما يظهر على أن الملاحة الفنيقية الكثيفة امام سواحل القسم الافريقى من المضيق لم تكن سابقة للقرن السادس بأى حال .

وسنحاول فيما بعد ادراج هذه النتائج ضمن نظرة عامة شاملة لذكر علاقتها بما عثرنا عليه اثناء الحملات الاستكشافية الاخرى .

جـزيـرة الصـويـرة

اقتصرنا لحد الساعة على ذكر النتائج المحصل عليها في الحفريات الاثرية المنجزة بشمال البلاد، الا ان هناك اثرا جديدا هاما تم العثور عليه في الطرف الآخر من الساحل على المحيط الاطلسي، فقد بوشرت في جزيرة الصويرة الصغرى دراسة مركز فنيقي دام عدة قرون واستمر حتى اواخر العصر الروماني وكان في الغالب سوقا للتبادل التجاري فقد قام مسيو «ب. سانطاس» سنة 1954 بنشر النتائج الاولى للاعمال التي قام بها ضمن كتابه «مساهمة في دراسة التوسع القرطجني بالمغرب»، اما الحفريات التي انجزتها «مصلحة الآثار القديمة» بالرباط فما زالت نتائجها لم تنشر لحد الآن وان كانت تؤكد على العموم فيما يظهر نتائج الحملات الاستكشافية الاولى .

ونحن لا نعتزم في هذا المكان تلخيص الفصول التي وردت في الكتاب خاصة بالصويرة، غير انه يكفي ان نذكر ان الجزيرة الصغيرة منبع من الفخار الوفير الذي يغلب عليه صاحب الطلاء الاحمر وله شبه كثير بالفخار الموجود في ليكسوس، وتوجد بعض القنادل القرطجنية والسلات المنقوشة بحروف قرطجنية، وهذا ما يذهب بكل شك في هذا الموضوع حول القرابة المشار اليها، ولعل عهد المجموعة القديمة من هذه المواد يرجع الى القرن السادس كما يقول مسيو «سانطاس»، وربما امكنت الزيادة في الدقة حول تلك الاكتشافات .

لقد رأينا من المفيد ان نأتي بالخلاصة المتقدمة ليقف القارىء على عدد واهمية المعلومات الاثرية الجديدة التي حصلنا عليها في مدة تقل عن عشر سنين فغيرت أسس مسألة المراحل الاولية للتعمير الفنيقي والقرطجني بالمغرب .

ولكي ندرك اهمية هذا التغيير يتعين علينا ان نتذكر انه لم يعثر قبل هذا التاريخ على اثر اقدم من الاثر الذي درسه الاستاذ «ك. كوهلر» وهو قبر بمنطقة رأس «اشقار» بضواحي طنجة، وهذا هو القبر الوحيد من النوع المسمى «بالقبور المبنية» التي توجد في مقبرة قرطجنة من مخلفات القرنين السابع والسادس، وبالرغم مما اصاب هذه المقبرة فلقد اظهرتنا على مواد يغلب على الظن انها تنتمي الى القرن الاخير من القرنين المذكورين كما يمكن ان يلاحظ ذلك في المذكرة التي خصها بها من قام على حفرها ونشرها في «ريفي دي ميزي» (مجلة المتاحف) الصادرة بمدينة «ديجون» (العدد 25 - سنة 1930 - الصفحة 18)

الفخار ذو الطلاء الاحمر

لقد رأينا في وصف المواد التي تم العثور عليها من قبل كيف تكرر في مختلف الجهات التي درسناها وجود الفخار الذى وصفناه بالطلاء الاحمر وان هذا النوع من الفخار مرتبط بصورة مباشرة مع المنابع الاثرية الفنيقيه والقرطجنية بالمغرب .

وقد تكررت اعمال الاكتشاف والحفر منذ سنوات عديدة دون ان يحفل بهذا الانسجام احد فيما قبل الى ان حدث في المدة الاخيرة اهتمام في نفس الوقت من طرف عدة باحثين عمل كل منهم مستقلا عن الآخرين، فقد درس نفس الموضوع مسيو «سانطاس» في الصويرة والسنيور «كوادرادو» في اسبانيا ومسيو «جورج فيلمو» في سواحل عمالة وهران ونحن في مدينة ليكسوس .

فهذا الفخار يتميز بكونه معمولا من طين مختلف ومزينا بطلاء احمر يميل الى الدكنة. اما جودته فمتفاوتة، ونحن اذا اعتمدنا ما عثرنا عليه في ليكسوس وجدنا ان التفاوت في الجودة لا يرجع الى تباعد العصور او الفوارق الزمنية بل يرجع الى اختلاف مراكز الانتاج وطرق الصناعة، فنحن نجده متقنا تماما في بعض الجهات ونجده رديئا في جهات اخرى، اما النوع الذى يمكننا ان نعتبره اتباعيا فملمسه غير جاف بصفة كلية، كما يلاحظ التفاوت في الحمرة الى درجة اننا نجد من هذا الفخار ما احمر لونه بشدة حتى استحال الى لون قسطلي داكن.

والطلاء على داخل الاواني في بعض الحالات يغمرها بصورة تامة، وفي بعض الحالات يعلو الطلاء الجانب المجاور لشفا الاواني المذكورة، اما فيما يرجع الى الاحجام ففي مستطاعنا ان نقول ان الاواني المطلية هي على العموم من حجم صغير او متوسط، وتكثر الصحون بصفة خاصة الى جانب وجود الجرات والكؤوس، وتختص الصحون بقعرها المستوى وباتساع اطرافها، وقد تم العثور في بعض الحالات (في الصويرة وليكسوس) على مصابيح قرطجنة مطلية على هذ النحو .

اما الاشكال فيمكن الوقوف عليها فيما يتعلق بالاشكال الموجودة في المغرب في الصفحة رقم 123 من كتاب «سانطاس» المذكور .

ولم يكن في المستطاع لحد الآن القيام بدراسة عميقة، الا ان المعلومات التي استطعنا الوقوف عليها كافية لتكوين نظرة اولى حول القيمة التاريخية، لهذا النوع من الفخار الذى يهمنا بالذات ، ولنشر اولا الى الرابطة الموجودة بينه من غير شك وبين الدائرة الفنيقية الغربية، اما توزيعه فلم يعد

موضوع شك بأى حال، فهو فى شبه الجزيرة الايبيرية لا يظهر الا فى الجنوب ابتداء من مرسية فى الشرق الى «اثوغادا» فى البرتغال نحو الغرب ويشمل الاندلس كلها، وهذه هى المنطقة التى اتصلت بالعالم الفنيقى ومن العجيب عدم العثور عليه فى الساحل الشرقى الذى برز فيه النفوذ التجارى الاغريقى .

اما فى افريقيا فيوجد فى قرطجنة ولكن خلال العصور الاولى فقط ثم يختفى ابتداء من القرن السادس، الا اننا لا نجده فى غرب الجزائر والمغرب او فى شبه الجزيرة الايبيرية الا ابتداء من هذا القرن وفيما بعده .

وقد رأينا ان المعلومات حول الطبقات المكتشفة فى ليكسوس معلومات ذات مغزى فيما يتعلق بمعرفة الازمنة التى وجدت فيها، فهذه المواد موجودة بكثرة قبل الطبقة الرابعة التى هى الطبقة الاخيرة التى يمكننا تاريخها عن تثبت بفضل الفخار الاغريقى وربما امكن التفكير فى ظهوره بكثرة ابتداء من القرنين السادس والخامس، وهناك منبع آخر بالقرب من مدينة مرسيه باسبانيا وهو المسمى «ثيراليخو دى مولا» ظهر فيه خلال القرن الرابع ويظهر ان ما وجد فى الصويرة يرجع الى القرن السادس، اما المراكز الاثرية الاخرى المعروفة فيتراوح ما وجد فيها بين هذين القرنين والقرنين الثالث والثانى، ولوحظ فى الفخار الموجود بليكسوس خلال القرن الثانى انحطاط فى العدد والجودة معا. (قدمت نتائج حفرياتنا فى ليكسوس وتحديد تواريخها الى «المؤتمر الوطنى للآثار المنعقد فى سرقسطة سنة 1957» ومن المنتظر ان تنشر تلك النتائج مفصلة عن قريب فى جريدة «الآثار المغربية»

وهكذا نلاحظ انه فى الوقت الذى تنسجم فيه رقعة انتشار هذا الفخار بكامل الدقة مع منطقة التوسع الفنيقى القرطجنى فى اقصى الغرب نرى ان دراستها الزمنية تشير علينا بأن هذا الفخار ينتمى الى الوقت الذى بلغ فيه ذلك التوسع منتهاه اى ابتداء من القرن السادس الى ما بعد سقوط قرطجنة، لذلك فهو عنصر اصيل خاص بالعالم الفنيقى فى الغرب، وتبقى لنا الآن مشكلة اصله ومصدره .

ان اصل هذا الفخار هو من الشرق دون اى شك وهو صادر عن الدائرة الفنيقية القبرصية فحمله الفنيقيون الى الغرب حيث وجد فى قرطجنة حتى القرن السادس. الا اننا لا نعرف السبب الذى جعله يختفى ويزول بعد هذا التاريخ، مع انه ظل مع ذلك فى اوج ازدهاره فى جنوب الاندلس وشرقها بالاضافة الى الشمال الافريقى حيث يغلب على الظن انه وجد بكثرة ولو فى وقت استرسال استيراده من الشرق .

وخلاصة القول هي ان الفخار ذا الطلاء الاحمر يكون ابتداء من هذه اللحظة عنصرا حيويا في البحث عن القضايا المتعلقة بالفنيقيين في اقصى الغرب، وهو في هذا بمثابة الطين الجيري بالقياس الى دراسة العصر الروماني، وهو اكتشاف ستكون له من غير شك آثار بعيدة في كل نقاش حول القضايا التي تعرضها في هذا البحث .

المرحلتان وزمنهما

فما هي قيمة المكتشفات التي استعرضناها ؟ وهل يمكن تغيير النقاش بعد العثور عليها بين انصار المعلومات التي وافتنا بها المصادر وبين انصار المعلومات المستخلصة من المواد الاثرية المكتشفة ؟

المسالة هي في الواقع كما يلي، فهناك سلسلة من النصوص الاتباعية تثبت تاريخا موغلا في القدم اذ يزيد على الف عام لابتداء التوسع الفنيقي في هذه البلاد، وهذا التاريخ بعيد كل البعد عن ان يتم تاكيده على اساس العثور على بقايا مادية، ولا يمكن الاستناد فقط على هذه الاسس وحدها لان كتابة الاكتشاف لا تزال ضعيفة بحيث ان البقايا المادية وحدها مشكوك فيها، الا انه بقدر ما تكثر المعلومات الاثرية ويقوم البرهان على وجود الانسجام والتماسك بينها بقدر ما تعظم قيمتها من غير شك .

غير أنه يتعين علينا ان نسير في دراسة الاقسام سيرا منتظما .

فقبل كل شيء يوجد عامل جديد، فقد اعتبر بصفة تقليدية ان الفنيقيين هم الذين بدأوا العلاقات البحرية بين طرفي البحر الابيض المتوسط وهذا مع العلم بأن المكتشفات في ميدان عصر ما قبل التاريخ بعالم الغرب تميل الى التاكيد بقوة متزايدة ان تلك المواصلات البحرية اقدم من الفنيقيين بكثير، ويوجد اتفاق عام او يكاد يوجد فيما يتعلق بعصر البرونز ونحن نكاد نقبل صحة القول بأن تلك المواصلات قد بدأت في العصر الحجري الجديد الاول، وهكذا نرى انه في الوقت الذي يقوى فيه انعدام البقايا المنتمية للدائرة الفنيقية حوالي 1000 عام نجد الشكوك تزول حول وجود المواصلات البحرية قبل هذا التاريخ بكثير فيتاكد ان الفنيقيين لم يكونوا في الواقع الا مواصلين لتلك العلاقات مع فارق واحد هو ان الاثر المكتوب قد وصل الينا عن تلك المواصلات بخلاف ما كان قبلها .

وهذه الظاهرة تضع القضية تحت زاوية جديدة، اذ يظهر من المجازفة بالنظر الى ما سبق ذكره نفي كل امكانية لاتصال الفنيقيين بالطرف الاقصى من الغرب قبل الوقت الذي تظهر فيه البقايا الاثرية بكثرة اى قبل القرنين السابع والسادس كما يروى في الاثر .

كما انه من المجازفة ايضا فيما نرى ان نأخذ مصادر الرواية على حذافيرها وتقبل دون اى مناقشة او اعتراض وجود استعمار بالمعنى الحقيقى للكلمة قبل القرن السادس مضادين بذلك كل حجة اثرية.

فهل لنا ان نظن ان الخلاف بين النصوص والآثار خلاف تام مطلق كما يظهر للناظر اول وهلة ؟

اننا نقول بالنفى، وقد اعربنا عن هذا الرأى فى بيان قدمناه الى «المؤتمر الدولى الرابع لعلوم ما قبل التاريخ» المنعقد بمدريد سنة اربع وخمسين وتسعمائة والف، وكان راينا هو التالى

لم يقع الالحاح بالتعرض لجزئية ملحوظة فى بعض النصوص التى يستند عليها فى التاريخ التقليدى لتاسيس المدن الفنيقية الثلاث العتيقة فى الغرب، وهذه الجزئية الملحوظة هى التى تتعلق بذكر الاماكن المقدسة فى تلك المدن، فنحن نرى ان «بلينيوس» لا يذكر اى تاريخ لتاسيس مدينة ليكسوس بينما يذكر تاريخ تأسيس معبدها الذى أقيم لهرقل مشيرا الى انه اقدم من معبد مدينة قادس، ثم نجده يتعرض لقدم «اوتيكا» بالنسبة الى بعض العناصر البنائية لمعبدها، وهى فى الحقيقة معلومات ثمينة وخاصة اذا علمنا انها ادق المعلومات التى وصلت الينا حول هذه المدن وتذكرنا انها صادرة عن مؤلف اذا كان متخنفا فى عصره عن العصور المؤرخ لها فقد كان عالما متحريا الثبوت والدقة .

وان الاهتمام بالتفريق بين تواريخ بناء المعابد وتواريخ تأسيس المدن راجع الى أنه من الممكن أن تكون تلك المعابد سابقة لتأسيس تلك المراكز البلدية، ذلك لان المنطق والتجربة لكل ظاهرة استعمارية بحرية فى الاراضى البعيدة يجبراننا على الافتراض بوجود فترة طويلة من ملاحة الاستكشاف والمبادلة التجارية قبل انشاء ما يمكن ان يسمى مراكز استعمارية، ولا يمكن تاسيس هذه المراكز وهذه المدن الحقيقية الا بعد انصرام هذه المرحلة .

ويجرى تثبيت هذه المرحلة الاولى بدقة بواسطة الانباء القليلة الواردة فى الكتب المقدسة عن قوارب صيدا التى كانت تتاجر مع الطرف الاقصى الى جهة الغرب والرحلات التى كانت تقوم بها كل ثلاث سنوات وكذلك بوصف هيرودوت لتجارة الذهب فى السواحل الافريقية البعيدة (الجزء الرابع صفحة 196)، كما ينعكس بوضوح على ما قال «استرابون» عند ما اكد ان تاسيس قادس قد

استلزم ثلاث ارساليات بعد العثور على مكان شبيه بالمكان الذى نزحوا عنه ونفس الشيء نجده فيما قال «تيميو» حول الملاحة التى سبقت نشوء قادس ، وان عالم الميثولوجيا العجيب والمجسم فى بعض الاقاصيص اليونانية كأقاصيص هرقل وانطيو وحديقة الهيسبيريد تشخص لنا هذه المرحلة الاولى تمام التشخيص ايضا .

واذا علمنا ان البحارة القدماء على العموم والملاحين الفنيقيين على الخصوص فى هذه الحالة كانوا يقومون اول ما ينزلون بارض جديدة بتقديم القرابين الى آلهتهم (كما فى جولة حانون) امكننا ان نعتبر ان هذه الاماكن المقدسة قد اسست قبل المدن بمدة طويلة، واذن أليس فى مستطاعنا ان نقول ان هذه المدن لم تؤسس فى الواقع الا خلال المرحلة الاستعمارية الثانية بجوار تلك المعابد المقامة فى المرحلة الاولى ؟

وهكذا يمكن ان نقول ان معابد ليكسوس وقادس و «أوتيكا» تؤرخ للاتصالات الاولى التى جرت بين الفنيقيين وبين أماكن الاستكشاف والمبادلة التجارية ولا تؤرخ لتأسيس المدن التى تم فيما بعد من غير شك، ونحن نعلم ان الفنيقيين كانت لهم مساحات موقوفة على المعابد كما فى معبد «ملقارت» بمدينة صيدا فى وصف هيرودوت، وربما ادى تعاقب الزمن والانتقال الى الاثر المكتوب فيما بعد الى ضياع الفارق بين مجال المعبد وتأسيس المدينة المجاورة لـه .

ان انعدام المعلومات الاثرية فى هذه المرحلة الاولى السابقة للعهد الاستعماري يجعلنا نعتبر وجود البقايا المادية شاهدا على ان القرنين السادس والخامس هما الزمن الاول لاستقرار سواد المعمرين الشرقيين فى السواحل المغربية، وهذا الاستقرار كان كثيفا كما يبرهن عليه اتساع السادس والخامس هما الزمن الاول لاستقرار سواد المعمرين الشرقيين فى وهذه هى فى الحقيقة فترة التعمير التى ابتدأت آنذاك واستمرت اتصالاتها بعالم البحر الابيض المتوسط الشرقى الى ان جاء العصر الرومانى .

جـان لـوى مييـج [1]

المغـرب واسبانيـا والمصرف الاوربى بين 1868 و 1870

كـان تمرد «بـريم» يوم 17 شتنبـر 1858 سببـا فى نشوب الثورة باسبانيا، فقد قامت الصحف السرية والهيآت الخفية فى الداخل والخارج باعداد الحركة منذ مدة طويلة. وسرعان ما انتشرت الحركة بجنوب شبه الجزيرة (1)، ونشبت معركة «الكوليـا» يوم 29 شتنبـر فالتحقـت مدريد بصفوف الثوار (2) والتجأت ايسابيل الثانية الى فرنسا .

وحدث تمرد بالمفوضية الاسبانيـة بطنجـة فسلمت هذه الهيئة الى انصار النظام الجديد اذ كان القائم عليها يقضى اجازته آنذاك وهو السنيور «ميرى ابى كولون»(3) الذى كان من السابقين الى الالتحاق بالثوار والانضمام اليهم، واذا كانت الثورة لم تحدث اى انقلاب فى المندوبية الاسبانية بالمغرب فقد فتحت فى شبه الجزيرة فترة من «اكثر الفترات اضطرابا فى تاريخ غير عادى»، فقد ظلت اسبانيا تبحـث عبثا خـلال ست سنوات عن توازنها فى السياسة والاجتماع والاقتصـاد (4)، وقـد ضعفـت سمعتها بسبب الفتن الداخلية ونضبت خزائنها فاضطـرت الى التخلى عن كل سياسة تسوقها الى المغامرة فى الخارج والى الاقلاع عن عملها بالمغرب الذى باشرته بقوة وأناة بعد اتفاق «وادراس» (5) .

وكان يظهر ان المصالح الفرنسية ستستفيد من هذا التقهقر الاسبانى فقد كانت المصالح الفرنسية فى شبه الجزيرة هامة اذ زاد مجموع الامـوال المثمرة فى سكك الحديد بين 1852 و 1860 على ستمائة مليون من الفرنكات (6) ثم ان الازمة التى حدثت عام 1866 والتـى أرغمت فـرع «قـرض العـروض والمنقولات» على وقف نشاطه لم تصب القسم الهام من المواقع الاقتصادية الفرنسية فى البلاد الاسبانية (7) ، فقد كانت الشركات الكبرى على احسن

1 ـ ر. لاميبريـه فى كتابـه «الحركـات العماليـة والاشتراكية» اسبانيا 1750 ـ 1936 باريس 1953 صفحة 41 ، كان عضوا فى اللجنة الاقليمية للحكومة المؤقتـة السنيور «فيرمين سالفوتشيا» الذى التجأ فيما بعد الى طنجـة ، انظر ما كتب «جـان لـوى مييج» فى الصحف والصحفيين بطنجة فى القرن التاسع عشر بمجلة «هيسبيريس» العدد الاول لسنة 1954

2 ـ «تاريخ اسبانيا لمؤلفه بروغيرا طبعة 1954 صفحة 255

3 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1630 طنجة 21 نوفمبر 1868

4 ـ «التاريخ الاقتصادى لاسبانيا» لمؤلفه فيسينس فيفيس صفحة 582

5 ـ «المغرب والدول الاوربية بيـن 1830 و 1904» لصاحبـه جان لوى مييج

6 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1639 طنجة 11 نوفمبر 1868

7 ـ «متداول الارصـدة العمومية» لصاحبه «كورتـواه» ـ باريس 1883 .

حال رغم انها كانت مضطرة الى التعامل مع حكومة كثرت ديونها وعظمت حاجتها، فقد كانت حرب المغرب سنتى 1859 و 1860 قد كلفتها ما يزيد على مائتين وخمسين مليونا واثقلت دينها العائم بما يقارب مائة مليون من الفرنكات. ثم ان الاعوام التالية قد زادت فى خطورة مصاعبها المالية (8)، وسياسة التوسع فى «المكسيك» و «سانطو دومينكو» و «الكوشينشين» والمجهودات العسكرية الناتجة عنها قد تسببت فى رفع مجموع الدين الى ما يزيد على عشرة مليارات اى الى خمس ميزانية الدولة. ثم ان الازمة الاقتصادية التى حدثت بين 1866 و 1867 قد صادفت فترة العجز فى الميزان التجارى لاسبانيا فصرفت الاموال عنها .

ولجأت الحكومة لمواجهة هذه المصاعب الى وسائل متعددة هى الزيادة فى الضرائب وتحويل القرض المعاد بالفوائد وتخويل امتياز صنع الملح والتبغ او بيعهما، وقد باعت الحكومة ايضا املاكا قومية وخاصة الغابات التى كانت فى ملكها وكان «لها انتاج ملحوظ» (9)، وبعد استنزاف هذه الموارد اصبح وزير المال يواجه عجزا تزداد خطورته بضعف المداخيل الناتج عن الاضطرابات، فالمدن التى سبق لها ان الغت الضرائب على «المواد المستهلكة» قد اصبحت تمتنع عن اقرارها من جديد. وكان على الدولة ان تفكر فى موارد جديدة، فقد حاولت ان تحصل فى الخارج على قروض فلم تنل نجاحا كبيرا رغم اهمية الامتيازات المخولة للمقرضين. وتنازلت الدولة عن المناجم لشركات اجنبية وخاصة لشركة «روشيلد» التى تملكت مناجم «المعدن». وصدر قانون نوفمبر 1868 فنص على تخويل ملكية السكك الحديدية بصورة دائمة. بل ان الدولة وصلت الى التفكير فى بيع ما كان لها ان تتسلمه من تعويضات الحرب التى التزم المغرب بأدائها غداة انتهاء الحرب الاسبانية المغربية لسنة 1859 ـ 1860 .

تعويضات الحرب

ونصت المادة الرابعة من الاتفاق المبرم بين «اودونيل» ومولاى العباس على ان يؤدى المغرب تعويضا عن الحرب يبلغ عشرين مليونا من الريالات (110 مليون من الفرنكات الذهبية) (10) وانتهى هذا الاتفاق التمهيدى الى ابرام اتفاق بتطوان تمت المصادقة عليه يوم 26 ابريل 1860 (11)، ونصت

8 ـ الحالة المالية لاسبانيا سنتى 1864 و 1865 «بولو» ـ باريس صفحة 43

9 ـ البارون دى تيرقو «اسبانيا سنة 1867 ماليتها وادارتها وجيشها»

10 ـ لاس كاخيغاس «القواعد التمهيدية لابرام عقد ينهى الحرب الموجودة الآن» من كتاب «الاتفاقيات والمعاهدات المتعلقة بالمغرب» مدريد 1952 صفحة 39

11 ـ «علاقات اسبانيا والمغرب خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ـ اصول وشروط الاتفاق لصاحبه «رووارد دو كارده»

المادة التاسعة على اداء التعويضات في اربعة دفوعات متساوية ايام فاتح يوليوز و 29 اغسطس و 29 اكتوبر و 28 ديسمبر 1860 على ان تواصل القوات الاسبانية احتلالها لتطوان الى ان يتم اداء التعويضات .

وظهر عجز الخزينة المغربية عن اداء هذا المبلغ. فقد كانت مصاريف الحرب قد انهكتها. واجتهد السلطان في تزويد خزائنه باقرار جبايات جديدة ولم يكن اصل هذه الضرائب الجديدة مما يجعل الشعب راضيا عنها بل ان استياءه قد عظم ولو انها لم تات الا بنتائج يسيرة. وذهب مولاى العباس في مهمة الى مدريد فحصل على تاخير اجل اداء القسط الاول الى متم اغسطس 1860 وتاخير اجل اداء القسط الثاني الى مطلع سنة 1861 (12)

ولجأ المغرب الى حلين احدهما الاستقراض والآخر هو رهن مداخيل الجمارك، فقد استطاع المخزن بفضل اسناد «جون دروموند هاى» ممثل بريطانيا العظمى فى طنجة ونفوذ «سير جون غرابتون» فى مدريد ومجهودات الحكومة البريطانية وخاصة للعلاقات التى كانت لمستر «لويس فورد» التاجر بمدينة آسفى فى عالم المال ان يحصل من مصاريف لندن على قرض يبلغ مليونين من الريالات بفائدة 10 فى المائة (13)، وان الاتفاق الذى تم فى سبتمبر وجرى التوقيع عليه فى اكتوبر 1861 قد نص على ان نصيبا من رسوم الجمارك سينفق فى ضمان سير العمل بتلك المراكز واستعادة القرض بصورة تدريجية (14) .

وجرى التنصيص من جهة اخرى على ان يتم اداء ما تبقى من التعويضات سنويا بدفع مدخول الجمارك، وقام الموظفون الاسبانيون من جباة ومراقبين استقروا بالموانىء المغربية الثمانية المفتوحة للتجارة باستلام خمسين فى المائة من رسوم الصادرات والواردات لحساب اسبانيا (15)، وجرى العمل على هذا النحو بكيفية عادية فيما بين سنتى 1862 و 1867، ومع ذلك فان الدين الذى بقى على المغرب كان هاما، وقد كان الجنرال «اوريبى» ورجال المصارف الاوربيون يأملون الاستفادة من هذا المبلغ .

12 ــ سجلات المفوضية الفرنسية بطنجة 28 ــ 8 ــ 1860 و طنجة 29 ابريل 1861

13 ــ سجلات «بيلك ريكوردا وفيس» ــ مذكرة 13 نوفمبر 1860 ــ لندن 22 نوفمبر 1860

14 - Papers relating to the loan raised by the Emperor of Morocco, London 1862

15 ــ كلاوديو ميرايبس دى ايبيريال اى لوميث «قصة المساعى لتنفيذ الشرط المتعلق بالتعويضات فى معاهدة الصلح مع مملكة المغرب سنة 1860 طبع بمدريد سنة 1950 .

مـشـروع ايـرلانـجـيـه

لم يكن هذا المشروع فى الواقع بالشىء الجديد، فقـد كان المصرفى البريطانى لويس فورد الذى قام على تخويل القرض للمغرب سنة 1861 هو اول من فكر فيه، فقد عرض على الحكومة الاسبانية ابتداء من شهر شتنبـر 1862 ان يقوم فى الحال باداء نصيب من التعويـض علـى شرط ان يخـول حقوق الجمارك المغربية (16)، وكان دين اسبانيا على المغرب آنـذاك يزيـد على خمسين مليونا من الفرنكات، فاقترح فورد ان يؤدى ثلاثين مليونا فى الحال نقدا، وكان فى عمله هذا مفوضا من قبل المصارف الانجليزية «ج. ب. ميشل» و «فليمينغ» و «و. ر. روبينسن» و «ب. ب. بلايث» التـى تكفلـت بقرض 1861 وحاولت ان تؤسس فى المغرب مصرفا صاحب امتياز فى عـدة مناسبات (17)وجاء ميشل سنة 1862 الى طنجة ليقوم على تنفيذ المشروع الذى عرف كيف يستنهض اهتمام معظم الشركات اللندنية التى لها علاقات تجارية مع المغرب(18) غير ان المفاوضات التى بوشرت سواء فى مدريد او مع المخزن قد اخفقت، فاذا كانت الحكومة المغربية تقبل عن رضى قيام اشخاص عاديين مقام عملاء رسميين لدولة لم تكن تخفى مطامعها فى افريقيا فان الحكومة الاسبانية كانت ترفض حرمان نفسها من مخبرين مقتدرين ومن ذريعة ممكنة للتدخل. فعند ما أرسلت سفارة الحاج ادريس بن ادريس الى مالقة التـى كان يقيم بها مجلس «الكورطيس» آنذاك اكد «اودونيل» المعارضة التامة للمشـروع مصرحا «بأن اسبانيا لن تقبل ابـدا التنـازل لحكومـة اخرى او لشركـة او لمجرد اشخاص اجانب والسماح لهم بالتدخل فى الجمارك المغربية» (19)

وكان «فورد» لا يزال يتابع المحاولة الثانية التى قام بها سنة 1862 . فقد كان عميلـه «بول لامبيـرت» علـى اتصـال بـدور تجاريـة كبرى فى مرسيلية (20) واستطاع ان يقنع «البارون ايمى داكـان» وزيـر فرنسا فى

16 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1638 طنجة 10 اكتوبر 1862 جواب السنيـور صاطورنينو كالديرون كوبانطيس، وزير الدولـة فـى الشؤون الخارجية من مالقة بتاريخ 18 اكتوبر 1862

17 - Cf. supra, p

18 - FO 99/119 Londres 1863 - 4 - 28

19 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1639 طنجة 21 نوفمبر 1868

20 ـ كان بـول لامبير شخصية لا تخلـو من اهمية وكانت غريبة فى تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر، فقد استقر بالقطر سنـة 1853 ممثـلا لبعض الدور التجارية الانجليزيـة والسويدية بجبل طارق وكان متصلا باصحاب المصالح فى مرسيلية كما كان مغامرا شارك فـى عدة صفقات تجارية ودسائس سياسية فى اقليم سوس، ثم استقر بمدينة مراكش سنة 1864 ثم فى طنجة والجديدة، واصبح عميلا سريا سنة 1870 ـ 1871 للبارون ايمى داكان وزيـر فرنسا بطنجة لمراقبة اعمال الالمـان فـى الحـدود المغربية الجزائرية، غير انه اختفى بكيفية غريبة أيضا من مسرح الحياة المغربية سنة 1875 بعد ان اقام بالمغرب 23 سنة .

طنجة بفائدة هـذه الصفقة (21)، وقامت المفوضيـة باسنـاد مساعيـه لدى الحكومة الاسبانية (22)، وقد اقتـرح اداء اثنـى عشـر مليونـا ونصفا من الفرنكات نقدا مقابل تخويله ما تبقى من مبلغ التعويضات مع العلم بأن هذا القدر ليغرى اسبانيا فلم تكن للمحاولة نتجة .

واستاءت احوال المالية الاسبانية سنة 1868 بكيفية تحمل على الامل في الحصول على نتيجة احسن، وكان لاسبانيـا ان تتسلم بعد ذلك ما يزيد على ثمانية وثلاثين مليونا من الفرنكات بقليل (23) ثم ان انخفاض التجارة المغربية فـي 1867 و 1868 قد ادى الـى انخفـاض فـى الرسوم الجمركيه ومداخيلها. ونزلت بذلك المقادير التى تقاضاها الجبـاة (24)، وقد بـان ان المغرب لن يتخلص من بقية الدين قبل مرور مدة تتـراوح على الاقل بيـن 17 و 21 سنة (25)، وقدم الجنرال «خوسى اوريبى» فى شهر اكتوبر 1869 مشروعا جديدا لاستخلاص التعويضات الى الحكومة المؤقتة، وكان الاقتصاد العام هو اقتصاد المشاريـع السابقة، ويقـوم هـذا الاقتـراح على ان يؤدى المغرب نقدا 16.850.000 من الفرنكات وتؤسس مقابـل هذا الاداء العاجـل شركة تعترف بها الحكومتان الاسبانية والمغربية علـى ان يحل عمـلاؤها مكان الجبـاة الاسبانييـن وكانت هناك مصالح اجنبية مختلفة وقوية وراء «اوريبى» الذى لم يكن يسند العملية الا باسمه وبما كان له من صلات، وقد كان البارون ايرلانجيه رجلا ذا جنسية مشكوك فيهـا وصاحـب مصـرف ، وكانت له صلات فى المقامات العليا سواء فى باريس او برلين او مدريد او لندن (26) وكان قد اختص فى تقديم القروض للحكومات التى تصبح حالتها

---

21 ــ رسالة لامبير الى ايمى داكـان يتحدث فيها عن «دار لفرنسا تتمتع بالاحترام سـواء فى العلاقات المالية او فـى غيرهـا .

22 ــ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1838 ــ مدريد 30 نوفمبر 1864

23 ــ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بروما 1372 طنجة 34 ابريل 1869

24 ــ جان لوى مييـج «تحقيق حول المغرب الفلاحى» فـى النشـرة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب عدد 67

25 ــ كان ميرى اى كولـون يقول 17 سنة وكـان «سكـوفاسو» قنصـل ايطاليا بطنجـة يقول 21 عاما، وكان المندوب الاسبانى يعارض العقد فحرص دائما على التقليل من اجل الاداء .

26 ــ ولد فى فرانكفورت سنة 1832 وكان مستعدا للتجنس بالجنسيـة الفرنسيـة لان مصالحه بفرنسا كانت اعظم من مصالحه ببريطانيا العظمى. وكـان شريكـا لمستر «اوبنايم» الذى كانت له علاقات من المانيا كما كان يمثل المصالح الايطالية، وهو يمثل المصرف الدولى لما كانت له من معرفـة بتوزيع الاخطار، فاز بوسام جوقة الشرف وبالصليب الاكبـر لايسابيل الكاثوليكية وبوسام فروسية التاج الحديدى، ثم كان قنصلا عاما لليونان وتزوج من امرأة امريكية هى بنت لوزيـر الولايـات المتحدة فـى باريس ــ الوثائق الدبلوماسية الفرنسية .

المالية فى حرج، فقدم قرضين استفاد منهما استفادة كبيرة لباى تونس ، وحصل على فوائد هامة فى القروض التى خولها خلال السنوات 1863 و 1864 و 1865 مع العلم بانه كان يلقى الاخطار على الدائنين الحقيقيين لانه لم يكن فى الواقع الا وسيطا، وقد اخذ ايرلانجيه يهتم بالمغرب منذ التجارب الاولى للقرض الذى ابرمه سيدى محمد، فقد كان على اتصال مستمر بالدار التجارية الهامة «سميث» بجبل طارق التى كانت عميلة لدور «روبنسن» و «فليمنغ كومبانى» فى جباية الرسوم السنوية من قرض 1861 (27). فعند ما ظهرت المصاعب المالية فى المغرب سنة 1866 وظهرت ضرورة القيام باصلاح نقدى قام «ايرلانجيه» بارسال احد موظفيه وهو «غوستاف ايليسن» الى طنجة لدراسة امكانيات التدخل (28) . الا ان الحالة الاقتصادية والدبلوماسية للمغرب كانت تختلف اشد الاختلاف عن حالة تونس، ثم ان ايرلانجيه قد اجل عروضه وان لم ينصرف عن الاهتمام بالمغرب، وكان يرى ان مصاعب الحكومة الاسبانية ستيسر له القيام بصفقة رابحة جدا، الا ان الشخص الذى كان يقوم على العملية فى الحقيقة هو البارون «سيير» وقد بينا مبلغ اهتمام شركة «سيير» وهى لصناعة النسيج بالمغرب والدور الذى قامت به فى اقرار المراكز الفرنسية الاولى فى المغرب وخاصة فى الدار البيضاء (29)، كما بينا ما كان لها من مصالح فى هذه البلاد، فقد كانت استحوذت فيما بين سنة 1840 و 1866 على النصيب الاكبر من تجارة الاصواف المغربية (30) واصبحت تحتل فى سوق الصوف بفرنسا مكانة ممتازة (31) .

---

27 ـ كان سميث منذ مدة طويلة عميلا للنويس فورد فى جبل طارق، وقد ترك لعميله هذا عددا من الشؤون التجارية عند ما اعاد تنظيم شركاته التجارية بالمغرب، وكانت شركة سميث آند كومبانى احدى الشركات الكبرى الموجودة بالمدينة وعلى اتصال دائم بمعظم المرافىء الاوربية، كان سميث فى الواقع مثال التاجر الذى يعنى بشؤون المصارف.

28 ـ جان لوى مييج فى كتابه «الاوربيون بالدار البيضاء فى القرن التاسع عشر» ـ طبعة لاروس سنة 1954

29 ـ جان لوى مييج فى مؤلفه «تجارة الاصواف المغربية فى القرن التاسع عشر» ـ النشرة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب لسنة 1955 العدد 63

30 ـ مسيو بنو دو لوميني «مسؤولية البيوت البورجوازية» الجزء الاول صفحة 120

31 ـ كانت شركة سميث من جبل طارق مشاركة فى هذه العملية، وكان هو يمثل الاموال اللندنية واموال مانشستر، وكانت خيوط هذه الشركات متشعبة لا تكاد تعرف .

وقد دخل مع الشركة المذكورة اصحاب شركة «بيرير» يكون من رجالها مساهمون بين 102 من المساهمين فى «الشركة العامة للقرض الخاص للمنقولات» التى تاسست فى شهر نوفمبر 1852 ولم تكن لهم علاقات تجارية هامة معهم؟ (32)، فقد كان ايرلانجيه نفسه مرتبطا بشركات «بيرير وعميلا لشركة القرض المذكور فى معظم الحالات (33)، وكان افلاس تلك الشركة الكبرى بل جامعة الشركات ابان الازمة العظمى التى حدثت سنة 1867 مما ادى الى بقاء عدد من الشركات التابعة لها فى اسبانيا، وكانت الاموال البريطانية واموال اهل مرسيلية شديدة الاهتمام بهذه القضية التجارية ايضا، وكان «سيير» قد فكر فى وسيلة للحصول على ضمانة التعويض لا بواسطة استلام مداخيل الجمارك بل اما باحتكار التجارة المغربية فى الصوف واما ـ اذا كان هذا الاحتكار مستحيلا لتعارضه مع الاتفاق المبرم سنة 1856 ـ بان يدفع المخزن الصوف بوصفه ضريبة (34)، وهكذا استعاد احد مشاريعه القديمة التى فكر فيها واعدها قبل عشرين عاما .

وكان «ايرلانجيه» و «شرويدر» و «اوبنهايم» يمثلون عنصر المال، اما البارون «سيير» فكان يمثل عنصر التجارة فى هذه الصفقة التى كانت فائدتها على المغرب ثانوية وان كانت ذات اهمية اولية بالنسبة الى مستقبل البلاد .

المفاوضات الاولى

كانت الشركة قوية لانها كانت تمثل اموالا متحدة تستند على أسس سياسية، فقد كان «سيير» يعتمد منذ مدة طويلة على صداقات متينة فى عالم الحكومات (35) وكان للمسيو ايرلانجيه فى مدريد من الصلات ما كفل له فى شهر يناير سنة 1869 الحصول على حق اصدار قرض بلدى بثلاثين مليونا من الفرنكات (36)، وكان السنيور «فيغيرولا» وزير المالية ميالا الى قبول هذا المشروع الذى اذا كان متواضعا بالقياس الى الحاجيات فان المبلغ المقترح كان ذا نصيب اذا اعتبرنا الضائقة المالية الكبرى، وقد استحسن المفاوضات فى شهرى نوفمبر وديسمبر وشارك فيها دون ان يشعر «ميرى اى كولون» الذى كان يعرف عنه معارضته لفكرة المفاوضات (37)، الا انه

32 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1639 طنجة ، 1 يناير 1869

33 ـ علينا ان نلاحظ من جهة عداوة ميرى اى كولون لبريطانيا العظمى مع العلم بانه وقف عمله ونشاطه وخاصة بعد سنة 1860 على معارضة سياسة السير جون دروموند هاى

34 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1639 طنجة 21 نوفمبر 1868

35 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 16 ـ 39 مدريد 12 يناير 1869

36 - سجلات المفوضية الفرنسية بطنجة 11 31 طنجة 18 يناير 1869

37 ـ وقد اعترف هو نفسه فى خطاب وجهه من طنجة بتاريخ 22 فبراير 1869 قال فيه «انه كان واجبا على ان لا اقوم بمسعى كان من شانه ان يزيد فى امتعاض المغاربة»

لم يتمكن مع ذلك من الحيلولة دون قيام الصحف الاسبانية والاجنبية بالتحدث عن المفاوضات والاعلان اوائل يناير عن الوصول الى اتفاق .

وسرعان ما قام «ميرى اى كولون» بمعارضة كل مشروع يهدف الى تحويل دين اسبانيا، وقد ورد خبران طويلان احدهما يوم 21 نوفمبر 1868؛ لدى وصول الشائعات الاولى حول مباشرة المفاوضات وثانيهما يوم 10 يناير 1869 عند اعلان الصحف عن قرب التوقيع على الاتفاق فتضمنا دفاعه عن وجهة رأيه التى كانت تتلخص فى الحجج الثلاث الآتية :

ان تأثير وجود الجباة فى الموانىء المغربية الذى كان ممكنا لاسبانيا سواء عن طريق الصلات التى كانوا يربطونها مع الشخصيات الهامة فى القطر او «بنزاهة الادارة وحسن تسييرها وما لها من نفوذ على السكان فى تقدير مزايا السيطرة الاسبانية بالمغرب ورغبة عدد مهم منهم فيها سيصبح بسبب تحويل الدين معرضا للخطر الكبير، ثم ان الرأى العام المغربى سيستنتج من بيع اسبانيا بثمن بخس لحق عظيم هام ان الدولة الاسبانية افلست واصبحت فى مصاف الدول الثانوية بحيث لم يعد هناك داع الى التخوف منها، وهكذا ستتضرر اسبانيا وستضيع فائدتها ومصلحتها فى نفس الوقت

وكان ميرى اى كولون يرى ان ضياع هذا النفوذ سيجعل فرنسا وانجلترا خاصة التى كانت ترد منها الاموال وراء ايرلانجيه ـ ترثان مكانة اسبانيا (38)، وقد كانت التجارة الفرنسية والانجليزية آنذاك رائجة فى المغرب، فاذا هما استوليا على مراقبة الجمارك او اصبح لهما احتكار تصدير الاصواف فسيتمتعان فى الحقيقة ببسط حماية اقتصادية على البلاد المغربية وقد ذهب الى الجهر بالحقيقة عند ما أكد ان حرب 1859 لم تكن لها غاية «الا تحطيم الحماية الانجليزية القديمة على المغرب... لانها كانت خطرا دائما على اسبانيا باحداثها حدودا انجليزية من نهر ملوية الى مدينة العرائش... (39) وكان ميرى اى كولون كثيرا ما يلح فى توضيح اخطار السيطرة البريطانية على البلاد المغربية (40) .

ولم يكن فى نهاية الامر يقتصر على ذكر المنافع بل كان يستثير حاسة الشرف، فقد كان يقول انه من الجناية ان يترك لايد اجنبية تسلم

38 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1639 طنجة 3 فبراير 1869
39 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1639 طنجة 15 فبراير 1869
40 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1639 طنجة 15 فبراير 1869

تعويضات «اكتسبت بدم جيشنا الشجاع في زحفه المظفر من «أوطيرو» الى وادراس (41)، وكان ميرى اى كولون يقترح فتح مفاوضات مع المخزن ليطلب منه الاداء العاجل مقابل تخفيض مبلغ من الدين، ولم يكن يخفى المصاعب التى قد تحدثها ضآلة الموارد فى الخزينة المغربية، ثم ان ضآلة الغلة سنة 1868 والازمة النقدية كانتا تستبعدان ابرام الاتفاق الذى لم يكن يقترح الا لتأجيل تطبيق عقد «ايرلانجيه».

وفى الوقت الذى كان يجتهد ويعمل فى مدريد مجندا اصدقاءه اصحاب النفوذ البعيد كان ميرى اى كولون يقوم فى نفس الوقت بالتدخل لدى المخزن وقد كان يكثر من ترديد آرائه وشرحها للسيد محمد بركاش نائب السلطان فى طنجة، فقد كان يقول انه ليس للمغرب ان يخاف من اسبانيا اى شىء لانها اذا تدخلت سنة 1859 فانما كان تدخلها بقصد انهاء ما كان لبريطانيا من حماية شبيهة بالحماية الرسمية عليه، ثم ان فائدة اسبانيا ومصلحتها هى فى استقلال المغرب وفى عدم وجود قوات دولة اوربية قوية امام شواطئها الجنوبية، وكان يرى ان قبول المغرب لاستبدال الموظفين الاسبانيين بعملاء انجليزيين وفرنسيين ولو بصفتهم ممثلين لمصالح خاصة سيؤدى به الى الوقوع عاجلا تحت النفوذ القوى البعيد لفرنسا وبريطانيا العظمى وتعريضه فيما بعد الى اخطار نشوب خلاف جديد مع اسبانيا، لذلك فليس فى مستطاع اسبانيا بعد التغلب على مصاعبها الحالية العابرة ان تقبل هذا الوضع من قطر حاربته قبل عشر سنوات، وقد كان القول لبقا ولهجة العداء للانجليز حكيمة، وكان من نتيجة ذلك ان قال بركاش كلاما قاسيا للسير «جون دروماند هاى» الذى هدد نائب السلطان باستقدام الاسطول البحرى البريطانى الى طنجة .

وكانت المفاوضات تتابع فى مدريد بين وزير المالية ووكيل الدولة الذى أشعره عميله فى طنجة، وقد استشهد وزير المالية يوم 9 يناير 1869 «بقانون الضرورة الملحة» وألح فى ضرورة فرض الاتفاق المبرم على المخزن، وفى يوم 12 يناير تلقى «ميرى اى كولون» مباشرة المفاوضات من الحكومة المغربية للحصول على رضاها بتحويل الدين الى شركة «ايرلانجيه» سميث (42)، وكان معنى تفويض هذه المهمة اليه الطلب منه ان يقول كلاما يخالف تماما ما كان يقوله من قبل، ولتأييد هذا المسعى جرى ترويج شائعات فى طنجة حول بعث ارساليات اسبانية الى المغرب، وكان بعضهم يؤكدون استنادا الى الاخبار

41 — سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1639 طنجة 20 فبراير 1869
42 — سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ب 1639 طنجة 21 ماى 1869

الواردة من مدريد وجبل طارق ان الحكومة المؤقتة كانت تطالب بتسليم «سانطا كروث لا بيكينيا» فى الحال وتحرير الاسبانيين الاسرى فى اقليم واد نون (43) .

وكانت الحكومة الاسبانية قد اتخذت قرارها وابرمت الاتفاق حول العقد مع ايرلانجيه، ولم يكن الامر يتعلق آنذاك الا باقناع المخزن بقبول العملية ورضاه عنها .

معارضة ميرى اى كولون

ولم يكن القائمون على هذه العملية قد شكوا ابدا فى عدم موافقة المخزن عليها، وقد اشتغلوا باقناع الحكومة الاسبانية وفرطوا فى القيام بالدعوة داخل المغرب فتركوا الوقت للسنيور «ميرى اى كولون» لاعداد المعارضة، ففى الوقت الذى كان يلفت انتباه وزيره الى «عوائق هذا المشروع المستحيل التطبيق» كان يواصل الدعاية بين الاوساط المغربية لاقناعها بالمعارضة بخلاف التعليمات التى كان يتلقاها، فهو لم يكن يشعر المخزن بمطالب الحكومة المؤقتة الموجهة اليه يوم 12 يناير (44)، واستقبل السيد عباس المقشد باشا طنجة يوم 19 يناير فكذب الوصول الى الاتفاق مع ايرلانجيه ووجوده على اهبة الابرام وان كان على علم بابرامه. وكان «رينالدى» هو الترجمان الاول بمفوضية اسبانيا فقام بمساعدته بتحذير كافة مخاطبيه من عواقب تفويت حقوق اسبانيا الى اشخاص غير رسميين، فقد كان يقول ان التجار الحريصين على الكسب لن يكون لهم استقلال الموظفين الاسبانيين ولا نزاهتهم، ومراقبة هؤلاء ستكون فاتحة عهد من الجور وتفويض لحقوق التجار المغاربة، وكان لهذا القول تأثير فى اوساط التجار الفاسيين الذين كانت صلاتهم ببيوت المخزن تجعل ذلك القول نافذا (45) وتأثر السيد محمد بركاش بهذا الرأى ورفع احتجاجا قويا ضد المشروع ورفض قبول تفويت حقوق الموظفين الاسبانيين فى الجمارك الى ايدى تجار اسبانيين او من جنسية اخرى لان التجار كما هو معلوم لا ينظرون الا لمصالحهم ومن شان حرصهم

43 – سجلات المفوضية الفرنسية 11 31 طنجة 21 ماى 1869
44 – سجلات المفوضية الفرنسية 11 31 طنجة 21 ماى 1869
45 – سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد – ب 1639 طنجة يوم 21 – 5 1869

هذا على منافعهم الخاصة ان يلحق الاضرار الكبرى بالمغرب» (46)، وان الشبه الكبير بين ما جاء في هذه المذكرة وما ورد في مخابرات سابقة لميرى اى كولون يشير الى حقيقة المصدر، فقد كان مندوب اسبانيا يكثر في مدريد من ترديد آرائه في الوقت الذي كان يعمل فيه على تقوية المعارضة المغربيه التي كانت آنذاك بعيدة عن القوة والاجماع بخلاف ما كانت تقول والتي كان يرجع ما في وجودها من قوة اليه، وقد طلب من الحكومة المؤقتة ان تلغي العقد وتؤكد في تصريح رسمي انها ترفض كل العروض الجديدة الواردة عليها من الخارج وانها تنوي الاستمرار في تسلم المداخيل الجمركية المغربية (47)، ثم اخذ السنيور ميرى اى كولون يقترب في النهاية من السير جون دروموند هاى والبارون ايمي داكان للحصول منهما على تأييد وكان يلوح مقابل ذلك بالتأميل في انضمامه الى مشاريع الاصلاح التي اعدها الوزيران وتخليا عنها لما اصطدما بمعارضته الشديدة .

مفاوضات رجال المصارف

وكانت الشركات الفرنسية والانجليزية التي يهمها نجاح المشروع تجيب بمجهود كبير على المجهودات التي كان يبذلها «ميرى اى كولون» فقد كان «سميث» يطلب مساعدة السير جون دروموند هاى (48)، اما ايرلانجيه فكان يكثر من لالحاح في مدريد في الوقت الذي كان فيه «سيبير» يتدخل في باريس، وقد قاموا بنشر نصوص العقد لقطع خط الرجعة على «فيغيرولا»، وكان وزير المالية في مسيس الحاجة ويغتاظ للمعارضة المغربيه التي كان يحس بأن فضل «ميرى اى كولون» عليها عظيم للغاية، وعاد الى الالحاح عليه يوم 23 مارس 1869 لانهاء العملية، واقترح رجال المصارف للتغلب على معارضة المخزن ادخال تعديل جديد يعود بالفائدة على الحكومة المغربية، وكان هذا الاقتراح يقضي بالاحتفاظ للحكومة المغربية بنصيب من الفوائد التي ستدرها العملية التجارية عليهم، وكان هناك تعديل آخر يقضي بتخلي سميث وايرلانجيه وشركائهما عن اقامة عملائهم في الجمارك المغربية وبقبولهم قيام موظفين مغاربة بتسلم الرسوم الجمركية دون غيرهم، ولن يكون لخلفاء القناصل البريطانيين حق المراقبة الا في حالة حدوث خلاف ،

46 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ـ ب 1639 طنجة 3 ـ 2 ـ 1869 .
47 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ـ ب 1639 طنجة 15 ـ 2 ـ 1869 .
48 ـ سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد ـ ب 1639 طنجة 15 ـ 2 ـ 1869 .

وكان وزير المالية الاسبانية يؤيد سميث الذى اجتهد اثناء نقاش طويل بطنجة يوم 21 ماى 1869 لحمل السنيور ميرى اى كولون على تأييد مشرعه (49)

ونشبت حوادث فى مليلية فعاد القول من جديد الى قيام الاسطول البحرى الاسبانى بتهديد الشواطىء المغربية (50)، ولم يكن احد فى طنجه يشك فى ان القيام بذلك التهديد فى وقت اجراء المفاوضات لم تكن الغاية منه «الا الحصول على بضعة ملايين اخرى» بدعوى الترضية (51)، ويظهر ان المصالح البريطانية قد كسبت الشوط الاول فى هذا الاخذ والرد العسير المتشعب وانها كانت اكثر اهتماما بنجاح هذه العملية المقررة، وقام ميرى اى كولون باستنكار ذلك العمل الذى كان بمثابة حماية بريطانية حقيقيه يجازف رجال المصارف ببسطها على المغرب، وان الحكومة الفرنسية التى كانت تؤيد الفكرة اول مرة ثم التزمت التحفظ فيما بعد اخذت تبدى تخوفاتها وقد تلقى البارون ايمى داكان تعليمات بتأييد معارضة ميرى اى كولون (52)

وظهر انه من الواجب ان يحدث تكتل جديد للقوى السياسية فى المغرب كما ظهر ان الوفاق الفرنسى البريطانى الذى كان السلوك المتبع منذ سنة 1863 لابد ان يواجه اتفاقا اسبانيا فرنسيا. فهل كان من شان الحاج «فيغيرولا» ونشاط سميث وعلاقات ايرلانجيه ان يتغلب على هذا العائق وينتصر على معارضة المخزن ؟

فشل المشروع

وكان النجاح رهينا فى الواقع بالسير جون دروموند هاى قبل غيره الا ان سياسته الرزينة كانت قلقة من نتائج حدوث خلل فى توازن الدول بالمغرب، فهو لم يكن يؤيد مطالب اصحاب المصارف الابلين، وكان من نتائج انعدام القوة في هذا الموقف تثبيت السلطان سيدى محمد فى موقف المعارضة الذى اتخذه، فانه كان يرى ان هذا العرض فى ترضية او تنازل لن تكون له نتيجة الا استبدال المراقبة الاسبانية بالمراقبة البريطانية بصفة غير مباشرة، وعاد النائب بركاش الى تجديد التصريح الذى ادلى به فى شهر فبراير وهو ان السلطان الذى ينوى القيام على التطبيق التام لاتفاق 1860 لن يرضى ابدا عن التخلى عن جباية الرسوم فى الجمارك لغير الجباة

49 – سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد – ب 1639 طنجة 20 – 2 – 1869 .
50 – سجلات وزارة الشؤون الخارجية بمدريد – ب 1639 طنجة – 21 – 5 – 1869 .
51 – سجلات المفوضية الفرنسية بطنجة 11 31 طنجة – 21 – 5 – 1869 .
52 – سجلات المفوضية الفرنسية بطنجة 11 31 طنجة – 21 – 5 – 1869 .

الاسبانيين، وكان المخزن يجتهد مع ذلك في الاستفادة من المصاعب المالية للحكومة المؤقتة وكذلك من الخلافات القائمة بين «فيغرولا» وميرى اى كولون، فقد اقترح تخفيض الدين المغربى الى ثلاثة ملايين من الريالات يؤدى مليون واحد فى الحال ويقسط اداء المليونين الباقيين على عدد معلوم من السنوات وعلى آجال موقوتة (وكان يقترح ضبط عدد السنوات بعشرة) وكان من مهام الحكومة المغربية ان تقوم بجباية الرسوم على ان يكون للحكومة الاسبانية الحق فى اعادة الجباة اذا ما حل موعد الاداء ولم يدفع المبلغ المحدد. وكان هذا الاقتراح تجديدا فى الواقع لاقتراح سميث، ولما كان من حق اسبانيا ان تستلم 7.166.900 من الريالات فانها كانت تفقد بمقتضى هذا الاقتراح ما يزيد على اربعة ملايين من الريالات، وهذا مع العلم بأنها لن تتسلم نقدا الا مليونا واحدا، وما كان فى مستطاع فيغيرولا ان يقبل هذا الاقتراح لانه كان مرتبطا بالاداءات الاولى التى قدمها ايرلانجيه غداة التوقيع على العقد فكان عمله هذا عملا حكيما، وقد تم التوقيع على العقد فى شهر فبراير 1869 وكانت حالة المالية الاسبانية لا تسمح باعادة تلك المبالغ .

ومر فصل الصيف كله فى أخذ ورد بين سميث والمخزن وبين ايرلانجه وفيغرولا وبين «ايمى داكان» وميرى اى كولون، وكان هذا لا يفتأ يردد على وزيره ان تطبيق العقد مستحيل لانه سيقضى نهائيا على النفوذ الاسبانى فى المغرب ولان السلطان لا يريد تطبيق ذلك العقد فلن يقدر على مواجهة معارضة شعبه وكان يسند هو تلك المعارضة بالعمل لدى السيد محمد بركاش ولدى امناء المراقى» مستعينا على بلوغ غايته بمندوبى ايطاليا والولايات المتحدة .

وحدث اغتيال تاجر اسبانى يدعى «ميتديث» بضواحى مليلية فتضررت به نتائج ديبلوماسية حكيمة، فقد جرى الحادث بالضبط فى الوقت المناسب حتى لا تتهم المصالح المعارضة للتفاهم الاسبانى المغربى دون الاستناد على حجج جدية، وأصبح كل شيء معرضا للزوال من جديد، فقد طالبت مدريد بعزل باشا الريف ومعاقبة الجانين عقابا صارما، وكان من شأن هذه التهديدات ان تحمل المخزن على التراجع فيما يتعلق بأمر التعويضات، وجاءت البارجة المصفحة «تطوان» لارسو بميناء طنجة فى شهر نوفمبر

ومع ذلك فقد كان الجانبان يريدان الوصول الى اتفاق فقد كانت الحكومة المغربية فى خلاف مع المندوب الايطالى حول قضية «الدكالى»

فجنح الجانبات الى التصالح (54) ثم ان الحكومة الاسبانيـة اخذت تتأسف للتسرع الذى تم عليه امضاء العقد مع ايرلانجيه، واخذت حجج «ميـرى اى كولون» تظهر قوية وتؤثر فى الراى العـام، فقد أخذت مدريد بعد التغلب على الازمة المالية ترى نفسها قلقة من جراء النتائج السياسية لما تنازلـت عنه وظنته امرا يسيرا، وجرى الترخيص فى شهر نوفمبر للسنيور ميرى اى كولون بأن يقترح على السيد محمد بركاش اتفاقا يقوم على القواعد التالية، وهى أن تقدم الحكومة المغربية لاسبانيا عاجلا على حساب ما بقى عليها من دين التعويضات مليونـا من الريالات فتمنحها الحكومـة الاسبانيـة وصلا مقابل ذلك المبلغ بقدر 2.250.000 من الريالات، وكان من شأن هذه العملية الرابحة بالنسبة الى السلطان ان تحفظ جميع حقـوق اسبانيـا فى نفس الوقت، ثم انها تكفل للدولة الاسبانية ان تخرج من عقد ايرلانجيه بأن تدفع خمسة ملايين من الفرنكات التى سبق لهذه الشركة ان دفعتها اليها.

وبوشرت المفاوضات فى فصل الشتاء 1869 ـ 1870، وقد كانت المصاعب الايطالية المغربية تيسر امكانيات الاتفاق، فقد كان المغرب يبحث عن تأييد اسبانيا للحصول على تسوية مشرفة، الا ان الضائقـة المستبدة بالخزينة المغربية من جراء الازمة الاقتصادية سنتى 1867 ـ 1868 كانت تعوق ذلـك ، وكان الجانبان على وشك الوصـول الـى اتفاق عند مـا افتتنت الحكومـة الاسبانية فتخلت عن المشروع فى شهر فبراير 1870، فقد كانت الحكومة الاسبانية تفكر آنذاك فـى بيـع «حجرة بـادس» (55)، وقـد حـدث التوتر الديبلوماسى بين فـرنسا وروسيـا ثم نشـب الخلاف فحملا اسبانيا على التخلى عن كل هذه الحلول، فقد اصبحت اسبانيا تريد الاحتفاظ بمراكزها وجباتها فى المغرب بالنظر الى امكانية تسوية عامة لكافة قضايا البحر الابيض المتـوسـط .

وتم التخلى بصفة نهائية عن عقد ايرلانجيـه، فقـد اعـادت الحكومـة الاسبانيـة السلـف الذى تسلمتـه وظـل جباتهـا فى الموانىء المغربية الى سنة 1885 .

---

54 ـ كان الدكالى محميا ايطاليا فاعتقلته السلطات المغربيـة ، وقد طالـب المندوب الايطالى السنيور «سكوفاسو» فى عنف باصلاح هذا الخطأ والتعويض عنه جبرا لخاطر ايطاليا، وكـان اعتقالـه سببـا فـى قطـع العلاقات الديلوماسيـة ، ووصلت الازمة الى درجة ان هـددت ايطاليـا بارسال اسطولهـا البحرى الى المراسى المغربية .

55 ـ قام مجلس الدولة بعرض تقرير وزارة الحربية حول مزايا العملية ونقائصها يـوم 21 فبراير 1870

الخاتمة

واذا كان مشروع ايرلانجيه ـ سميث ـ سيير لم يكتب له النجاح فلم يكن مجردا عن التأثير في سياسة الدول في المغرب، فقد تضرر النفوذ الاسباني بسبب تلك المفاوضات كما تخوف منها «ميري اى كولون»، فقد كان استعداد حكومة مدريد لبيع اهم المزايا التي حصلت عليها في حرب 1860 بثمن ضئيل جدا مما برهن على ان اسبانيا لا يمكنها ان تحلم بمزاولة سياسة القوة في افريقيا الشمالية، وهكذا ذهب عبثا نصيب هام من المجهودات المبذولة خلال عشر سنين، وقد كانت الاوساط المغربية بالاضافة الى اقتناعها بضعف اسبانيا مغتاظة من ذلك السلوك الذي اعتبرته غير شريف، فالتسرع في مباشرة المفاوضات والعزم على اقصاء السنيور ميري اى كولون قد حالا بين الحكومة الاسبانية وبين مفاتحتها للحكومة المغربية بنواياها فلم تعلم هذه الحكومة بابرام العقد الا عند ما شاع خبره بين مطلق الناس .

وجاءت حرب 1870 والانكسار فيها بعد بضعة شهور فكانت نتائجهما ابعاد السياسة الفرنسية على غرار ما لحق بالسياسة الاسبانية، وهكذا تقوى النفوذ البريطاني من جديد فسجلت الاعوام المتراوحة بين 1870 و 1876 اوج النجاح في عمل السير جون دروموند هاي .

وقد جاء هذا الحادث مظهرا لحبكة الدسائس المالية التي اصبحت عاملا محققا بعد بضع سنوات وان لم يكن غير فاصل في تطور القضية المغربية، فان المصالح المالية التي شاهدناها فيما بين 1868 و 1870 هي التي ستظهر وسنجدها من جديد في بداية القرن العشرين .

ولم يكن اقل اهمية مما سبق ان لاحظناه من تعارض بين سياسة الحكومة الاسبانية وتطبيقها المحلي، فقد استطاع ميري اى كولون انجاح آرائه الشخصية ضد آراء وزير المالية وآراء وزير الشؤون الخارجية، ثم انه لم يتردد في الاحتفاظ ببعض الآراء الموجهة الى المخزن ولا في اظهار الراى الذي كان يسعى لنشره باعتباره رأيا ثابتا للحكومة المغربية او في شرح الردود التي كان يدلي بها المندوبون الاوربيون في غير وضوح ولا تصريح باعتبارها استنادا لرأيه، ونحن نقف هنا على الدور الفاصل الذي يلعبه كل شخص تسند اليه مهمة التطبيق مهما كان مجردا، وهكذا نرى ايضا انه لا يكفي للمؤرخ ان يعرف السياسة الرسمية لحكومة من الحكومات بل يتعين عليه ان يتتبع كيفية التطبيق المحلي من طرف العملاء والمندوبين ليقف على مدى الانحراف وان تفاوتت قوة الرغبة فيه.

اول معاهدة صداقة بين المغرب وامريكا

تفضل صديقنا والعضو في هيئة هذه المجلة الاستاذ الجليل محمد ابراهيم الكتاني بتمكيننا من نسخة مصورة للمعاهدة التى كانت قد ابرمت بين المغرب وامريكا سنة 1786 والتى تنشرها كما هي في نصوصها، وفيها بعض الاخطاء الاملائية والنحوية واللغوية وهي لا تخفى على القارئ.

ويلاحظ على الوثيقة أنها تستعمل الفاظا اجنبية أو عامية، فالاجنبية مثل : (اصطادوس) و (سنجق) و (كمانية) و (صاكة) و (قنصو) و (الكرة او القرة) و (سوط رايس) و (مركانطى) و (كطربنط) وغيرها .

واما الالفاظ العامية فمثل : (الفلوكة) و (التسبب) فى التجارة ثم (السباب) بمعنى (التسبب) و (تقلب) اى تختبر .

كانت الاتفاقيات بين الدولة العلوية وغيرها من الدول تلتزم فى جوهرها البنود الواردة فى الاتفاق البحرى التجارى الذى حصل بين الولايات العامة للاراضى الوطئة، والمولى عبد الله، فلا يلاحظ فيما تلا هذه الاتفاقية من فرق كبير بينها الى ان كانت ايام المولى عبد الرحمن فابنه المولى محمد ...

ولكن يستثنى من ذلك هذه الاتفاقية التى حصلت بين امريكا والمولى محمد بن عبد الله فهى تختلف فى بعض بنودها عن تلك التى عقدت بينه وبين فرنسا والبرتغال والسويد والدينمرك ...

خصوصا منها البنود العاشر والحادى عشر والسادس عشر والرابع والعشرين .

ولعل ذلك انما املاه الوضعية التى كانت عليها الولايات المتحدة من الفتوة والصراع الذى لم يكن قد انتهى بينها وبين انجلترا .

اما المغرب فانه من ناحيته ربما كان يهمه ما ورد فى البند العاشر على ان هذه الاتفاقية بعينها هى التى جددت بين المغرب والولايات المتحدة

على عهـد المولى عبد الرحمن بن هشام سنة اثنين وخمسين ومائتين والف وقد عقدت ـ او جددت كما قلنا ـ بواسطة النائب الامريكي بطنجة، كما هي حتى في اخطائها التي اشرنا اليها، مما يدل على ان الرغبة في هذه الاتفاقية كانت من قبل امريكا التي احيتها ولم تكن من قبل المغرب الذي وافق عليهـا والسلام... وفي «الاتحاف» ان بنودهـا «وضعـت علـى يد نائبهـا بطنجة (جيمس لاعيب) ـ كذا ـ » فكان نص الاتفاقية على عهد المولى محمد بن عبد الله انما احتفظ به في الولايات المتحدة ولم يحتفظ بـه فـي المغـرب حتـى اعتقـد صاحـب «الاتحاف» ان تلك البنود الواردة مكررة بنصها وعددها في الاتفاقية على عهد المولى عبد الرحمن انما هي من وضع النائب الامريكاني بطنـجـة ...

والغالب ان الاتفاق على عهد المولى عبد الرحمن انما كان تجديدا فقط للاتفـاق المبـرم علـى عهد المولـى محمد بن عبد الله، اذ كانت مدته المقررة بخمسين سنة قد انتهت سنة 1250 فجدد العقد كما هو بنصوصه الكاملـة وصودق عليه سنة 1252

وقد نص في آخر بند من هذا الاخير ايضا على «ان هذا الصلح يبقى مستمرا ان شاء الله بحول الله وقوته مدة من خمسين سنة ويبقى يجرى بين الدولتين على القانون الجاري حتى يخبر احد الجانبين الآخر في مدة من سنة بأن مراده قطعه فحينئذ ينقطع بعد تمام تلك السنة»

ومعنـى هـذا ان الاتفاقيـة كانت سيسرى مفعولها حتى سنة 1302 او سنة 1303 ولكن مؤتمـر مدريد عـام 1297 حولها الى مجرى آخر دولى كما حول غيرها من الاتفاقيات الانفرادية .

اما ملابسات هذه الاتفاقية فقد كانت تحوم حولها اقوال كنا نسمعها من الاوساط الثقافية ومن جملة ما كنا نسمعه عن هذه الاتفاقية انها اعتراف من المغرب بشرعية هذه الدولة الفتية وان المغرب كان في هذا المضمار اول من اعترف من الدول بهـا، والواقـع غيـر ذلـك فان الاتفاقية لا يوخذ منها الاعتراف الا ضمنيا وان اسبانيا كانت قد اعترفت من ذى قبل بهذه الولايات كدولة وانها ساعدت على قيامها ثم انها توسطت بين المغرب وبينها فـي عقد هذه الاتفاقية. والى القارئ الكريم نص رسالة من المولى محمد بن عبد الله الى كرلوس الثالث يجيبه بها عن رسالته في هذا الشأن وهي كالآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

من عبد الله محمد بن عبد الله كان الله له امين

[الطابع الملكى كما سبق]

الى عظيم اصبانية كارلوص طرصير (1) ذى لارص اصبانيص ضوص سسلياس اندياس (2) السلام على من اتبع الهدى اما بعد فقد وصلنا كتابك وقرأناه وعلمنا ما ذكرت لنا فيه من ورود الماركانوس علينا وطلبهم الصلح منا فقد قبلنا ذلك وصالحناهم وجعلنا بيننا وبينهم الصلح والمهادنة برا وبحرا حيث اتوا لنا بكتابك وكنت انت الواسطة بيننا وبينهم فلقيناهم مشافهة منا اليهم وباشرناهم بما يناسبهم وصالحناهم على الشروط التى رضوها وقبلوها واثبتناها لهم ووضعنا عليها طابعنا وقضينا لهم جميع ما فى خواطرهم وها هم متوجهون اليكم وكل ما تفعله معهم فقد قبلناه وامضيناه لانك انت الواسطة بيننا وبينهم وكما يصلك سبعة من اخوانكم النصارى اصبنيول الذين كان جرت بهم مركبهم فى الصحراء والباقى منهم فسيصلكم بعد هذا ان شاء الله والسلام. فى اول رمضان المبارك عام مائتين والف (3).

وعلى هذا فتكون الرغبة فى هذه الاتفاقية آتية من الولايات المتحدة كما استظهرنا ذلك فى الاخرى التى جددتها على عهد المولى عبد الرحمن بن هشام.

وفيما يتصل بهذه المعاهدة نجد رسالة اخرى من المولى محمد بن عبد الله الى الرئيس جورج واشنطون ـ وكان قد انتخب رئيسا للجمهورية سنة 1789 ـ ونصها كما يأتى :

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

من عبد الله محمد بن عبد الله كان الله له آمين.

[الطابع الملكى المذكور]

الى العظيم اصطادوس الماركانوس البريزيدنت (4) السلام على من اتبع الهدى اما بعد فقد وصلنا كتابكم ووصلتنا شروط الصلح التى وجهتم الينا ونحن معكم على المهادنة والصلح والتامين وها نحن كتبنا بما طلبتم منا

1) يريد الكلمة الاسبانية Tercero بمعنى الثالث.

2) يريد (ملك) اسبانيا وصقلية والهند والعبارة هكذا : «de las Españas dos sicilias Indias»

3) موافق 28 يتيه سنة 1786

وهذه الرسالة مثبتة فى الارشيف التاريخى الوطنى الدولة الاسبانية رقم الملف 4320

4) يريد Presidente

لتونس وطرابلس وكل ما طلبتم منا يقضى ان شاء الله والسلام. وكتب فى منتصف ذى القعدة عام اثنين ومائتين والف .

ومن هذه الرسالة فهمنا ان الرئيس الامريكى كان يتوسل بالملك المغربى الى عقد اتفاقيات بين حكومته وحكومات طرابلس وتونس المحلية (او بين باشوات هذه الاقطار كما نجد فى رسالة اخرى من الرئيس الى الملك المذكور) كما كان قد توسل من ذى قبل بالملك الاسبانى فى عقد الاتفاقية التى نحن بصددها والى القارىء نصها :

محمد بن تاويت



الحمد لله هذه القفيد شي وهي
الصفح التي جعلناها مع النحاس كانونش
وانشاءها هذه الذخيرة ووضعنا
عليها كما بعنا لننتفع منهم ان شاء
الله وكتب بعد ظهر الاكثر يوم الخامس
والعشرين من شعبان الابرك عام ماتين والف

نص المعاهدة

(الطابع الملكى فى وسطه محمد بن عبد الله بن اسماعيل، الله وليه ومولاه. وعلى جوانبه :

ومن تكن برسول الله نصرته   ان تلقه الاسد فى آجامها تجم)

الحمد لله، هذا تقييد شروط الصلح التى جعلناها مع الماركانوس واثبتناها فى هذا الدفتر ووضعنا عليها طابعنا لتبقى مستمرة ان شاء الله وكتبت بحضرة مراكش فى الخامس والعشرين من شعبان المبارك عام مائتين والف.

1 ـ **الشرط الاول** ـ ان هذه الشروط المذكورة فى هذا الدفتر وهى خمسة وعشرين شرطا قد قبلت من الجانبين وذاك بمحضر وكيلهم النرابل طماس فركل (5) الذى ورد من عند اصطادوس (6) الماركانوس ووجهوه ليقف على امورهم وصلحهم معنا .

2 ـ **الشرط الثانى** ـ انه مهمى كانت القرة (7) مع اى جنس كان فلا تخرج سفينة من احدى الجانبين وتعمل سنجق (8) العدو اما من جهتنا واما جهة الماركانوس .

3 ـ **الشرط الثالث** ـ انه متى جعلت القرة مع اى جنس كان وقبضت سفينة من اهل الجنس ووجد فيها مسلما او نصرانيا ولهم سلعة فانهم يسرحون بسلعتهم وحتى اذا كانوا حاملين سلعة لجنس وبيننا وبينه القرة فلا توخذ من ايديهم ولا يكلفون بنزولها لما بيننا وبينهم من الصلح .

4 ـ **الشرط الرابع** ـ تكون بيننا علامة يعرف بها بعضنا بعضا فى البحر ومهمى لقى احدنا سفينة الكرة لا يبحث عنها وانما يكفيه كلام الرايس فى بيانها مع سفن آخر .

5 ـ **الشرط الرابع** ـ أنه مهمى تلاقت السفن فى البحر وكانت القرة فان كل واحد من الجهتين لا يبعث لاختبار السفينة التى أراد اختبارها الا فلوكة واحدة فيها اثنان او ثلاثة فقط، ومهمى خرجت عمارة وافسدت شيئا من احدى الجهتين من غير طريق فان صاحب العمارة التى أخرجت يصلح للآخر ما أفسدت له .

---

5) فى الشرط 25 وهو الاخير نجد الاسم هكذا «بركل» بالباء ولعل الصواب ما هنا وقد ضبط الاسم بفتحتين فسكون فكسراما النوابل فهو بضم النون وتخفيف الراء ثم سكون الباء وكسر اللام . يريد به الكلمة HONORABLE لقب السيادة والشرف

6) يريد الدول او الولايات بصيغة الجمع الاسبانى ESTADOS كما هى فى الماركانوس AMERICANOS

7) يريد الحرب هى فى الاسبانية :Guerra والكلمة فى اصلها جرمانية WERRA فانتقلت الى الفرنسية والاسبانية وغيرهما .

8) الكلمة تركية وهى سنجاق كما فى الوثائق السعدية

6 ـ **الشرط السادس** ـ انه مهمى قبض المسلمون اهل جنسنا او سلعتهم واتوابهم لسيدنا نصره الله فانه يسرح وكذالك اذا قبضوهم مسلمون من غير ايالتنا ودخلوا بهم لاحدى مراسينا فانهم يسرحون لانهم تحت امانتا مصالحين معنا .

7 ـ **الشرط السابع** ـ انه متى وردت سفينة لاحدى مراسي الجانبين تقبض كمانية (9) او غيرها فانها تقبض ذلك من غير مشقة ولا حرج .

8 ـ **الشرط الثامن** ـ انه متى وقع باحدى السفن شيئا ومالت الى البر ووضعت وسقها حتى اصلحت ما افسد منها فانها مهمى ارادت تحمل ذالك الوسق الذى وضعت فانها تحمله من غير صاكة ولا غيرها (10) .

9 ـ **الشرط التاسع** ـ انه مهمى حرتت سفينة فى ناحية من نواحينا فانها تبقى على حالها حتى تنظر ما يصلح بها اما الخروج من موضع اخر او نقل السلع او غير ذالك من الوجوه التى تليق بها ولا يقربها احد لانها فى امانتا وكذالك اذا دخلت سفينة للمرسة او الجاها الريح حتى دخلت للمرسة فلا تكلف بنزول سلعتها بل تبقى على الامان حتى تخرج برضاها .

10 ـ **الشرط العاشر** ـ أنه متى وقع قتال من احدى الجانبين من بعض اجناس النصارى وكان القتال قريبا من بعض مدن الجانبين فانتا نعين بعضنا على ذلك الجنس حتى يغلب او يذهب او حرتت سفينة فى واد نون او غيره فان النصارى الذين بها فى الامان حتى يصلون بلادهم ان شاء الله (11)

11 ـ **الشرط الحادى عشر** ـ أنه متى كانت القرة بيننا وبين جنس من اجناس النصارى وكنا بالمرسة وارادت سفينتنا الخروج من المرسة وارادت سفينة العدو تتبعها فلا تخرج تتبعها حتى تمضى من الزمان اربعة وعشرين ساعة وكذالك سفن الماركانوس اذا كانت بالمرسة وقت زمان القرة وارادت الخروج فلا تتبعها سفينة حتى تمضى اربعة وعشرين ساعة سواء كانت من سفن المسلمين او من سفن النصارى .

12 ـ **الشرط الثانى عشر** ـ متى وردت سفينة الكرة على احدى مراسينا فانها لا تفتش بل تبقى على حالها ومن كان بها اسيرا هاربا فانه لا ينزل منها كرها ولا يطلب عامل تلك البلاد الذى به السفينة من رب السفينة قيمة ذلك الاسير .

---

9) **لعل الكلمة ماخوذة من مصدر** Caminar الاسبانى «التطريق» وقد رجعنا الى الترجمة الانجليزية فوجدناها Provision بمعنى الزاد والميرة .

10) يريد ضريبة التصدير والكلمة اسبانية Saca من مصدر Sacar الاخراج

11) لعل هذه الفقرة التى تبتدىء بقوله :او حرتت سفينة فى واد نون الخ تتصل بالشرط التاسع لا العاشر، وانما حصل الخطا من الناسخ .

13 ــ **الشرط الثالث عشر** ــ انه متى وردت سفينة الكُـرة علـى اى مراسى وردت واخرجت المدافع فانها لا يخرج عليها من تلك المرسى الا مثل ما اخرجت من غير زيادة ولا نقصان .

14 ــ **الشرط الرابع عشر** ــ أن تسبب التجار يكونون على عادة تجار اصبنيول ويكونون مميزين ويذهبون فـى المـدن والمراسى حيث شاءوا فلا يتعرض لهم احد ويكونون مثل الجنس العزيز عندنا فى الوقت .

15 ــ **الشرط الخامس عشر** ــ ان التجار يكونون مشتغلين بالسباب واذا ارادوا يجعلون من يقف معهم او ترجمان فلا بأس بذالك ولا يقلب وسق سفينة الى أخرى ولا تقف سفينة فى المرسة واذا ارادوا يجعلون من يعاونهم على امور الوسق او غيرها فانهم ما يعطون سوى القدر الذى يعطون الاجناس مـن قبلهـم .

16 ــ **الشرط السادس عشر** ــ انه متى كانت القرة من الجانبين فان الاسارى يكونون رأسا براس فالرايس بالرايس وسوط (12) رايس بسوط رايس والبحرى بالبحرى وهكذا وان لم يكمل العدد بيننا فتعطى فى كل راس من الجانبين مائة ريال بشرط ان لا يبقى الاسير من الجانبين اكثر من سنة وحتى اذا اراد فداءه مركانطى (13) او تاجر من الجانبين فيفديه بالمائة ريال المذكورة .

17 ــ **الشرط السابع عشر** ــ أن التجار لا تكلـف عليهـم السلع ولا يشترون الا ما ارادوا عن طيب انفسهم وكذالك البيع إلا إذا كـانت هنـاك مسايل جارية فيها العادة مع من قبلهم من اجناس النصـارى يحملونها فـلا بأس بـذلـك .

18 ــ **الشرط الثامن عشر** ــ أن السلع التى توسق توزن وتقلب قبل وضعها فى السفينة لاجل ان لا تتقف السفينة من اجـل اذا تحققـوا ان بها كطربنط واذا كان كذالك فذاك الذىجعل الكطربنط(14) هو الذي يوخذ بذالك وحده على العادة الجارية فى من قبله واما السفينة والسلع وما معها فانهـا بريئة من ذالـك .

19 ــ **الشرط التـاسع عشر** ــ انـه لا تتقف سفينة فى مرسـة ولا تحمل شيئا كرها الا اذا كان عن طيب نفس من رئيسها فانه يتهاود معه على حمل ما اراد حمله.

---

12) الكلمة اسبانيـة Sota والمـراد بها فى النص «سوط رايس» مساعـد الرئيس

13) يريد الكلمة Mercante كما تنطق فى الاسبانية والمـراد بها «المتسوق»

14) مشكـول هنـا بضم الطاء والسابقة بضم الظاء والمـراد Contrabando كما تنطق فى الاسبانية الاتجار فى المحرمات او المهربات .

20 – **الشرط العشرون** – أنه مهمى جنا احد من اهل جنسنا جناية أو من هو داخل تحت سنجقنا فانه يحكم فيه قونصوا جنسه واذا احتاج القونصوا الى أصحاب باشة البلاد فيعينه على ذالك .

21 – **الشرط الحادى والعشرون** – أنه اذا قتل منهم نصرانى او العكس او جرحه فانه يحكم عليه بالقانون الشرعى من غير زيادة ولا نقصان ويكون الحكم بمحضر القونصوا واذا هرب قبل وقوع الحكم فلا يوخذ به القونصوا ولا بما جنى .

22 – **الشرط الثانى والعشرين** – انه مهمى مات احد من جنس الماركانوس فى بلدنا ولم يوص فان قونصهم هو الذى يقف على متروكه وسلعته وان لم يكن قونصوا فتوضع عند امين حتى يظهر من يستحقها واذا كان عنده من يرثه فتعطى لورثته من غير تعرض او اوصى بخط يده لمن يدفع ماله فالنظر فى ذالك لقونصه .

23 – **الشرط الثالث والعشرون** – ان القونصوات يكونون فى اى مرسة ارادوا ويكونون موقرين مثل اجناس من قبلهم من النصارى واذا تعامل احد من جنسهم مع مسلم بمال واتلفه له فلا يواخذ به القونصوا ولا يضمنه الا اذا كان القونصوا اعطى بذالك خط يده فيغرمه واما اذا لم يعط خط يده فلا كلام معه مثل جميع القونصوات .

24 – **الشرط الرابع والعشرون** – أنه مهمى تنازع احد فى شرط من شروط الصلح بأن ادعى احد مسالة وادعى الاخر مسألة وقال انها ليست فى الشرط وطال النزاع بينهما فان الصلح يبقى على حاله ويبحث كل واحد منهما على ما ينفعه حتى اذا لم يوافق احدهم ما في الصلح ومنع منه كل الامتناع فان الكرة تعمل حينئذ وجميع البحار تضرب لهم تسعة أشهر أجلا الى ان يرفعوا سلعتهم واذا تفضل سيدنا على جنس من اجناس النصارى فنحن من جملتهم (1) .

25 – **الشرط الخامس والعشرون** – ان هذا الصلح يبقى مستمرا ان شاء الله بحول الله وقوته مدة من خمسين سنة وقد دفعنا هذا الدفتر بيد طماس بركل المذكور. فى اول يوم من رمضان المبارك عام مائتين والف .

---

1) الجملة : «واذا تفضل سيدنا على جنس من اجناس النصارى فنحن من جملتهم» لا محل لها هنا ولعها متصلة بالشرط الخامس عشر او الرابع عشر واخطأ الناسخ كما اخطأ فى سابقتها .

25

الشهر الخامس والعشرون

أن هذا الإصلاح ينبغي مستمرا إن شاء الله

بحول الله وقوته مدة أكثر من خمسين سنة

وقد وقعنا هذه الرقعة بيد كاتبها سن

بشكل الحرف كتب في أول يوم من رمضان

المبارك عام مائتين وألف

كتاب الاستبصار في عجائب الامصار

لمؤلف مغربي مجهول عاش في القرن السادس ويظن انه ابو الفضل جعفر بن محمد المعروف بابن محشرة .

وقد تناول الكتاب ـ بعد ما كان قد طبع جزء منه وترجم الى الفرنسية ـ بالدرس والتحقيق الاستاذ سعد زغلول عبد الحميد وقدمه اطروحة نال بها درجة الدكتوراه ثم نشره مع تعليقاته سنة 1958 .

اما موضوع الكتاب فهو في وصف مكة والمدينة ومصر والمغرب بطريقة تجعله اشبه ما يكون بكتب الجغرافية القديمة التي تجمع ما بين الجغرافية ومعلومات من التاريخ والاساطير والفقه وغير ذلك .

وبالرغم من ان الدكتور الفاضل بذل مجهودا جبارا في اخراج الكتاب أقرب الى الكمال الا انه يوخذ عليه

انه يهمل التنبيه على اخطاء وردت في النص، واكتفى بأن اشار في المقدمة الى وجودها اشارة عامة .

ففي الصفحة الاولى وردت كلمة «النقرى» والجفلى هكذا «النفرى» بالفاء .

وفي الصفحة الثانية وردت كلمة «يضيفها» بدل يصفها، وكلمة «خدم» بدل «قلم» .

وفي الصفحة 13 وردت كلمة «هو» بدل «بهو».

وفي الصفحة 82 يذكر النص ان عبد الملك بن مروان لما ولي الخلافة اغتصب من الزبير دارا كان بناها بمصر واغلب الظن انه سقط «ولد» من النص لان الزبير كان قد مضى على موته عشرات السنين.

وفي الصفحة 87 جاءت الجملة «لم يحتاج» بدل «لم يحتج» .

وفي الصفحة 88 وردت في الآية «وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين...» «فكلتا...» بادخال الفاء على «كلتا» .

وفي الصفحة 101 يذكر النص ان عمر بن عبد العزيز كان واليا على مصر مع ان الذي كان واليا عليها ابوه عبد العزيز .

وفى الصفحة 204 يذكر النص ان مخاطبات المعتضد نفذت الى اليسع ابن مدرار والـى سجلماسة فى طلب عبيد الله الفاطمى، والمعروف ان اليسع لم يكن واليا على سجلماسة من قبل العباسيين او غيرهم الى غير ذلك من الاخطاء المتنوعة ولعل بعضها كان صادرا عن الطباعة .

اما الكتاب فى حد ذاته ففيه معلومـات قيمة مثـل ان يذكر ان ملـوك صنهاجـة كانت لهـم عمائم يغلـون ثمنها، وكان ببلادهم صناع لذلك ياخذ الصانع على تعميم عمامة منها دينارين وازيد وكانت لهم قوالب من عود فى حوانيتهم يسمونها الرؤوس يعممون عليها تلك العمائم (129) .

ويذكر ان ابا يعقوب امر بجلب الماء الى سبتة من قرية بليونيش فى قناة تحت الارض (137)، وهذا ما تنبه اليه الاسبان اخيرا بعد ما كانت مياه الامطار تخزن فى سبتة.

ويذكر ان شالة متصلة بالعمارة التى احدثها الخليفة [يعقوب المنصور] وآباؤه المكرمون (140) وبذلك حل العقدة التاريخية التى تواجهنا فيمن بنى «الرباط» اذ تذكر بعض المراجع انه المنصور ولكننا نجد فى مراجع اخـرى ذكـرا لهذه المدينـة علـى عهد عبـد المؤمـن نفسه، وبهذا النص فهمنا ان البناء تعاقب عليها من لدن آباء المنصور الى عهده .

ويذكر ان ادريس وافق اسحاق بن محمـد الاوربـى على مذهبه مـن الاعتزال (195) وهو نص له خطره فى تحليل وقائع التاريخ المغربى .

وفيما بين 202 و 207 من الصفحات نجد معلومات قيمة حول الفاطميين لا نكاد نعثر عليها فى غير هذا الكتاب .

كما اننا نجد معلومات اخـرى لا تقل عـن هـذه اهمية فيما كتبه عن البرغواطيين .

وفى صفحة 209 ينص على ان منار الكتبية رفعه يوسف واتمه يعقوب وهو نص له خطره ايضـا .

ويذكر فى صفحة 212 ان معاصر السكر كانت بتارودانت .

وفى صفحـة 216 يذكر مـن حلويـات السوس الكنافـات والقطائف والقاهـريـات .

وبالجملة فالكتاب فى معلوماته التاريخية مفيد جدا ومن المراجع التى لا يستغنى عنها مؤرخ المغرب على الخصوص فشكرا للدكتور الفاضل الذى اهدى الى المكتبة المغربية هذا المصدر القيم فى تاريخ المغرب ووصف مدنـه وآثاره وجعله فى متناول القراء المتعطشين الى امثاله .

مختار الحكم ومحاسن الكلم

لابي الوفاء مبشر بن فاتك

من رجال القرن الخامس

قليل جدا ما تخرجه الطباعة العربية في البلاد العربية، وقد نجا من تصحيف كثير ـ خطأ وغلط ـ وماضينا البعيد في ذلك كان احسن من ماضينا القريب وحاضرنا معا، فمن المعروف لنا في المطبوع من الكتب ان الطبعة الاولى تبز في قيمتها الطبعات التي تأتي بعدها لكونها اقرب الى الاطمئنان، لان اصحابها اقرب الى النزاهة والصق بالاهتمام، ثم ان التصحيف فيها ـ ان حدث ـ لا يزداد تعقيدا بتكرار الطبع ولا ينجب من الاخطاء بقدر ما تخرج من النسخ .

اما في غير البلاد الناطقة بالضاد فهي ـ بحمد الله ـ تكاد تنال منا كل الاطمئنان والثقة فيما تخرجه مطابعها من كتب وغيرها ناطقة بهذه الضاد فالهند وتركيا مثلا واوربا ـ على نمطها وفي تفاوت فيما بينها ـ حائزة جميعها تلك الثقة وقائمة على اداء الامانة في النقل، ولعل ذلك من فضيلة القصور في اللغة وليس من فضيلة التضلع فيها، فالقصور هذا ولد في القوم حذرا وتحريا فيما يتناولون الى جانب كونهم مقدرين للمسؤولية التي لا نقدر منها الا جانبا تافها في الغالب او لا نقدر منها شيئا في غير الغالب، والدليل على ذلك ان قصورنا هذا في غير لغتنا لا يحملنا على ما حمل عليه القوم من الاحتياط والتنبه وبذلك اذا اخرجنا صحيفة او كتابا في غير العربية اخرجنا كل ذلك بكل تلك «الميزات» التي نخرج بها كتبنا او صحفنا العربية من تصحيف وتصحيف وتصحيف ينسب هذا الى غلط وذاك الى خطأ وذلك الآخر ينسب الى الاهمال ....

ومن القليل الذي يسلم من التصحيف ـ ويكاد فقط ـ هذا الكتاب الذي أومأنا اليه كتاب أخرجه المعهد المصري للدراسات الاسلامية وأخرجه في ذلك الخلوص من كثير من التصحيف لانه طبع بمدريد في غير البلاد العربية، وشكرا للبيئة ـ التي لا تختلف عنا كثيرا ـ وشكرا في الحقيقة لاولئك الاصدقاء الزملاء الذين يرقبون في اخراجهم لكتب وصحف ذمة المخرج وامانته فكان الكتاب مما تفتخر به مطابعنا ...

حقق هذا الكتاب القيم وعلق عليه الدكتور عبد الرحمن بدوي وحافظ على ذلك التحقيق وهذا التعليق دكتور آخر شاهدته منهمكا في عمله «المحافظ» هو الدكتور محمود مكي ...

اما مادة الكتاب فهي غنية في بابها وقد قال عنها الدكتور بدوي انها طريفة حيث انها كانت اول ما ظهر في «كتاب عربي في تاريخ الفلسفة» ولكنها في الواقع ليست في معظمها فلسفة بقدر ما هي نبذا من اقوال الفلاسفة، يونان في معظمهم او غير يونان في اقلهم بل فيها حكم زهدية لا تحمل طابعا فلسفيا واضحا وانما هي نصائح قد تكون في بعض الاحيان نصائح معتادة يستطيع اي حصيف ان يجود بها او حتى لو لم يكن الا شخصا معتادا في النادر منها ...

والى جانب ذلك اخبار قصار عن هؤلاء الفلاسفة لها قيمتها من حيث وجودها في هذا الكتاب العربي الذي ألفه رجل لم يتسم بالفلسفة وانما اتسم بالتاريخ الذي اشار الى التاليف فيه، ولعله كان على حظ ما من معرفته باليونانية كما يدل على ذلك وقوفه بعض الوقفات القصار عند ترجمة بعض الاسماء اليونانية فاتته تلك المعرفة بنقل بعض هذه الحكم من اليونانية نقل العارف باللغة دون العالم بفلسفتها .

وقلنا بعض هذه الحكم ـ لا كلها ـ لاننا نجد بعضها الآخر قد سجل في كتب تقدمت هذا التاريخ مثل عيون الاخبار والعقد والامتاع والمؤانسة وغيرها .

ومن الملاحظ على هذا المؤلف انه يسند بعض الحكم الى شخصيات عديدة فهو مثلا يسند هذه الحكمة : لولا ان في قولي «لا اعلم» تثبيتا اني اعلم لقلت «اني لا اعلم» لافلاطون وارسجانس وغيرهما .

وينسب هذه النصيحة «اقتنوا الحسنات فانهن يذهبن السيئات» لهوميروس وسولون وغيرهما.

وكذلك الحال في نسبة هذه الحكمة : الجواد من جاد بماله وصان نفسه عن مال غيره فينسبها لهرمس (ادريس) وسولون وغيرهما، وهذه الحكمة ايضا : «الوجه ينبيء عما في الضمير» تارة ينسبها لهوميروس وتارة لهرمس مع اختلاف بسيط .

وهكذا نجد كلما ومواقف تتردد بين شيث وسقراط وذيوجانس وسولون وبقراط وافلاطون وفيثاغورس وغيرهم، وقد يكرر نسبة الكلمة او الموقف لشخص واحد وقد يأتي بذلك منسوبا لمن لم يعرف قائله. مما يدل على أن المؤلف لم يتح له ان ينقح كتابه ...

ثم هناك حكم واسس اسلامية نسبها لهؤلاء الفلاسفة اليونان وبعضها ما هو معروف لكتاب ليسوا من الفلاسفة اليونان مثل عبد الله بن المقفع .

ومن الطريف فى الكتاب معلومات كنا نحسبها من نتاج الدراسات الحديثة ولكننا وجدناها مقررة فى كتابنا هذا مثل التفصيل فى الخط المصرى القديم كما هو معروف الآن، والمؤلف لم يهدف فى الكتاب ـ كما قال فى المقدمة ـ الى ان يجمع من حكم اليونان ما اتفق والروح الاسلامى وانما اتى فى ذلك حتى بما يتنافى وهذا الروح، فهو مثلا ينقل الينا أن الاقتصار في الشراب «مفخرة للقلب ومذهبة للحزن منضرة للون مهضمة للطعام » .

وعلى قدرته فى العربية التى صاغ بها تلك الحكم ـ بعضها ـ فانه يبدو عليه قصور فى الاداب الاسلامية والتعاليم القرءانية وبذلك يدخل فى حكم اليونان ما هو معروف فى ادب الاسلام وآى القرآن .

اللهم الا ان يكون ذلك منه عن قصد وتعمد كما فى مسألة حدود الزنى والاقتصاص من السارق وغيرهما فقد تنبه الى قصده فى ذلك الدكتور الناشر ونبه على ذلك فى تعليقاته .

الطبعة السادسة لكتاب
معانى القرآن المجيد

THE MEANING OF THE GLORIUS KORAN
by Mohammed Marmaduke Pickthall

الذى قام بهذه الترجمة التفسيرية اخونا فى الاسلام محمد مرمدوك بيكثل الانجليزى، وقد تحرى فى ترجمته هذه فلم يدع انها تفسير للقرآن وانما هى تفسير لمعانيه، وقد ذكر فى المقدمة انه من المستحيل ان يؤتى بترجمة للقرآن على الحقيقة، ذلك الكتاب «الذى من يتلوه فى نصه العربى لا يملك الا ان تفيض عينه من الدمع»، ولهذا فهو يأتى بترجمة المعانى المجردة بعد ما عرض هذه الترجمة على المرحوم الشيخ الاكبر مصطفى المراغى وغيره من علماء الدين او المتقنين للغة الترجمة مثل الدكتور محمد احمد الغمراوى بك.

وقد نال المترجم بعمله هذا حظوة عظيمة وتقديرا ماديا وادبيا من بعض امراء الهنود وانتشر كتابه فى عالم المتكلمين بالانكليزية انتشارا عظيما وبسرعة مدهشة، فقد طبع لاول مرة سنة ثلاث وخمسين ميلادية ثم اعيد طبعه لثانى مرة وثالثها سنة اربع وخمسين ثم اعيد ذلك سنة خمس وخمسين ثم سنة ست وخمسين واخيرا سنة ثمان وخمسين، هذه التى نتحدث عنها

مهد لهذه الترجمة بنبذة فى سيرة النبى عليه السلام ثم تكلم عن القرآن ومعناه ثم تناول سوره وآيه وما يتعلق بذلك من حيث الوحى وتاريخه وملابساته وفصل بين ظروف مكة وظروف المدينة كما وضح موقف اليهود من النبى، وهكذا تتبع الوحى وحياة صاحبه عليه السلام الى يوم انتقاله الى الرفيق الاعلى .

ثم دخل فى الموضوع وهو تفسير معانى القرآن فيأتى باسم السورة عربيا ثم يفسر معناه ويحصى عدد الآى بها ويذكر انواعها من مدنية او مكية كما يذكر تاريخ التنزيل وقد يومىء الى اسباب النزول ...

ومما قرأته من هذه الترجمة لاحظت ما يأتى :

فى الآية السابعة من البقرة قدم سمعهم على قلوبهم فى : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم .

وفى الآية العاشرة منها يجعل الجملة الدعائية : «فزادهم الله مرضا» جملة خبرية بعد ما حول الماضى الى المضارع .

وفى الآيتين الثانية والثالثة عشرة يجعل «ألا» الافتتاحية بمعنى «أليس»

وفى الآية التاسعة عشرة يفسر الاصابع فى «يجعلون أصابعهم» على الحقيقة وليس بمعنى الانامل .

وفى صفحة 38 يكتب فى تعليقه «حطة» هكذا Hittatun فيكون نطقها اذن «حتة» .

وفى الآية الحادية والستين يفسر «فومها» بالحنطة او الذرة أو القمح CORN مع انها الثوم بقلب الثاء فاء .

وفى الآية الثالثة والتسعين يفسر «ورفعنا فوقكم الطور» بجعلنا الجبل يرتفع فوقكم .

وفى الآية المائة يفسر «أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم» كلما عاهدتم ينبذه فريق منكم، وكثيرا ما ترتبك فى الضمائر.

وفى الآية السادسة والمائة لا يفسر ما فى «ما ننسخ من آية» بالشرطية وانما يجعلها ابهامية .

وفى الآية العاشرة والمائة يفسر الانفس فى «وما تقدموا لانفسكم» بمعنى الانفس لا بمعنى ضمير النفس .

وفى الآية الثانية عشرة والمائة يفسر بلى فى «بلى من اسلم وجهه» بمعنى كلا بل، وقد يكون قريبا من الصواب فى هذه، ولكنه فى الآية السادسة عشرة والمائة يفسر كذلك بل فى «بل له ما فى السماوات والارض» بما فسر به بلى .

وفى الآية السابعة والستين والمائة لا يفسر لو فى «لو ان لنا كرة» بالتمنية وانما يفسرها بالشرطية .

وفى الآية السادسة والسبعين والمائة يفسر بعيد فى «شقاق بعيد» بمعنى مبين .

وفى الآية السابعة والسبعين والمائة يجعل الضمير فى «وآتى المال على حبه» عائدا على الله .

وفى الآية التاسعة والتسعين والمائة يفسر «أفيضوا من حيث أفاض الناس» «اسرعوا متقدمين من حيث اسرع الناس متقدمين»

وفي الآية التاسعة والاربعين والمائتين يضع «ربهم» بدل «الله» في «الذين يظنون انهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة».

وفي الآية الثالثة والتسعين من المائدة يفسر الافعال في «اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات» بصيغ الامر .

وفي الآية الرابعة والخمسين من الانعام سقطت من تفسيره «بجهالة» في «انه من عمل منكم سوءا بجهالة» .

وفي الاية السابعة والثلاثين من الاعراف يضع «بآياتنا» مكان «بآياته» في «فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بآياته» .

وفي الآية الحادية والخمسين فسر كلمة اتخذ في «اتخذوا دينهم لعبا» بمعنى اخذ، وفي الآية التسعين وضع «اننا» بدل «انكم» في «انكم اذاً لخسرون» .

وفي الآية الخامسة والتسعين وضع «الضراء» مكان «السراء» في «قد مس آباءنا الضراء والسراء» وفسر الكلمتين هكذا : Tribulation and distress

وفي الآية الثانية والاربعين والمائة فسر «فتم ميقات ربه» فاتم ميقات ربه وتصرف .

وفي الآية الخامسة والاربعين والمائة فسر «وامر قومك يأخذوا بأحسنها» قائلا «خذوا بأحسنها»

وفي الآية السابعة والخمسين والمائة زاد في تفسيره «ويحرم عليهم الخبائث» كلمة «قط» .

والى هنا انتهيت في قراءتي لهذا التفسير ولا شك ان هناك اغلاطا اخرى فيما بقي منه وهو يربو على الثلاثة ارباع من الكتاب .

والمؤلف بالرغم من كونه ادعى انه لا يفسر الا المعاني ولكن الواقع انه ارتبط ارتباطا تاما في هذا التفسير بنظام الكلمات في الآي وبالتحليل الدقيق لمعانيها لدرجة انه يخرج في ذلك الى فقه اللغة، لهذا لم يعذر في التقديم او التأخير ولا في التصرف عند التفسير .

القسم الثالث من
«كتاب دولة الاسلام في الاندلس»
تأليف الاستاذ محمد عبد الله عنان

صدر هذا القسم الثالث من الكتاب سنة 1958، وهو عبارة عن الحلقة الثالثة من دراسة الدكتور عنان حول تاريخ الاندلس، تلك الدراسة التي عنونها بعنوان «دولة الاسلام في الاندلس».

اما الحلقة الاولى فقد صدرت لاول مرة سنة 1943، ثم اعيد نشرها ـ مع اضافات وتنقيحات ـ سنة 1955.

وفي سنة 1952 صدرت لاول مرة الحلقة الثانية، او القسم الثاني من الحلقة الاولى.

وقبل ان نعرض الى القسم الثالث الذى يناسب صدوره تاريخ هذا العدد، نرى ان نلقى نظرة عاجلة على القسمين الاولين، ثم نتخلص الى القسم الاخير ...

القسم الاول يتناول مرحلة من مراحل التاريخ الاسلامي للاندلس الاسلامية، وهي مرحلة ـ بحق ـ جد عسيرة لغموضها واضطرابها ثم تشعبها ما بين الشمال الافريقي عامة ـ في الجنوب ـ الى نهر «الروين» في الشمال، كل هذا التشعب في غموض وابهام لا تسفر عنه الا مراجع قليلة بخيلة هي كذلك بالايضاح وربط الحوادث بعضها ببعض، فهي تومىء الى النتائج ـ على تفاوت فيما بينها ـ وقلما تومىء الى مقدماتها واسبابها، خصوصا قبل دخول الداخل الى الاندلس : اضطرابات قبلية، عربية وبربرية، وتيارات تنبعث من القيروان او من المغرب الاقصى، واخرى تنبعث من قلب شبه الاندلس الى الخارج، كما تنبعث هوج الرياح في اتجاهات تنحسر دونها الابصار ولا تدرك مداها الا بالحرز والتخمين ...

ولكن الاستاذ الكبير كان اول من اقتحم هذا الميدان من كتاب العربية فتناول الموضوع تناولا علميا قائما على دراسات شاملة جامعة لاحداث التاريخ وملابساتها، ثم عرض كل ذلك في قصة محكمة الحلقات، مبينة الاسباب والعلل، واضحة المعالم، في يسر مستهو، وتلخيص ممتع. وقد تحدث الاستاذ عما بذله في هذا العمل من جمع وتركيب فقال انه بذل «جهدا خاصا لتمحيص الروايات والنصوص العربية والفرنجية، واستخراج الروايات الراجحة، وتكوين الرأى المستقل، مهما يكن هذا الرأى

نعم، هكذا تحدث الاستاذ عما عاناه في دراسته، وترك لنا ان نقول ما نقول في ذلك العرض الانيق المبهج، الذى يتسم به كل ما انتجه الاستاذ في موضوعات شتى، تتحلى بالجمال وتتمتع بالحيوية والشباب ...

اما الحلقه الثانيـة، او القسم الثانى من العصر الاول، فالاستاذ من ناحية الجهد قد بذل فيه ما يشكر عليه كثيرا، كما يشكر على ذلك العرض الذى قلنا فيه انه يسود كل بحوثه، ولكنه مع ذلك لم يبذل فيه ما بذله فى القسم الاول من عناء وجهد، فكنا من القارئين المعجبين والمستفيدين، فى حين اننا من الحاسدين للكاتب على استراحته فى بعض الواحات التـى انتهـى اليها وهو يقطع الصحارى ويجوب القفار، فكأننا لا نـريد لانفسنـا الا ان نتمتع بالنعيم الذى على غيرنا ان يشقى فيه، شأن تلك المدللة التى لا يحلو لها ان تنال رغائبها الا مع النصب والارهاق، وشأن اولئك الذين لا يرضيهم منك العمل المثمر لفائدتهم، حتى يتصبب عليك العرق، وتنقطع منك الانفاس فتلعن الشيطان والناس ...

وكذلك قلنا فى هذا الجزء، انه ممتع، وانه شائق، وانه جميل جذاب، ولكن صاحبه لم يتعب التعب الذى نريد منه ان يتجشمـه دائمـا ودائمـا بدون انقطاع ، فقال لنا الاستاذ : وما ذنبى ؟ انها المرحلة نفسها، المرحلة التى استراح التاريخ فيها فاستراح الباحث بعض الشىء، المرحلة التـى استراح فيها الناس، واطمأنوا على انفسهـم بعض الاطمئنـان، ونعمـوا بالحياة المستقرة الوادعة ونالوا نصيبهم مـن نعيم الدنيا، فمرحـوا وتغنوا بأشعارهم، واصاخ كبراؤهم الى الامداح التى قيلت فيهـم، وفـى وصف مجالسهـم .

فقلنا له ـ بعد هذا ـ وما لك ولهـذه الاشعار، الست تؤرخ للقـوم تاريخهم السياسى ؟ فدع عنك هذه النماذج الشعرية التى اتيت بها معجبا بجمالها، وغيرك ربما لا يشاركك كل الاعجاب فيهـا ... قلنـا هذا وكان علينا ان ننتبه الى ان الادب فى تلك المرحلـة صـار جزءا مـن التاريخ الاندلسى السياسى، فاختلط التاريخ بـالادب والادب بالتاريـخ، ولا بد للمؤرخ ـ حتى السياسى ان يماشيهما معا، بدون ان ينفرد باحدهما ...

فاذا نظرنا الى الزاوية التايخية ـ كما اردناها مجردة ـ فان اهـم ما فى هذا الجزء هو تناول الغزوات الاسلامية فى اوربا خارج الجزيـرة الايبيرية، فان هذا التناول كان اوسع واشمل وادق من ذلك الذى نجـده فى كتاب «غزوات العرب» للمرحوم الامير شكيب .

ومن هنـا نتصـل بالقسم الثالـث، الذى يتناول الدولة العامرية، وسقوط الخلافة الاموية، وقيام امارات على انقاضها.. وهذا الجزء يختلف عن القسمين السابقين، يختلف عن الاول لان صاحبه قد تناول فيه الناحية الادبية الى جوار الناحية السياسية، ولو ان ذلك التناول كان ـ كما فى القسم الثانى ـ تناولا عرضيا، وفى ايجاز وايماء الى بعض النصوص التـى

نشاركه اعجابه بها، ويختلف عن القسم الثاني بما بذل فيه المؤلف من جهد دراسي، قد يفوق الجهد الذي بذله في القسم الاول. ولعل السبب في ذلك هو نفس السبب في دراسته للمرحلة الاولى من التاريخ الاسلامي بالاندلس، خصوصا في نهاية المرحلة التاريخية التي كانت الخلافة فيها تلفظ نفسها الاخير، وكانت الامارات، تتمخض عن ثورات واضطرابات، متقلبة من جنب الى آخر، لا تهدأ الا لتثور، ولا تثور الا لتفسح المجال لعائلة اخرى او لفرد آخر من بيت الخلافة او من غيره ...

فهي اذن مرحلة عويصة كل الاعياص، متعقدة جد التعقد، متشعبة اشد ما يكون التشعب، ولكن الاستاذ استطاع بلباقته المعهودة، وتانيه في حل عقد مشاكل التاريخ، ان يسلط عليها اضواء كاشفة انارت لنا سير تلك الاحداث، ومكنتها من مراقبتها مراقبة متصلة المشاهدة، مدركة للبواعث متمكنة من النهايات والغايات، كل ذلك في عرض مترفق متسلسل اخاذ، لا تنتقل العين فيه والفكر من لمح جزئية والاحاطة بنواحيها، الا بعد التملي والاستيعاب ...

هذا ملحظ عام شامل في كل قضايا تلك المرحلة القاسية، ولا يشذ في ذلك — كما نرى — الا وقفتان لم يحاول الاستاذ ان يقفهما، حتى استعد للاستمرار في السير، بل انه سرعان ما استمر فيه من غير استعداد، منطلقا في سيره انطلاق السهم من الرمية — كما يقول الاولون — ولا اريد ان ادل على هاتين الوقفتين، ولكنني اعرض على القارىء نصوصهما في هذه الناحية واترك له ان يحدد لهما مكانهما بالضبط، يقول الاستاذ :

«وكان قد وصل الى قرطبة جملة منهم من شاطبة وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر، فائتمروا على الغدر بالمهدي، واخرجوا هشاما المؤيد من محبسه بالقصر، واجلسوه للخلافة ونادوا بولايته واتوا بالمهدي بين يديه، فضرب عنقه، واحتز رأسه، والقى جسده من أعلى السطح، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها في الشوارع»

هذه القصة الخطيرة لو اراد الاستاذ ان يتمهل فيها ويطيل النفس — كعادته — لاخذت منه الصفحات، ولكنه بدلا من ان يتمعن في حلقاتها، ويحتفل لاحكام سلسلتها، اطنب في غير ما فائدة، وأوجز بما هو مخل، فحصل القفز ثم الوقوع الذي مكث طويلا .

وفي مكان الوقفة الاخرى يقول :

«كانت حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك الى ذروتها ووقعت الحرب بين جموع المرتضى وحليفه خيران والمنذر بن التجيبي، وبين قوى صنهاجة على مقربة من غرناطة، وانهزم اهل الاندلس وقتل المرتضى»

فقد اوجز في هذه القصة بما سبق وصفه ...

والى جانب ذلك ففي الكتاب بعض اخطاء تركز معظمها في التثنية وجموع التذكير «والاسماء الخمسة» واسماء النواقص من الافعال واخبارها الى بعض الخلل في وزن بعض الابيات الشعرية، لا شك ان الناسخ او الطابع هو المسؤول عن كل ذلك، وهي سنة النساخة والطباعة عندنا ولا فخر..

ومهما يكن ففضل الاستاذ عنان على الدراسات المغربية فضل عظيم، لا يمكن ان يجحد او ينسى، وعلى هذه الدراسات ان يحتفظ تاريخها بهذه الحقيقة، وهي ان الاستاذ عنان له وحده - من بين الكتاب العرب - فضل السبق الى تناول هذه الدراسات المغربية - بما فيها الاندلس - دراسة قائمة على احدث الاسس وامتنها، ثم هي دراسة دائبة في عملها وانتاجها لا تعرف الملل، ولا تجمد في مكانها... حفظ الله الاستاذ ومتعه بنشاطه الذي نجني من ورائه خيرا عميما .

ديوان رفيق شاعر الوطنية الليبية

جمع وتحقيق الاستاذ محمد الصادق عفيفى

أهدانى الاخ المفضال الاستاذ محمد الصادق عفيفى، مجموعة قيمة من دراساته حول الادب الليبى ورجاله المعاصرين وهى عبارة عن «الشعر والشعراء فى ليبيا» و «رفيق شاعر الوطنية الليبية» والجزء الاول من «ديوان رفيق».

اما الشعر والشعراء فقد نشره «الصديق» الصادق سنة 1957، تناول فيه بالدرس مجموعة من شعراء هذا القطر الشقيق دراسة مركزة، ثم نشر سنة 1959 «رفيق» شاعر الوطنية الليبية والجزء الاول من ديوان الشاعر المذكور.

والواقع ان اخانا محمد الصادق قد ادى بدراسته هذه رسالة ادبية وقومية فى آن واحد، فلولاه لكنا حتى الآن فى جهل بالنشاط الادبى الذى قام به رجال هذا القطر العزيز، وهى خجلة بحق تعترينا اذا ما قلنا اننا كنا على جهل تام مطبق بهؤلاء الرجال الافذاذ، فما كنا نعرف عنهم الا صراعهم للمستعمر الغاشم، منذ السنوات الطوال، اما نشاطهم الفكرى عامة، وصراعهم الادبى خاصة فكان كل ذلك مسدولا عليه ستار الغفلة والكسل والجهل، مع الاسف المخجل، فشكرا للاخ المثالى فى قوميته والغيور على وطنه الاكبر، وطن العروبة والاسلام.

ان العرض الذى تناول به شخصية «رفيق» والدراسات التى اجراها على شعره الوطنى بالخصوص، ليعد كل ذلك قيما ممتعا شائقا، فلقد تتبعنا تلك الدراسة، فكنا فيها كمن يشاهد شريطا سينمائيا جميلا، لقصة الشاعر وملابسات قصائده، كل ذلك فى رفق واناة، واخلاص للحقيقة والحق والفن، وما احوجنا الى هذا التناول فى موضوعاتنا التى تناولها الناس او تناولناها بالدرس، رفق واناة واخلاص للحقيقة والحق، عنوان البحث النزيه فى ميادين شتى، خصوصا الميادين الادبية، التى يظنها الناس بسيطة ولكنها جد متعقدة، لا يقوى على حلها الا افذاذ الرجال ومثاليوهم، الذين لا تغويهم حياة الواقعية العمياء...

وكذلك كان الاخ عفيفى، فى اخراجه للديوان، «عفيفا» بحق فى ذلك الاخراج، مقتصدا فى تلك التعاليق، مقتصرا على ما لا بد منه، جامعا لاشتات تلك القصائد كما هى، تاركا لغيره ان يقول قولته فيها، فى حرية وانطلاق..

واذا كان لنا ان نلاحظ على شعر «رفيق» فملاحظتنا عليه، انه شعر الاصلاح ــ فى عموده ــ يخاطب العقول كما يخاطب الشعور بلغة تعتمد على

المعاني، اكثر مما تعتمد على الحلية الشعرية، في جميل الاسلوب وسمو الخيال، فلغته في وطنيات اشعاره لغة تقترب من «الخطابة» بقدر ما تبتعد في بعض الاحيان عن «الشعر»، وله الحق في ذلك، فهو فيها يلقن الناس اناشيد وطنية تبعث فيهم روح التوثب للعمل، ولا يريد بهم ان يتلقوا بأسباب الخيال، فينبهوا به، ويخلدوا الى الجمال الفاني، ويدعوا غيرهم يتمتعون بالنعيم الخالد، فكفانا ما سدرنا فيه منذ المائات من الاعوام، وما تشبثنا به من اسباب اضطربنا فيها واضطربت بنا، وهو لهذه الغاية نفسها – على ما اظن – ينزل في شعره ذلك الى المستوى الشعبي، فيخاطبه بكلمات «عامية» تعيش بين ظهرانه ويدك في عمق مغزاها، على ان تلك الكلمات لم تكن مما تروج في قطره فحسب، وانما استعمل حتى بعض الكلمات التي تروج في المحيط الشعبي المصري، فكأنه في ذلك، كان يتمثل نفسه كاتبا في الصحف التي تروج بين الناس، ولا تنسى الشعبي منهم، في رسالتها السامية، والشاعر في وطنياته ليس فحسب شاعرا وطنيا، بالمدلول الذي ما زال عالقا باذهاننا، وهو مناهضة الاستعمار بل هو في وطنياته مصلح، يناهض الاستعمار، بقدر ما يناهض العابثين ببلاده، من بني قومه، وقد تمتعوا بالاستقلال، فهذه قصيدة قالها، منددا بالقائمين على تسيير جهاز وطنه المستقل يقول فيها :

وسلطة أطلقت من كل دائرة	بالسوء فينا يدا تطغى وتختان
كنا نقول عن «الطليان» قد ظلموا	فكلهم في طباع السوء «طليان»
يقول كل رئيس وهو يشبه في	كرسيه صنما انى سليمان
قد استبدوا بأمر الشعب وارتكبوا	بلا سؤال لهم ما شاء عدوان
فكيف يفلح قوم يسكتون على	ما لا يطيق عليه الصبر حيوان

كما انه قد يرجع بذاكرته الى الماضي البغيض، ويصرخ بهذه الصرخة المدوية فيقول :

كنا نقاسي تحت مر الصبر	انواع العذاب
النفي اذ لم يبق في	سجن ممر للذباب
والسيف في الهامات يفري	والمشانق في الرقاب
والظلم والعدوان والتحقير	في اشنا سباب
صارت عروبتنا لنا	ذما فاصبحنا «اراب» ARABE

اما اذا تركنا وطنياته الشعرية فاننا لا نعدم ان نجد له بعض القصائد، التي يسمو فيها الخيال، وتجود فيها لغة الشعر بالرائع من مكنونها مثل قصيدته «مناجات» واخرى «يالية»، وعلى العموم قصائده التي اتت في الديوان تحت عنوان «خواطر وتأملات» .

فهرست

صدى «تطوان» في الهند

كتبت مجلة «ثقافة الهند» في العددين الاول والثاني : يونيه وابريل سنة 1959 عن مجلة «تطوان» ما يأتي :

... صدرت المجلة «تطوان» نتيجة لتفكير بعض الاعضاء الذين ضمتهم «هيئة رعاية البحوث والثقافة المغربية العليا» وتتناول البحوث التي تتعلق بالمغرب والاندلس، وتجود في صفحاتها اقلام الكتاب والمؤلفين بافكارهم ودراساتهم الثمينة، فهي غنية بالمعلومات التي تزيح الستار عن النواحي الثقافية والتاريخية، وتمدنا بنوع من البسط بما تجد لها في بعض الاحيان من اشارات عابرة مبعثرة في امهات الكتب، ونرجو ان تشفي غلة الباحثين والدارسين وتفتح لهم ابوابا جديدة وتملأ اللغة العربية بمعلومات غزيرة ذات مغزى .

ومن محتويات هذا العدد «وثيقة تاريخية عن تطوان» للاستاذ محمد ابن تاويت و «وحدة المغرب العربي مظاهرها السلالية واللغوية والفكرية» للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله. والعدد كله طافح بالمواد الثمينة، التي جعلته يعد من المراجع .

تم طبع هذه المجلة على آلة الليونيب في معامل
دار كريماديس للطباعة
شارع محمد الطريس 17 ـ تطوان (المغرب)

كناش الحائك، او مجموعة اغان مغربية فى القرن الثانى عشر الهجرى، بقلم الدكتور فرناندو بلديراما مرتينيث ـ تطوان 1953

جوائز «المغرب» و «مرويكوس» للآداب لسنة 1953 ـ تطوان 1953

جوائز «المغرب» و «مرويكوس» للآداب لسنة 1954 ـ تطوان 1954

جوائز «المغرب» و «مرويكوس» للآداب لسنة 1955 ـ تطوان 1955

ابن الابار ـ كتبه وحياته ـ جائزة معهد مولاى الحسن لسنة 1951، تاليف الدكتور عبد العزيز عبد المجيد ـ تطوان 1954

تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى، جائزة معهد مولاى الحسن لسنة 1952، تاليف محمد عبد الرحيم غنيمة ـ تطوان 1953

الفلسفة والاخلاق عند ابن الخطيب، بقلم الاستاذ عبد العزيز ابن عبد الله. القسم الثانى من كتاب «لسان الدين ابن الخطيب ـ حياته وكتبه»، جائزة معهد مولاى الحسن لسنة 1949 ـ تطوان 1953

ابن الخطيب من خلال كتبه، للاستاذ محمد بن ابى بكر التطوانى، جائزة معهد مولاى الحسن لسنة 1948 ـ تطوان 1956

ركب الحاج المغربى، بقلم محمد المنونى ـ تطوان 1953

رسائل سعدية، اعتنى بها وجمعها عبد الله كنون ـ تطوان 1954

الريف بعد الفتح الاسلامى، بقلم احمد بن عبد السلام البوعياشى ـ تطوان 1954

البحرية العربية وتطورها فى البحر الابيض المتوسط فى عهد معاوية، بقلم فلهلم هونيرباخ ـ تطوان 1954

مختصر تاريخ تطوان، جائزة معهد مولاى الحسن لسنة 1953، تاليف محمد داود ـ تطوان 1955

كتاب الفلاحة لابن بصال، نشره وترجمه وعلق عليه خوسى ماريا مياس فاييكروسا ومحمد عزيمان ـ تطوان 1955

علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالاندلس، بقلم خوسى ماريا مياس فاييكروسا، تعريب عبد اللطيف الخطيب ـ تطوان 1957

مشاهير رجال المغرب ، بقلم عبد الله كنون
الارقام من 1 الى 9 نفدت والباقى من 9 الى 25

الفن والفنون المسلمون، لمؤلفه أنطونيو غرسيا خاين ـ مدريد 1951

تاريخ تطوان، تاليف محمد داود ـ تطوان 1960

قائمة منشورات

وزارة التربية الوطنية والشبيبة والرياضة

فهرس المؤلفين والعناوين والكتب الموجودة بالمكتبة العامة بتطوان، من وضع ـ احمد ابن محمد المكناسي ـ تطوان 1952.

فهرس خزانة الصحف العربية بتطوان، من وضع ـ محمد ابن عزوز حكيم ـ تطوان 1953

الشرق الاسلامي والحضارة العربية الاندلسية، بقلم ليفي بروفنصال ـ تطوان 1951

قصتان مغربيتان : «احمد» كتبها انريكي دي رويدا غريدو، و **«طه»** كتبها احمد الحسن السكوري ـ العرائش 1941

تاريخ المحاكم الاسلامية، الجزء 2، للفقيه السيد محمد المرير ـ تطوان 1955

نوبة اصبهان، لاركاديو دى لاريا پلائين ـ تطوان 1956

ابن خلدون، بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان ـ القاهرة 1939

رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة، بقلم الدكتور محمد مصطفى زيادة ـ القاهرة 1939

ازهار الرياض فى اخبار القاضي عياض، تاليف شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمساني. ضبطه وحققه وعلق عليه الاساتذة : مصطفى السقا، ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ـ القاهرة 1939

الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى، تاليف الاستاذ آدم متز. نقله الى العربية الدكتور عبد الهادى ابو ريدة ـ القاهرة 1940

امام الذكرى المئوية السابعة لوفاة ابن البيطار، بقلم خوليو كولا البريك ـ تطوان 1948

واحة الفكر، بقلم الاستاذ عبد الله كنون ـ تطوان 1948

دراسة سلالة شمال افريقيا، بقلم خوليو كولا البريك ـ تطوان 1948

ضون انخيل گونثالث پلينثيا (1889 ـ 1949)، محاضرات بقلم ضون ماريانو اريباس پلاو والسيد محمد عزيمان وضون گييرمو گواسطافينو گيينت وضون طوماس غرسيا فيغيراس ـ تطوان 1950

حياة الصوفى التطوانى الشريف سيدى عبد السلام بن ريسون وكراماته، بقلم عبد الرحيم جبور ـ تطوان 1951

لباب المحصل فى اصول الدين، لابن خلدون الحضرمي، الجزء الاول. تحقيق الاب لوسيانو روبيو ـ تطوان 1952

الطبيعيون الاسبان فى المغرب، بقلم طوماس غرسيا فيغيراس، وتعريب الاستاذ نجيب ابو ملهم ـ تطوان 1953